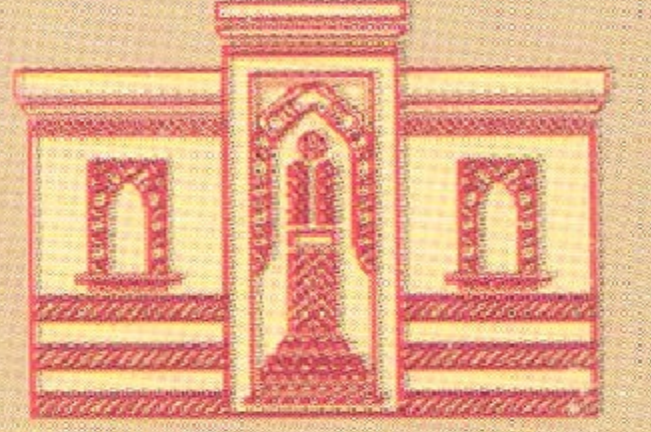




بنك مصر  
BANQUE MISR



إدارة الكتب والأوراق العتيقة  
مصر

# تاريخ دول العرب والإسلام



تأليف

محمد طلعت حرب

في تاريخ العرب وما كانوا عليه قبل الإسلام

حتى دولة الخلفاء الراشدين

الطبعة الثالثة



مَطْبَعَةُ دَارِ الْكِتَابِ وَالنَّوْءِ الْقَوْمِيَّةِ بِالْمَكَّةِ  
(١٤٢٨ هـ - ٢٠٠٧ م)



**تاريخ دول العرب والإسلام**





بنك مصر  
BANQUE MISR



مركز الأبحاث والوثائق القومية  
مركز الأبحاث والوثائق القومية

# تاريخ دول العرب والإسلام

تأليف

محمد طلعت حرب

الجزء الأول

في تاريخ العرب وما كانوا عليه قبل الإسلام حتى

دولة الخلفاء الراشدين

مطبعة دار الكتب والوثائق القومية بالقاهرة

الطبعة الثالثة (١٤٢٨ هـ - ٢٠٠٧ م)

الهيئة العامة  
لدار الكتب والوثائق القومية

رئيس مجلس الإدارة  
أ. د. محمد صابر عرب

---

حرب، محمد طلعت، 1867 - 1941.

تاريخ دول العرب والإسلام/ تأليف محمد طلعت حرب  
ط 3 - القاهرة: دار الكتب والوثائق القومية، 2007.  
مج 1 : 24 سم.

المحتويات ج 1 . فى تاريخ العرب وما كانوا عليه قبل  
الإسلام حتى دولة الخلفاء الراشدين -  
تدمك 0 - 0529 - 18 - 977

٩٥٣

---

إخراج وطباعة:

مطبعة دار الكتب والوثائق القومية بالقاهرة.

لا يجوز استنساخ أى جزء من هذا العمل بأى  
طريقة كانت إلا بعد الحصول على تصريح كتابى  
من الهيئة العامة لدار الكتب والوثائق القومية

رقم الإيداع بدار الكتب ٢٤٧٤٣/٢٠٠٧

---

I.S.B.N. 977 - 18 - 0529 - 0

## إهداء من بنك مصر

هذا الكتاب يعد أحد مؤلفات محمد طلعت حرب التي توضح تنوع اهتماماته الفكرية التي تتعدى الجانب الاقتصادي إلى الاهتمام بالتاريخ والأدب والقضايا السياسية والاجتماعية العامة. ومن هنا جاء هذا الكتاب «تاريخ دول العرب والإسلام» حيث أشار د طلعت حرب، في مقدمته إلى أن التاريخ هو نور الحقيقة ومصباح الهداية ومرشد الخلف لأحوال السلف ومدرسة جامعة تقوم الأخلاق والآداب وتثقف عقول أولى الألباب.

ويمثل هذا الكتاب عرضاً لتاريخ العرب وما كانوا عليه قبل الإسلام حتى دولة الخلفاء الراشدين في أسلوب شيق وعبارات سلسلة وجيزة. وقد أصدر د طلعت حرب باشاء، هذا الكتاب في طبعته الأولى عام ١٣١٥ هـ ١٨٩٧م وكان عمره حوالي ثلاثون عاماً ثم أعيد طبعه عام ١٩٠٥م.

ويسعد بنك مصر أن يعيد إصدار هذا الكتاب بمناسبة مرور ٨٧ عاماً على تأسيس البنك ومرور ١٤٠ عاماً على ميلاد طلعت حرب. آمليين أن يكون عوناً للدارسين والمهتمين بتاريخ العرب والإسلام.

**بنك مصر**

ذو القعدة ١٤٢٨ هـ نوفمبر ٢٠٠٧م.





# تاريخ دول العرب والإسلام

تأليف  
محمد طلعت حرب

الجزء الأول  
في تاريخ العرب وما كانوا عليه قبل الإسلام حتى  
دولة الخلفاء الراشدين

الطبعة الثانية (عام ١٣٢٣ هـ - ١٩٠٥ م)





# بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ



الحمد لله رب العالمين والصلاة والسلام على سيدنا محمد  
وآله اجمعين

وبعد فاني احمد الله ان وفقني الى جمع تاريخ دول العرب  
والاسلام واقدرنى على طبع جزئه الاول من نحو سبع سنين  
وكنت وقت عن طبع باقى الاجزاء لاسبب رغبات الناس  
فى اقتناء اسفار التواريخ ومحبة الاطلاع على الحقائق  
وقد ظهر لى ان نشئ الامة المصرية ونابته محبى اللغة العربية  
والامة الاسلامية نشئ حى له شغف بالوقوف على التواريخ

الصداقة وولع بالعلوم القديمة والحديثة فاقدت على اعادة  
 طبع ذلك الجزء بعد ان نفذ كل ما عندي منه ووردت  
 على الرسائل من الاصدقاء والمحبين بطلب ذلك ونقحت  
 في الكتاب مواضع كثيرة وزدت فيه زيادات متممة لقوائده  
 واستخرت الله في تمثيه للطبع مع دقة التصحيح حسب  
 الامكان وسأتبع هذا الجزء بباقي الاجزاء اسعافاً للطلابين  
 واجابة للراغبين سائلاً واهب القدر والقوى أن يوفقني  
 لتحقيق أمنية حضرة استاذي وصديقي المناضل حفي بك ناصف  
 في خطاب ارسله اليّ فكان من أتوى البواعث على التشمير  
 للعمل وبعث روح الامل . اما الخطاب فهو :  
 قال حفظه الله ؟

صديقي الوفي محمد طلعت حرب ( بك )  
 تطاولت الايام . وتصرمت الاعوام . دون اتمام .  
 كتاب دول العرب والاسلام . ولو كنت تعلم ما عند الطلاب .  
 من الارتقاب . لظهور باقي الكتاب . لخفت عنهم الم الانتظار .  
 وقصرت عليهم مدى الاصطبار . وانجزت الوعود . وبرزت

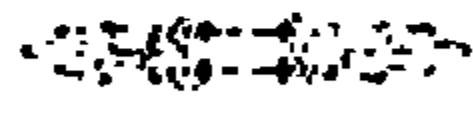
باقى الكتاب الى الوجود . ولم تكن هذه الرقى لقلة من  
 كتب . فى تاريخ العرب . بل لانك جمعت فى اوراق قليلة .  
 ما تفرق فى اسفار جليلة . واقتصرت على اللباب . وانتصرت  
 للصواب . وسهلت على الباحث . تناول المباحث . كما رأينا .  
 فى الجزء الذى قرأناه . والكتاب كما قيل يعرف من عنوانه .  
 والمرء باصغريه قلبه ولسانه . ولقد تخطف الناس الجزء الاول  
 اثر ظهوره . واصبحوا الآن ينشدونه فلا يجدونه لندوره .  
 فايقنت انك اخالست النية فى تأليفه . ولم تقصد غير وجه الله  
 فى جمعه وترصيفه . ولم يشب جمعه وطبعه . رياء ولا سمعه .  
 وكم طلب الى طالب ان استنهض همته . واشحذ عزيمته .  
 لاتمام الجمع . واعادة الطبع . وابرار الكتاب دفعة واحدة .  
 وادناء جناه لمتطف الفائدة . فلم أر بدا من مكاشفتك باماني  
 الطلاب . وسؤالك اتمام هذا الكتاب . فليس فى عيوب  
 الانام . كنهة قص القادرين على التمام . وانت تعلم ان التاريخ مرربى  
 النفوس ومهذب الاخلاق ومشذب الطباع . وحاجة الارواح  
 اليه حاجة الجسم الى الاغذية . وذوى الادواء الى الادوية

وقد تهافت على التأليف فيه . كثير من غير عارفيه . فخطوا  
وخطوا . وصعدوا وهبطوا . وكم من حوادث تراها اليوم  
بعينك . وتسمها باذنك . تذهب فيها الكتاب المذاهب .  
وتأتي في حكايتها بالغرائب . والتاريخ منزلة الاقلام . بل منزلة  
الاقلام . فيحتاج الكاتب فيه الى قوة تمحيص . وقدرة على  
التلخيص والتخليص . ومثانة في التصحيح . ومكانة في التعديل  
والتجريح . ويعد عن التشيع والغواية . وتثبت في النقل  
والرواية . ونفرة عن الكذب والاختلاق . ووفرة من  
تهذيب الاخلاق . وكل هذه الشرائط متوفرة والحمد لله عليك .  
وتحقيق اماني الطلاب سهل عليك . فشمرك الساعد للعمل . وارباباً  
بنفسك ان ترعى مع الحمل . وفقك الله . الى ما يحبه ويرضاه»

صديقك

حفي ناصف

## مقدمة الطبعة الاولى



الحمد لله رب العالمين والصلاة والسلام على خيرة النبيين  
وخلاصة المهادين المنزل عليه في محكم الكتاب المبين ( وكلا  
نقص عليك من أنباء الرسل ما نثبت به فؤادك وجاءك في  
هذه الحق وموعظة وذكرى للمؤمنين )

وبعد فان الواجب على كل فرد من أفراد الامة أن  
يقوم بما يعود عليها بالنتع العميم والفضل الجسيم وأن يهدى  
الى أفراد أمتة من معلوماته ما يعتمد فيه الخير والمنفعة لحالها  
وما لها بقدر ما تصل اليه يد الامكان ويساعد عليه الزمان  
ولو كان من طفيف المتاع

ولما كان علم التاريخ من أنفس العلوم قدرا وأجلها شأننا  
وذكر امدحه عقلاء الشرق وحافظ على مطالعته نبهاء الغرب  
وحثت عليه أعاضم الحكماء في كل وقت وبين كل أمة اذ هو  
نور الحقيقة ومصباح الهداية ومرشد الخلف لحوال السلف



ومدرسة جامعة تقوم الاخلاق والآداب وتشرف عتول  
أولى الاباب وقد بلغ من مزيته وفضله أن كل أمة شغنت  
بمطالعه وأكثر من التنقيب في زواياه واظهار خباياه  
نالت من السعادة تدرأ مجيدا ومن السؤدد شأوا بعيدا كما  
هو ظاهر للعيان ولا يختلف فيه اثنان ومن الادلة على  
ذلك أن أوروبا وهي القابضة على صولجان المدنية الحاضرة  
يشتغل كثير من علمائها وفلاسفتها بالتأليف في هذا الفن  
الجليل وقد بلغ من اعتنائهم بذلك وتقريبهم هذا العلم من  
أفهام العامة أن جعلوه في قالب الروايات والاقاصيص حتى  
يسهل على الكل ادراك مغزاه وفهم مؤداه فيعرفون أسباب  
الترقى والفلاح فيأخذون بها وتشخص أمام اعينهم عوامل  
التقهقر والانحطاط فيفرون منها ولحسن ظني بتطلع جمهورنا  
الى اقتناء فوائد التاريخ واحتياجهم في هذا الزمن الى معرفة  
حالة الاسبيين وما كانوا عليه من عرب وعجم وعشائر وأمم  
ظننت في نفسى المقدرة—اعتماداً على سجاياهم وان كانت  
بضاعتي في ذلك مزجاة—على أن أضع في هذا الباب تأليفاً

مختصراً شاملاً بعد أن راجعت أصحاب الدراية في هذا الشأن وعرضت عليهم ما كتبتة واقتطفته من أشهر المؤلفات القديمة والحديثة بين عربية وأعجمية وسميته (تاريخ دول العرب والإسلام) وقسمته الى أربعة أجزاء \* الأول في تاريخ العرب وما كانوا عليه وتصاريف أحوالهم قبل الإسلام حتى دولة الخلفاء الراشدين \* والثاني يتدئ بدولة الخلفاء الراشدين وينتهي بسقوط بغداد \* والثالث في الدول التي انشقت من بني العباس ودول الإسلام بالاندلس \* والرابع في تاريخ الدولة العثمانية

وقد راعيت في هذا المؤلف ذكر احوال الدول وما كانت عليه بعبارة سلسة وجيزة واستنباطات مفيدة تكميلاً للفائدة وقد ذكرت في أوائل الدول الكبيرة بعض ملحوظات بيان ما كان عليه العالم وقت ظهور تلك الدولة ليكون المطلع على بصيرة ولا تضل فكرته في استنتاج الاسباب التي أدت الى ضعف تلك الدولة أو ارتفاعها أو تأخرها أو غير ذلك ولا يمكن من المقارنة بين أحوال تلك الدول الغابرة وأحوال الدول

الحاضرة فتحصل له ملكة التاريخ ونعمت المنفعة منفعته التي  
 أهمها اعتبار الحاضرين بما كان للسائين  
 والله المسئول أن يجعل عملنا هذا مقرونا بالنجاح أنه

نعم المحيب

هذا والمأمول ممن يطلع على هذا المؤلف أن يفض الطرف  
 عما يجده فيه من الهفوات أو الأبهام ويسبل عليه ستار العفو  
 لأن اشتغالي بوظيفةتي ربما عاقني عن استتباع الأخبار واستنتاج  
 النتائج كما يطلبه المتبحرون في هذا العلم فقد يكبو الجواد ويفوت  
 المرء السداد والله ولي التوفيق

محمد طلعت

شعبان سنة ١٣١٥

حرب

## ( تمهيد )

« حدود بلاد العرب — مواطن العرب وحاصلات بلادهم ومناخها — مساحتها وعدد سكانها — تشوف الأفرنج الى بلاد العرب وذكر أشهر سياحيهم بها »

قبل أن نرعى للقلم العنان في تاريخ الأمة العربية نذكر أشهر المواطن التي كانت تقيم فيها محددين لها من جهاتها الأربع بوصفها الطبيعي من حيث الجبال والنبات وجودة المناخ الى غير ذلك ثم نذكر أصول القبائل ومواطنها الشهيرة وما كانت عليه حالها وحال الأمم المجاورة لها فنقول

حدود بلاد العرب — بلاد العرب وتسمى جزيرة العرب هي قطعة أرض متسعة الأرجاء مستطيلة الهيئة كثيرة الجبال والسهول والصحارى وهي في الجنوب الغربي من آسيا محصورة بين البحر الأحمر وبلاد الشام والعراق والخليج الفارسي وخليج عمان والمحيط الهندي وخليج عدن وبموقعها هذا تكون أقرب البلدان إليها بلاد الحبشة والسودان ومصر وتنفصل عنها بالبحر الأحمر ثم الاقطار الشامية والعراق وهي متصلة بها وبلاد العجم وهي منفصلة

عنها بالخليج الفارسي ويتوصل منها لبلاد الهند بحراً بواسطة  
المحيط الهندي

مواطني العرب وما صدرت به ردهم ومناخها

قد قسم علماء الجغرافيا بلاد العرب الحقيقية الى ثمانية  
أقاليم حسب طبيعة أراضيها وهي الحجاز واليمن وحضرموت  
ومهرة وعمان والاحساء المسمى ايضاً بالبحرين ونجد والاحقاف  
(الاول) اقليم الحجاز - موقعه في الغرب من بلاد  
العرب ويمتد على ساحل البحر الاحمر ومن مدنه مكة المشرفة  
المسماة ايضاً بكة وام القرى وهي فاران المذكورة في التوراة  
(١) وبها بيت الله الحرام الذي فرض الله حجه على كل مسلم  
استطاع اليه سبيلاً وهو اول بيت وضع للناس كانت تؤمه  
الوفود من قديم الزمان للحج والعبادة ومن أماكن مكة  
الشهيرة في مناسك الحج الصفا والمروة ومنى وجبل عرفات  
والمزدلفة والمشعر الحرام

(١) فاران اسم لجبال بمكة وسميت مكة به ايضاً ومذكور في التوراة  
أنه سيخرج من فاران نبي وهذا تصديق لنبوّة النبي محمد صلى الله عليه وسلم

ومن مدن هذا الاقليم أيضاً المدينة وكان اسمها قبل هجرة النبي صلى الله عليه وسلم يثرب فبدله بطيبة كراهة في التثريب الذي هو العتب واللاوم وبها مقامه الشريف وتصل لهاتين المدينتين الارزاق من مدن أخرى لعدم خصوبة أراضيها فتستمد مكة أرزاقها من جدة التي هي فرضتها على البحر الاحمر وتستمد المدينة من ينبع المعروفة بينبع البحر ويوجد بوسط هذا الاقليم كثبان وآكام تبت المراعى وهي مساكن القبائل وحواليها قرى وضياع وفي تلك الآكام قلاع يلجؤون اليها عند هجوم الاعداء بمنجدراتها بعض حبوب وثمار وكلاللهماشى وعيون ماء . ويقرب احدى تلك الآكام مدينة الطائف وهي بستان مكة ومصيف أغنياء أهلها ولفوا كهها شهرة ومياه مكة زعاق لا تسوغ لشارب وأطبيها ماء بئر زمزم

ويلحق بالحجاز أرض تهامة وهي البلاد الممتدة من سفح الجبل الى البحر الاحمر وعلماء الجغرافيا لا يطلعون تهامة الا على الساحل لمقابلته بنجد الذي معناه المحل المرتفع ولذلك

سمى الحجاز حجازاً لوقوعه حازماً بين تهامة ونجد، ويسمون أيضاً تهامة (النور)

(الثاني) إقليم اليمن - سمي بذلك ليمنه وبركته ولذا سماه قدماء المؤرخين وعلماء الفرج « بلاد العرب السعيدة » أو ذات اليمن وقيل سمي بذلك لكونه على يمين الكعبة وقيل غير ذلك . وهو بالجزء الجنوبي من جزيرة العرب في شمال بلاد العسير أهل من قديم بالعمران ومتوفرة فيه الحضارة وسكانه يسمون عند القدماء بنى حمير خالطوا المصريين والأتوبيين والفرس وجميع الأمم التي تسافر في بحر الهند فانتظمت حكومتهم من عهد بعيد ولهذا الاختلاط ووفرة خيرات هذه البلاد تطلع لها الأجانب من الفرس والروم والحبشة فأغاروا عليها في أزمنة مختلفة حتى انتهت في زمننا هذا لم تسلم من أطماع الأجانب فقد احتل الإنكليز بلاداً منها كعدن وأخذوها مرفأً لسفنهم الجارية بين الشرق والغرب وفي كل يوم نسمع بثورة جديدة وفتنة عظيمة تدبرها يد أجنبية وتذكي نارها دولة أوربية. وبينما نحن نكتب هذه

السطور الآن سنة ١٩٠٥ نرى الخلاف قائماً بين الدولة العثمانية والحكومة الانكليزية على تحديد منطقة نفوذ كل منهما فيما وراء عدن والثورة مستعرة نارها بين الجنود العثمانية واهالي اليمن الذين يحاصرون الجنود في صنعاء لطف الله بالحال (١) ومن مدن هذا الاقليم مخا والحديدة وصنعاء التي يقربها أطلال

(١) كتبت جريدة الاوروبيان التي تصدر في باريس مقالة بعنوان اللورد كورزون ضد الباب العالي جاء فيها ما مؤداه :  
« لايزال اللورد كورزون حاكم الهند يلح في طلب توسيع منطقة الاملاك الانكليزية في عدن . وغرضه من ذلك وضع يده على الطرق الداخية في بلاد العرب والاستيلاء على ثغر « شيخ سعيد » العديم المثال . ولايزال جلالة السلطان يرفض اجابة انكلترا الى طاها بكل قوة وشدة . فاما عيل صبر هذه الدولة أمرت أحد الممالين من أبناءها بان يشتري مافوق ثغر « شيخ سعيد » من الاراضي بحيث صارت الجنود التركية المحتمة له في معزل عن بقية الجهات . وقد كانت « شيخ سعيد » من نحو عشرين عامات تحت رحمة فرنسا فأهملها الضباط الفرنسيون واستولى عليها جلالة السلطان في الحال وطمعت فيها انكلترا الآن

ونضلا عن ذلك فان أميراً عربياً « ابن سعود » قام يحارب سلطة جلالة السلطان في نجد ويحاصر « صنعاء » . وفي كل حركة



مأرب وسبأ المذكورة في القرآن الكريم .  
 وبمدينة مأرب وجدت الآثار المنقوشة على الصخور  
 بالخط المسند الحميري الذي حين حلت رموزه وقف المتأخرون  
 بعض الشيء على تاريخ هذه البلاد . وصنعاء المذكورة هي المنافسة  
 لمكة من عدة قرون في التاقب بعاصمة جزيرة العرب ولذا اتخذها  
 التبابعة ومن خلفهم عليها من عمال الفرس والحبشة دار إقامة  
 وهي الآن مقر أقوى أمراء اليمن شوكة وبها دار واليها  
 واشتهرت بقربها نجران وكان بها قبة عظيمة تسمى بكعبة  
 نجران بناها عبد المسيح بن داوس بن عدى أحد أمراء اليمن  
 في الزمن الأول من انتشار النصرانية بتلك الأرجاء وكان اذا  
 نزل بها مستجير أجير او خائف أمن أو جائع أشبع أو طالب  
 حاجة قضيت . وكانت العرب تقصد زيارتها كما تقصد زيارة  
 كعبة بيت الله الحرام بمكة .

ثورية في نجد أو في اليمن يجد الانسان ايدي الانكليز عاملة طلبا  
 لما ربهم من العالم الاسلامي . وان الجهات البريطانية تعمل في تلك  
 الجهات النائبة عملا كبيرا كما عملت في الكويت «  
 انظر العدد الثاني من جريدة العالم الاسلامي الصادر في ١٧ مارس سنة ١٩٠٥

ولبلاد اقليم اليمن شهرة عظيمة بزراعة البن وتجارته فينسب اليه فيقال بن مخا وبن عدن الخ ويملك الانكليز على ساحل بلاد اليمن مدينة عدن كما أسلفنا لكونها في طريق الهند ثم جزيرة قران بالقرب من الساحل الغربي لبلاد اليمن على البحر الأحمر ثم جزيرة بريم في بوغاز باب المندب ولا تخفى أهمية مراكز هذه الجهات لدولة تريد ان تكون سيدة البحار وان يكون بيدها مزايا بلاد العجم والعرب والهند والسند

الثالث - اقليم حضرموت - وهو واقع في ساحل بحر الهند في شرق اليمن ومتصل به ومثابه له في المناخ والمزايا الطبيعية ومنه العود القاتل ومن مدنه ظفار وشيبان

الرابع - اقليم مهران - واقع شرقي حضرموت وهو وان كان متصلا به الا أنه أقل منه خصوبة ولذلك استمد سكانه وسائل عيشهم من البلاد الأخرى والبحر عندهم كثير السمك يقتاتون به هم ومواشيهم واليه تنسب الابل المهرية

الخامس - اقليم عمان او شحر عمانه - وهو متصل بالخليج الفارسي وخليج عمان والمحيط الهندي وبقليم مهران

وهو تجاه الهند وبه قليل من النحاس والرصاص والبقول  
والتمر ولقلة حاصلاته حرم من المظهر التجارى ولم تجلب اليه  
تجارة الهند لعدم وجود شئ فيه يصلح للتبادل ومن مدن  
هذا الاقليم مسقط وصحار .

السادس - اقليم الهند - ويسمى أيضاً بالبحرين  
لوقوعه على بحرى عمان والفرس . وجزائر هذه الجهة مشهورة  
بمغاص اللؤلؤ وقيل ان السفن المشتغلة بالمغوص عليه في موسمه  
تبلغ الستة آلاف سفينة وأن عدد الاشخاص الذين يشتغلون  
بذلك نحو سبعين ألف غواص وأن قيمة ما يستخرج من  
اللؤلؤ في السنة يساوى ١٢ مليوناً ونصفاً من الفرنكات . (١)  
ولا يرى هذا الاقليم أهلاً بالناس الا في فصل غوص البحر  
فترى الناس يقدون اليه أفواجا من كل صوب حتى اذا  
أخرجوا اللؤلؤ قفلوا راجعين بمناجرهم الى أسواق الهند وبلاد  
الفرس وغيرها ويصبح الاقليم قارداً صيفاً . وأشهر مدن هذا  
الاقليم الهوف والقطيف على بحر عمان . ولحمير هذا الاقليم شهرة

(١) هذا التقدير كان من سنوات ولا بد وان يكون قد زاد الآن عن ذلك كثيرا

ولموضع هذا الاقليم الجغرافي ولتجارة اللؤلؤ الذي يستخرج منه طمع فيه الاجانب واصبحت جزائر البحرين القائمة في وسط هذه السواحل ملك الهند الانكليزية !!

السابع - اقليم نجد - وهو في جنوب صحارى الشام شاغل جميع الجزء الاوسط من جزيرة العرب وهو ما بين الحجاز والاحساء والاحقاف الذي كان به مدينة هجر وأغابه هضاب رملية ويتصل ببلاد العراق شرقاً

وبه كثير من الواحات التي تنبت الكلاب والنباتات النفيسة مثل العرار - وهو النرجس البرى - والشيخ والقيصوم وبه أرض العالية التي حماها كليب بن ربيعة وأفضى ذلك الى قتله وانتشاب حرب البسوس كما سيجيء

ونخيل هذا الاقليم وابله شهرة فائقة وكانت العرب تسميه بلاد الابل ومن مدنه مدينة الرياض وهي عاصمة الوهابيين الذين سنتكلم عليهم فيما بعد

الثامن - اقليم الرهفان - هو صحراء متفرقة في قلب جزيرة العرب تلحق به في بعض الكتب أرض اليمامة وحاله

مجهول وهو واقع بين عمان والاحساء ونجد وحضر موت ومهرة



ويتخترق بلاد العرب كما قدمنا في معظم جهاتها جبال وهضاب كثيرة وصحار واسعة أشهرها صحراء الاحقاف وصحراء النفود جهة الشمال والربع الخالي جهة الجنوب ولا يعلم بها بحيرات ولا أنهار ولكن فيها شئ من الجداول والعيون والاباز وهي شهيرة بنباتاتها الثمينة العطرية ومن محصولاتها البن والزيتون والتمر وكثير من الفواكه والمشمومات وبها كثير من الحيوانات المستأنسة والوحوش الكاسرة ولظباؤها وحيرها وخيولها وابلها شهرة عظيمة وبها كثير من الطيور والحشرات ومناخ هذه البلاد حار على الوجه العام معتدل فوق النجود العالية حيث تكثر النباتات والمياه

وقد بدى من بضع سنوات في مدينته حديدية تصل الشام بهذا البلاد ولا تخفى أهميتها الاقتصادية والعسكرية والدينية فتسهل الحجاج على المساميين كما تسهل وسائل الدفاع عن البلاد وكبيع جماع الثائرين . وقد تم جزء عظيم من هذا الخط وافتتح رسمياً من شهر

مساحة جزيرة العرب وعدد سكانها. — قد اختلفت أقوال الجغرافيين في مقدار مساحتها فبعضهم قال أنها نحو ١٢٦ ألف فرسخ مربع أى ضعف مسطح بلاد فرنسا وقال البعض الآخر ان مساحة بلاد العرب أكثر من مساحة بلاد فرنسا بنحو خمس مرات وقال آخرون أنها أكبر منها بست مرات (١) كما اختلفت أيضاً أقوالهم في مقدار عدد سكانها فمن قائل أنها تبلغ اثني عشر مليوناً من النفوس. وقائل بنصف ذلك وقائل أنها تبلغ ثمانية ملايين منها خمسة خاضعة لحكم الدولة العلية وهى فى الحجاز واليمن والاحساء والباقي مستقل يحكمه

(١) مساحة القطر المصرى نحو ٦٠٠ الف كيلو مترا مربعا بما فيه الصحارى أى نحو ١٥٠ مليون فدان ومن غير الصحارى نحو ٢٦ الف كيلو مترا مربعا أى نحو ٦١٥٨٠٧٧ فداناً ومساحة بلاد فرنسا كيلو متراً ٥٣٧ الف كيلو مترا مربعا ومساحة انكلترا ٣١٥ الف كيلو مترا مربعا ومساحة جزيرة العرب ٢٥٠٧٤٠٠ كيلو مترا حسب قول ايليزيه ريكلى Elisée Reclus و ٢٨٥٠٠٠٠٠ كيلو مترا كما جاء بدائرة المعارف الفرنسية و ٣١٠٠٠٠٠٠ حسب قول الجغرافى شرادر و ٢٧٠٠٠٠٠٠٠ كيلو مترا حسب كتاب التحفة الازهرية لحضرة اسماعيل افندى على .

أئمة من العرب في نجد وتهامة واليمامة ومسقط وعمان  
وحضرموت

ولعمر الحق ما هذا الاختلاف بالامر الغريب لتعلقه  
ببلاد قلما دخلها اوروبي او عالم اجنبي لشدة حرارتها ووعورة  
مسالكها وجبل ذات اهلها وعوائدهم وتمسكهم بدينهم  
وشدة ابائهم دخول الاجنبي بلادهم

نشوف الافرنج الى بلاد العرب وذكر اشهر سياهم بها  
من تصفح كتب الغربيين علم انهم متطعون من زمن  
غير قريب اعرفه تلك البلاد طامعون فيها متشوفون للوقوف  
على حقيقة احوالها حيث لم تشف غلثهم ما ذكره عن بعضها  
جماعة من مؤرخي اليونان والروم الاقدمين مما لا يخلو من  
التقص في مواضع والحشو والرجم بالغيب في غيرها. ولا يخفى  
على القارئ اللبيب دواعي هذه الاطماع فاسجل دين وطباع  
وعوائد وتجارة وصوالح يثني ان تسود على ما سواها وان  
يتلاشى ما عداها ولنا في خروج أمير الكويت الآن عن  
طاعة السلطان وتسابق الدول لبسط نفوذها على تلك البلاد

وقيام الفتنة في اليمن وتوسيع الخرق بين مبارك بن الصباح شيخ الكويت وابن سعود وابن رشيد وغيرهم اعظم عبرة لمن يعتبر ومن اراد ان يعرف ما وصلت اليه الحال هناك فليقرأ ما كتبه المسيو الكسندر أولار الكاتب الفرنسي الشهير من ضمن مقالة نشرتها المجلة الفرنسية في عددها الصادر في اول فبراير سنة ١٩٠٥ على «الهند والمنافسة بين انكرا والروسيا» وعربتها عنها جريدة العالم الاسلامي في عددها الاول الصادر في ١٠ مارس سنة ١٩٠٥ . قال :

«ان الحوادث الجارية في قلب بلاد العرب تخدم السياسة البريطانية أكثر مما يقع في سواحل البحر الاحمر . فما لا يجوله القراء أن في نجد بجنوب البلاد العربية حزبا كبيرا اسمه «الوهابيون» قام من منتصف القرن الثامن عشر بتأسيس امارة مستقلة حاربتها تركيا وقبائل شمال العرب وقد تحالف اولئك الوهابيون من مدة مع شيخ الكويت لينالوا بواسطته الاساحة اللازمة لهم من الخليج الفارسي . ولما أعلن مشروع سكة حديد بغداد في عام ١٩٠١ وصرح بأن



في النية جعل الكويت آخر محطة له استولت انكثرا بغتة على هذه النقطة المهمة . وأخذت الحادثة دورا كبيرا واضطر الانكليز للانسحاب . ولكنهم منحوا الشيخ مبارك امتيازات جعلته يرضى بالسيادة البريطانية ويقاوم مولاه التركي وانتهى الحال بان قبل في صيف عام ١٩٠٤ اقامة معتمد انكليزي في بلاده . وهو لا يزال بها وسيتي الى الابد . فبارك الصباح بحالفته لابن سعود صار آلة الهند الانكليزية ضد حلفاء جلالة السلطان من العرب والبدو . وقد قام زعميهم ابن الرشيد بمحاربة ابن سعود حتى نفذت ذخائر الفريقين وانتهت الحرب توأهما . وكانت الحرب بينهما حربا بين انكثرا والروسيا في الحقيقة ! وبينما كان الوهايون يأخذون ما يحتاجون اليه من الاسلحة من الكويت كان ابن الرشيد واصحابه يأخذون بطرق لا يعرفها احد مقنذوفات روسية ! وقد كان النصر في آخر الامر للوهايين واضطر محاربوهم لان يخلوا من شهر أغسطس الماضي البلاد العربية وقيموا في جنوب نهر الترات وبذلك تغابت انكثرا على جلالتى السلطان والتيصر مجتمعين

ومن المؤكد ان العلائق ليست بوطيدة بين الهند الانكليزية والوهابين . ولكن مبارك الصباح يتكفل بتقويتها . وعلى كل حال فان اميالهم لخليفتهم البعيد محققة . وهذه النتيجة كافية لانها تسمح للانكليز متى سنحت الفرصة بان يضيفوا الى الخطوط التي ذكرناها قبلا خطا جديداً خطير الشأن يمتد من بور سعيد الى الخليج الفارسي مخترقا اراضي الشام....»

وقال ايضاً: «ان انكلترا تريد أن تجعل الخليج الفارسي أو «البحر الابيض للشرق الاوسط» بحيرة انكليزية . وترى في اقامة قاعدة بحرية في هذه الجهات لاية دولة اجنبية اعلان حرب عليها . ولذلك كانت مسألة الخليج الفارسي دقيقة للغاية . وقد تمكن الانكليز من توطيد سيادتهم في الكويت ومسقط . أما البلاد الواقعة بينهما فان اصحابها يتأثرون بسياسة شيخ الكويت وسلطان مسقط . وقد زاد احترامهم للانكليز من عهد زيارة اللورد كورزون<sup>(١)</sup> للشواطي العربية في عام ١٩٠٣

(١) حاكم عموم الهند حالا

وفضلاً عن ذلك فإن جزائر البحرين القائمة في وسط هذه السواحل هي ملك للهند الانكليزية. ولكن الامر بخلاف ذلك بشأن الشواطئ الفارسية. وان مسئلتها مرتبطة تمام الارتباط بمستقبل المملكة الإيرانية. وهذا المستقبل هو أهم أمر في السياسة العامة يخشى وقوع حرب بين انكلترا والروسيا بسببه.....»

وكان معظم اهتمام الترنج باكتشاف تلك البلاد في الترن الماضي وجاء في كتاب الجغرافى الفرنساوى لانييه Lanier عند كلامه على بلاد العرب ان اول من باشر البحث عن هذه البلاد من الاوروبيين هو الالماني نيوهر المشهور Niebuhr رئيس الارسالية الدانيركية سنة ١٧٦٢ - ١٧٦٣ وكانت رحلته لبلاد اليمن لاكتشافات علمية على ما يؤكدون وبعد ذلك بنحو نصف قرن توصل الاسباني باديا Badia بواسطة تغيير زيه واسمه ملتباً نفسه «على بك العباسى» الى مدينة مكة المكرمة وكان اتى مصر اولاً وتظاهر بالاسلام ومنها ذهب

لببلاد العرب بالصفة السابقة في سنة ١٨٠٧ بعد ان تحصل في حلب على اوراق رسمية تثبت نسبتته الى الاشراف وفي سنة ١٨١٠ ذهب الالماني سيتزن Seetzen لبلاد اليمن وقتل هناك وفي سنة ١٨١٤ وسنة ١٨١٥ احتال السائح الانكليزي بورك هارد Burckhard حتى دخل مكة والمدينة ورجع مستمداً ببعض معلومات عن حالة البلاد الجغرافية وعن أهاليها وتظاهرها في آخر أمره بالاسلام وعليه مات وقبره بمصر واسمه عليه هكذا «عبدالله بوركهارد» ومشهور عند العامة باسم الشيخ بركات.

ثم حمل المصريون في هذا الوقت على الوهابيين فسهاوا بعض التسهيل دخول الاجانب بلاد العرب فتمكن بعض الفرنسيين من وصف مكة والمدينة المشرفتين وضواحيهما وأول من اجتاز الطريق من الخليج الفارسي للبحر الاحمر كما ورد بكتاب لانيه المذكور هو الضابط الانكليزي سادليه Sadlier بأمر من حكومة الهند . والالماني رايل Rappel عبر بلاد الحجاز في سنة ١٨٢٦ والجهات المجاورة لخليج العقبة

وفي هذا الوقت بينما كان بعض الضباط البحريين من الانكليز مكافئين من قبل حكومتهم بعمل خريطات لسواحل البحر الاحمر تطرف أحدهم وهو الملازم ويلستيد Wellsted وذهب الى بلاد عمان في سنة ١٨٢٨ وفي سنتي ١٨٣٧ و ١٨٤٢ قام الطبيعي بوتاتا Bota والملازم Bassama باقام به من قبل نيوبهر الالماني ونجح باعض النجاح في اكتشافاتهما العلمية وفي ذلك الحين زار الفرنسيان أرنو Arnaud وفولجانس فريسنل Fulgence fresnel شواطئ بلاد العرب الغربية والقبلية فزار أولهما مدينة سبأ وآثار مأرب ونقل صور كتابات كثيرة حميرية ودخل الثاني بلاد العرب وكان قنصلا لفرنسا في جدة وله علاقة بشريف مكة محمد بن عون الذي كان يسميه « الشيخ فرينايل » وفي ذلك الوقت ايضا اى في سنة ١٨٤١ — ١٨٤٢ دخل الفرنسيون ليون روش Léon Roche في بلاد الحجاز وزار المدينة ومكة المشرفتين لغاية في نفسه يريد قضاءها ونزل على شريف مكة محمد بن عون بتوصية من فريسنل سالف الذكر فاكرمه الشريف وخلصه من الموت الذي كاد يذوقه.

من العرب حينما اكتشفوا أمره وفضحه بعض الحجاج المغاربة  
وقد حكى روش المذكور عن نفسه « في كتابه الذي  
وضعه بالفرنساوية بعنوان عشر سنوات في الإسلام  
« Dixans à travers l'Islam » أنه ولد بمدينة جرينوبل  
Grenoble من أعمال فرنسا سنة ١٨٠٩ ودرس الحقوق على غير  
ميل منه لهما ثم سافر إلى بلاد الجزائر في سنة ١٨٣٢ ليستعمر  
مع والده أرضاً بتلك الجهات التي فتح الفرنسيون في ذلك العهد  
بعضها وصادف أن لمح فتاة مغربية كانت تسكن بجانبه فعشقها  
وعشقه على ما يقول وولع بها ولما شديداً دعاه إلى تعلم العربية  
وكان الفرنسيون في ذلك العهد في هدنة مع الأمير  
عبدالقادر الجزائري فاحتال روش على الأمير ودخل في خدمته  
وادعى الإسلام وحاز ثقة الأمير حتى أهله بمسلمة واطلعه على كل  
سرايره ودخائله واتخذته كاتب سره حتى إذا ما قامت الحرب  
بين الفرنسيين والأمير فر روش إلى أهله وخان الأمير وكان  
عينا عليه في جيش الفرنسيين وهذا جزاء من يغتر بالظواهر  
ومن يستسلم لكل دخيل في الدين !!

ثم رأى الفرنسيون ان لا ترسخ لهم قدم في بلاد الجزائر  
الا اذا افهموا الجزائريين أن الدين لا يمنعهم من الخضوع  
للفرنساويين ومسالمتهم ماداموا هم اصحاب القوة ولا يكون  
ذلك الا اذا حصلوا على فتوى من علماء المسلمين يتوكلون عليها  
ويؤثرون بها في عقولهم فقام روش بهذه المهمة وجاءه التيروان ومصر  
وحصل من علمائهما على الفتوى المقصودة والضالة المنشودة  
بطرق وحييل أَمَاط اللثام عنها في كتابه وكان للدينار وبغض  
امراء المسلمين لبعضهم القدر المعلي وسافر الى الحجاز ليذكي  
تلك الفتوى من علماء مكة والمدينة فاكرمه الشريف كما اسلفنا  
وانطلقت عليه حيلته كما انطلقت على عبد القادر من قبل فلم يجده  
بعض المغاربة في نزولهم من جبل عرفات فعرفوا انه ذلك الخائن  
الهارب فقاموا عليه وارادوا التنكيل به لولا ان تدخل الشريف  
تخلصه وأمنه على نفسه وجباه بنقود يستعين بها على سفره  
واشخصه الى جدة ورجع منها الى بلاد دمسرورا بفوزه ضاحكا  
على لحي المسلمين الذين لعب على عقولهم في الشرق والغرب  
ولله في خلقه شؤون !!

وفي العهد المذكور أيضاً اجترأ العالم الألماني البارون  
 وريد Wrede على التوغّل حتى بلاد حضرموت التي لم  
 يسبقه ولم يلحقه إليها أحد من الأجانب كما قال لانييه السابق  
 ذكره وفي سنة ١٨٤٥ دخل العالم الفنلندي أوجستوس والين  
 Augustus wallin في الجوف وجبل شمر بزى مسلم  
 واجتاز بلاد العرب من الغرب للشرق وفي سنة ١٨٥٣ رافق  
 الحج المسيو ريشار برتون Richard Burton بزى مسلم أيضاً  
 ووصل إلى مكة والمدينة المكرمتين

وفي سنة ١٨٦٢ و ١٨٦٣ تمكّن ويليام بلجراف  
 William Palgrave الإنكليزي من زيارة بلاد العرب من جهة  
 الشام وشواطئ عمان وملخص ترجمته وقصته على ما جاء في  
 الكتاب السالف الذكر هو أنه ولد بوستمنستر من أعمال انكلترا  
 سنة ١٨٢٢ وكان أبوه متشراً ومؤرخاً إنكليزياً شهيراً وتخرّج  
 على مدرسة أو كسفورد ثم خدم في الجيش الهندي وأقام بعدها  
 عدّة سنين في الشام تعلم في أثنائها العربية وتعرف ببعض الآباء  
 اليسوعيين بها ثم حدّثته نفسه بالرحيل لبلاد العرب وساعده



هؤلاء الآباء على انماء هذه الفكرة وحصلوا على تعضيد نابليون الثالث امبراطور فرنسا وقتئذ له وصبغوا رحلته بصبغة دينية سياسية سرية نفقاتها دفعت من جيب الامبراطور الخاص فسافر بلجراف مؤملا الوصول الى تحريك ذلك الدم العربي الراكد حسب زعمه وتمدين بلاد العرب بواسطة تسهيله طرق اختلاطهم بالغربيين ومضمرا انتهاء فرصة الشقاق الذي كان بين أهالي نجد لاحداث ثورة دينية سياسية عله يستفيد منها أن يبدلوا دينهم بالدين المسيحي كما هجس بخاطره فتزيا بزى أحد أغنياء العرب وادعى أنه حكيم واستصحب معه بعض أهل البادية يجرسونه ومسيحياً شامياً جعله تلميذاً له وكان يحمل معه على ظهر ركائبه بعض أدوية وعقاقير تدل على صنعة الطب التي اتحلها لنفسه ولما وصل الى نجد أقام مدّة بالرياض عاصمة الوهابيين وكان يحكم عايبها وقتها الامير فيصل وقد كاد هذا المخاطر بنفسه يلقي منيته هناك من يد ابن هذا الامير الذي أوجس منه الخيفة وقد افتضح بعض أمره لولا ركونه الى الفرار فاجتاز النفود الشرقية وأقام بالهفوف من أعمال الاحساء

وزار القطيف وجزائر البحرين وتوجه لعمان ماراً على هرمز  
ومسقط ثم قفل راجعاً إلى الشام عن طريق البصرة والموصل  
وماردين وديار بكر

وفي سنة ١٨٦٤ رسم الإيطالي كارلو جوارماني  
Carlo Guarmani قطعة من بلاد العرب على حدود الشام ثم  
ن الألماني ويتزتين Wetztein قنصل بروسيا بدمشق إذ  
ذاك وضع كتاباً في جغرافية بلاد العرب حسب ما التقطه من  
أفواه بعض الحجاج ورؤساء القوافل التجارية

وفي سنتي ١٨٦٩ و١٨٧٠ ساح الألماني مالتزان De Maltzan  
والسويسري مونزنجر Munzinger والفرنساوي هالفي  
Halevy منفردين بالجهة القبليّة الغربيّة من جزيرة العرب  
وحصلوا كما يقولون على بعض معلومات مهمّة

وفي سنة ١٨٧٩ اجتاز الإنكليزي بلونت وامرأته (١)

(١) مستعرب شهير من اغنياء انكلترا وزوجته من اعظم  
عائلات الانكليز وهي حفيدة اللورد بيرون شاعرهم المشهور الذي  
مات وهو يقاتل متطوعاً مع اليونان في حربها الاولى ضد الدولة

Mr. et Mme. Anna Blunt بلاد الاردن ومنها الى  
الفرات ثم وصل الى الحائل من بلاد نجد واقاما بضع شهور  
عند ابن الرشيد

وفي سنة ١٨٨١ اخترق هوبر Huber صحارى بلاد العرب  
البحرية والغربية ومن سنة ١٨٨٢ الى سنة ١٨٨٧ جعل الفلكي  
النمساوي جلازير Glaser بلاد اليمن موضع بحثه

هذا ولا زلنا نسمع كل يوم بالجرائد وغيرها أن بعضاً  
عن الفرنج قد بارح بلاده قاصداً السياحة والتروح ببلاد العرب  
والله أعلم بما يضمرون وما يلاقون هناك وما يكتشفون  
وكذلك كل يوم نقرأ اخبار دسياسة جديدة وفتنة حديثة ولنترك  
للمستقبل كشف الستار عن هذه الاطماع ونتيجة تلك الغايات

العلية . والمستر بلونت المذكور وامراته مشهوران بزيهما  
العربي وولعهما بالمعيشة البدوية . وكان له شأن في الحوادث العربية  
وصداقة بعراي زعيمها وله كتابات في ذلك طبعت بالانكليزية كما ان  
لزوجته رحلة في نجد والبلاد التي زارها مترجمة الى الفرنسية وقد  
ترجمت المعاني الى الانكليزية وفي كل عام يقضيان فصل الشتاء  
يحدهما العروق في عين شمس بضواحي القاهرة . . .

وإتماماً للفائدة نثبت هنا رسالة لمكاتب جريدة «جرنال دى بيان بطرسبورج» الروسية في البصرة عربتها عنها جريدة العالم الإسلامي في عددها الثالث الصادر في ٢٤ مارس سنة ١٩٠٥ قال المكاتب المذكور:

«لقد علمت من اخبار الكويت انه يوجد بها ثلاثة قنصل من الانكليز . أولهم الذي عين في شهر اغسطس الماضى والذي كان موظفاً في قنصلاتو انكلترا بوشير وثانيهم قنصل البحرين . وثالثهم الرئيس الأكبر وهو قنصل بوشير الذى بيده قيادة قلم المخابرات ونشر المنشورات في دائرة الخليج الفارسى . ومعهم بارجة حربية يشتغل بحارتها باختبار حالة الميناء وأخذ مقاييسها . وقد وضعوا رسومات لتشييد برجين ليرفع على كل منهما فتار . وانى لست محتاجاً لان اقول ان موظفى هذين الفتارين لا يكونون عثمانين بل يكونون انكليزاً كالقنصل ومساعديه وخدامه والطبيب والحاجب وعمال التلغراف وعمال شركة الملاحة وبائع نسخ التوراة — ذلك الذى لا أفهم له وجوداً في مدينة اسلامية محضة —

«وان عمل البحارة واضح وظاهر . ولكن عمل القناصل غامض . الا ان الجهات التي ترسل اليها الرسائل وأمورا أخرى دلتني على ان الحكومة الهندية الانكليزية غيرت خطتها الاولى التي كانت ترمي الى الاستيلاء من الشقاق المرفوعة أعلامه فوق أهالي بلاد العرب الداخلية والانقسام السائد بين الزعيمين الكبيرين ابن الرشيد وابن سعود حيث كانت تعضد هذا الاخير الذي كان ضعيفاً ومعادياً للسلطة التركية ومجانفاً لشيخ الكويت وقد صار الآن قويا بفضل المساعدات المالية والاسلحة الحربية التي جاءت من الكويت . ويقال انه انتصر على ابن الرشيد وجمع تحت امرته كافة القبائل في تلك الجهات وفتح بلاد الجزيرة كلها

«ولكن ابن سعود أفليح بدون مساعدة انكابترا وأخذ ١٢ مدفعا من الامدادات التركية التي أرسلت من بغداد أولا ومن المدينة ثانيا . وضمها الى المدافع الاربعة التي أعطاها انكابترا لشيخ الكويت . ويقال انه استولى كذلك على ثلاث رايات تركية أرسل من رجاله من عرضها على كافة القبائل

وأصبح بذلك في غنى عن الانكليز

«وعندئذ أخذ التناصل الانكليزي مخابرون خصمه. ولكن نظرا لكون حكومة الهند الانكليزية ارتبطت من قبل مع ابن سعود ارتباطا فاضحا واكون التناصل الانكليز هم ضيوف مبارك الصباح فقد جعلوا وجهتهم في مخابراتهم مع ابن الرشيد عقد الصلح بينه وبين عدوية وأرسلوا اليه يقولون: «اذا قُبات تداخانا حفظنا لك البقية الباقية من بلادك وتركناك أميرا على حائل وشمر الجنوبية كما كان آباؤك من قبل. وجعلنا ابن سعود اميرا على بلاد الوهايين ومنعناهم من التقدم الى الامام. واذا دعت الحاجة تقدم لك الاسلحة والعدد لمقاومته ونحميك حماية أفضل وأنفع من حماية ساطانك لك !»

«ولكن أهم ما في الموضوع معرفة مصلحة مبارك الصباح فيه لان نجاح الامر مرتبط به دون سواه. فلنتظر في ذلك:»  
«انه لو نجحت خطة التناصل الانكليز لصارت بلاد العرب الشرقية خاضعة للسيادة الانكليزية وكانت مؤلفة من ثلاث امارات قواعدها «الرياض» وأميرها ابن سعود و«حائل»

وأمرها ابن الرشيد و «الكويت» وأميرها ابن الصباح .  
وهذه المدائن الثلاث تحكم بلاد العرب في الحقيقة ووقوعها  
تحت السيطرة البريطانية يعرض سيادة الدولة العلية لخطر  
جسيم . ولما كانت قوة الأتراك عظيمة في كل الثغور الا في  
الكويت فان هذا الثغر يكون مصدرا للأسلحة والذخائر  
الواردة من مسقط والهند . فضلا عن ذلك فان ابن الصباح  
يعطي يومئذ دائرة واسعة لنفوذه تمتد من العراق لغاية  
« شط العرب » وتصل في الشمال الى أخصب منطقة لوادي  
الفرات حيث ينتظر هناك صديقه « سعدون » اقل إشارة  
لاشغال نيران الفتنة .

« هذا ما يريد القناصل الانكليز . وهو في الحقيقة هدم  
اركان السيادة التركية في كل البلاد العربية . وقد يستفيد  
الامراء الثلاثة من ذلك ( ١٠ ) وخصوصاً ابن الصباح . ولكن  
طلب القناصل جاء متأخرا اذا صح ان دواملو ومصطفى نوري  
باشا والى البصرة السابق — الذي غزل بسبب الدسائس  
ووصل الى الاستانة في آخر اكتوبر اى خمسة أسابيع قبل

احتجاج تركيا على تعيين قنصل انكازى فى الكويت —  
توصل الى اقناع حكومة جلالة السلطان بوجود العفو عن  
الامراء الثائرين واستمالتهم اليها وكان حقا ما يقال من ان جلالة  
عفا فعلا عن ابن السعود وابن الصباح وامر ابن الرشيد بأن يبق  
ساكنا فى بلاده . ولكن هل قبل الامراء ذلك ؟ ان الامر  
مختص فى الحقيقة بمبارك الصباح لانه الواسطة الى ابن سعود  
«ومما لا شك فيه ان هذا الشيخ شعر الآن بعجزه عن  
نيل الاستقلال وباضطراره للاختيار بين أحد امرين . اما  
تبعيته لسيادة تركية مركزها بعيد عن بلاده . واما خضوعه  
لسيطرة بريطانية ستقضى حتما باستعباده . وان الهند مع  
امرائها الخاضعين المستعبدين ليست بعيدة عنه . وكثير من  
رعاياه يذهبون اليها فى كل عام لينتقوا اللؤلؤ فى البحرين .  
وهذه جزائر البحرين على مقربة منه . وقد عرف كيف صار  
سلطانها فى أعس حال بتغلب الهنود عليه واستيلائهم على  
الثروة كلها . ولكنه يعلم من جهة أخرى أن الموظفين العثمانيين  
يستطيعون يوما ما الهجوم على أرضه ومحو آثار اماراته . وهو



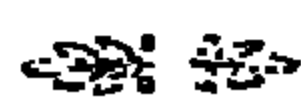
يخاف بنوع خاص — وكم قال له الإنكليز ذلك؟ — أن تصدر  
أرادة سلطانية بجعل الكويت آخر محطة لسكة حديد بغداد  
وترتعد فرائضه لهذا التداخل المخيف

« غير أن أحد أصدقائه من الأوروبيين اقترح عليه حلاً  
بسيطاً » ويقال أنه قبله . وهو أن تضمن له روسيا وفرنسا  
بالاتفاق مع انكلترا استقلاله الداخلي تحت سيادة الباب  
العالى . وقد استطع رأى هذه الحكومات بصفة غير رسمية  
ولم تنته النتيجة بعد . ولكن عمال الحكومة الهندية الذين  
يسبتون على الدوام الحكومة الانكليزية يحاولون عقد  
اتفاق يقضى بسيادة انكلترا على اتحاد الامارات العربية »

هذا هو مجمل حال جزيرة العرب في الوقت الحاضر فالدسائس  
تلعب بها وبأمراتها ولا يعلم غير الله ما سيكون من أمرها ولا  
يسعنا إلا أن نسأله سبحانه وتعالى أن ينير بصائر القوم حتى  
يعرفوا الضار والنافع لهم ويتجسم لنظرهم الخطر المحقق بهم  
المهدد لبلادهم فيعملون إلى تلافيه ويعتبرون بما حصل لغيرهم !!

## الباب الاول

## فيما ظهر عليه العرب قبل الاسلام



## ﴿ الفصل الاول ﴾

نسب العرب وطبقاتهم — طبائعهم وأحوالهم وصفاتهم وذكر بعض عاداتهم  
الزواج والطلاق عندهم وكيفية أحكامهم — معتقداتهم الدينية وحروبهم  
وأسلحتهم وثقوبهم — لغتهم وأشعارهم وشعراؤهم وأسوافهم والكتابة عندهم  
آدابهم وتلومهم وتجارتهم وصناعاتهم وتقودهم

العرب أمة قديمة الرياسة على الأمم طائفة البصيت في  
الآفاق نالت من العز والمنعة امداً بعيداً حتى بلغت من العظمة  
وسمو المنزلة ما لم يبلغه غيرها من الأمم المضروب بها الامثال  
نسب العرب وطبقاتهم — وبخلاصة ماورد في الكتب  
عن نسبها أنه يتصل بسام أحد أولاد نوح الذين نجوا معه  
من الطوفان وهي تنقسم الى طبقة بادت ودرست أخبارها ولم  
يرد في التواريخ منها الا القليل ومع ذلك فانه مشوب بالخلط  
لا يعلم فاسده من صحيحه وسنذكر فيما يأتي طرفاً من ذكر  
بعض قبائلها مثل عاد وثمود وطسم وجديس . والى طبقة

بأقية وعربها يرجعون كلهم الى قحطان أبي العرب كلهم كما  
 سيجي والى عدنان ولد اسمعيل عليه السلام ولهذه الطبقة  
 حالان حال الجاهلية وخال الاسلام وعرب الطبقتين متحدون.  
 فى الطبائع والعادات على اختلاف طبقاتهم الست التى هى  
 الشعوب والقبائل والعمائر والبطون والانفاذوالفصائل. وبنو  
 قحطان يسمون العرب العاربة وبنو اسمعيل العرب المستعربة  
 نسبة الى أبيهم اسماعيل الذى كان عبرانياً اعجمى اللهجة وانما  
 استعرب لمخالطة العرب العرباء ومصاهرته لهم كما سيأتى  
 والعرب العاربة يسمون أيضاً الحظانيين والسبئيين والحميريين  
 والكهلانيين واليمنيين والكليبيين نسبة الى بعض أولاد  
 قحطان. وتعرف بنو عدنان بالاسماعيليين والمعديين والمضريين  
 والقيسين

وفى تسمية هذه الامة بالعرب أقوال أشهرها انها  
 سميت بذلك نسبة الى لغتها أى لفصاحة لسان أهلها وعدم  
 لحثهم فى الاعراب وقيل نسبة الى يعرب بن قحطان أبي اليمن  
 كلهم وقيل غير ذلك

وجاء في كتاب موسوعات العلوم الفرنسية المطبوع  
بباريس أن قحطان المذكور هو يقظان بن عابر بن سام المذكور  
في التوراة

طبائع العرب وأحوالهم وصفاتهم وبعض عاداتهم —  
ومن عهد التاريخ القديم الذي تكونت فيه الممالك القديمة  
والدول العظيمة كدول مصر ودول اليونان ودول الفرس  
الأولى كانت أمة العرب عريقة في القدم قائمة الملك على  
ساق وقدم وان لم تكن لها دولة تضبطها ولا روابط سياسية  
تربطها. حريتها فطرية تأنف الخضوع والذل. فلماذا لم تكن  
في الأحقاب الخالية تحت استرعاء دولة من الدول وإذا غالبها  
جيش قوى بالقوة أو الكثرة لا يكاد يتمكن من ادخالها  
تحت الطاعة ولا يستطيع أن يغير أخلاق أهلها ولا طباعهم  
ولا يمكنه أن يبدل صفاتهم المميزة لهم. فان كانت لهم طاعة  
اقتضتها ظروف الحدثان فهي طاعة ضرورية يتصلون منها  
عند الامكان!

وكان لهم من الحرية والعزة أعلى منية فلماذا بقيت

أخلاقهم على تداول الدهر واحدة إذا خرجوا إلى النجعة  
قل أن يعزموا على الرجعة

ولما تغلب قيروش ملك الفرس على مصر والشام وخلفه  
على تلك البلاد ابنه قامبيز طمع لقربه من بلاد العرب في أن  
يسترعهم كما استرعى من بجوارهم فلم يستطع وخاب أمله حيث  
استمروا على الحرية ولم يذوقوا طعم ذل التبعية وكذلك  
لما تغلب الاسكندر الأكبر على بلاد المشرق والمغرب لم ترض  
العرب أن تنتظم تحت لوائه ولا حلت تحت حكمه وولائه  
ولما حكم الرومانيون جميع بلاد الدنيا وصارت دولتهم في أيامهم  
هي العليا ولم يسلم من حكمهم إلا من بلاد ولا خلا  
من أسره إلا قليل من العباد بقيت جزيرة العرب في دولتهم  
مستبدة بأمرها مستقلة بنفسها يحكمها شيوخها وأمرؤها  
وملوكتها وكبرائها ولم تنقد للدولة الرومانية طرفة عين ولا  
دخلت تحت استعبادها. نعم كان للرومانيين والفرس بعض  
ولاء على طرف من بلاد العرب القريبة للسواحل  
ولكن لم يستطع أحد منهم أن يمس استقلال باقيها وحرية

ولم يدع من تطاولت عليهم يد الاجانب اى فرصة بدون أن ينهزوها للخلاص من ذلك الاسر ورفع نير الاسترقاق والذل. على أنه لم تملكهم الاجانب الا بنفس الوسائل والدسائس التى ضاع بها كثير من البلدان فى كل الازمان حتى فى عصرنا هذا كما رأيت وسترى فيما بعد

والعرب على اختلاف طبقاتهم وفى كل أجيالهم اما حضريون يأون القرى والضياع ويسكنون الدور والمساكن وهم أهل الامصار والمدن وهؤلاء يصح فى بعضهم الآن ما قاله عنهم ابن خلدون منذ سنين من « أنهم تلوثت أنفسهم بكثير من مذمومات الخلق والشر وبعدت عابهم طرق الخير ومسالكه بقدر ما حصل لهم من فنون الملاذ وعوائد الترف والاقبال على الدنيا والعكوف على حب المال والكذب والشهوات حتى لقد ذهبت عنهم مذاهب الحشمة فى أحوالهم فتجد الكثير منهم يقدعون فى أقوال الفحشاء فى مجالسهم وبين كبرائهم وأهل محارمهم لا يصدّهم عنه وازع الحشمة لما أخذتهم به عوائد السوء من التظاهر بالفواجش

قولاً وعملاً وبالجملة فهم أهل غدر ومكر وخديعة ونقض عهداه . على أن هذا الوصف لا يتطبق على كل أهل المدن والامصار فان منهم من هو على غير ما ذكر فهو ذو صفات حميدة منها أنه كثير الصدقات والزكاة مواظب على العمل عفيف النفس طاهر الذيل قائم بشعار دينه الذي ينهاه عن الفحشاء والمنكر ويأمره بالمعروف والعدل والاحسان وبأن يعمل لدنياه كأنه لا يموت أبداً ولا خرتة كأنه يموت غداً وان كان عدد اولئك قليلاً

واما رحالة اضطروا لسكنى البادية لانهم وجدوا في أرض قفرة تراكت عليها الرمال المحرقة لا تنبت لهم حبا ولا بقلاً ابارهم تيف في حرارة القيظ وتبخل بالماء على بعد قاعها فيظعنون لورود غيرها من المناهل . وفي خلق الابل لهم نعمة كبرى: فهم يعيشون من البناها ولحومها ويرتادون المسارح بها ويتطلبون المرعى والسكلاً لها ولا يزالون في حل وترحال في طلب العشب وابتغاء المياه: ذلك دأبهم زمان الصيف والربيع فاذا جاء الشتاء واقشعرت الارض انكمشوا الى بلاد الحضن

فشتوا هناك مقاسين جهد الزمان مصطبرين على بؤس العيش .  
وسكناهم في البادية امر طبيعي . وهم وان نزلوا الامصار  
ورفعوا بيوتهم من الحجارة لما اتسعت من حولهم المزارع  
والمسارح لحيواناتهم لكنهم يحسبون المدن مجبسا لا صبر لهم  
عليه لان الحرية عندهم من افضل ما منحهم الله وهم يبذلون  
نفوسهم ونفائسهم في استبقائها فيهم

ويمتاز أهل البدو منهم بقسوتهم ومع كونهم أصعب  
الامم انقيادا للغلبة والالفة وبعد الهمة والمنافسة في الرياسة  
حتى قلما تجتمع احوالهم هم أسرع الناس قبولا للحق والهدى  
لسلامة طباعهم . وهم كما قال العلامة ابن خلدون «أهل انتهاب  
وعيث ينهبون ما قدروا عليه من غير مغالبة ولا ركوب خطر  
ويفرون الى منتجعهم بالقفر ورئيسهم محتاج اليهم غالباً بالعصبية  
التي بها المدافعة فكان مضطرا الى احسان ملكتهم وترك  
مراغمتهم لئلا يختل عليه شأن عصبية فيكون فيها هلاكه  
وهلاكهم»

وقال العلامة المذكور: «ولما كانت سياسة الملك تقضى



ان يكون السائس وازعا بالقهر والالام تستقر سياسته وكانت  
طبيعة العرب أخذ ما في أيدي الناس خاصة والتجاني عما  
سوى ذلك من الاحكام بينهم بعدت طباعهم عن سياسة  
الملك وانما صارت اليها بعد انقلاب طباعهم وتبدلها بصيغة  
دينية مسخت ذلك منهم وجعلت الوازع لهم من أنفسهم  
وحملتهم على دفاع الناس بعضهم عن بعض وعلمتهم مكارم  
الاخلاق والآداب ونهتهم عن السلب والنهب والاثم والعدوان»  
وأول صفة من صفات العرب حب المحمدة والشهامة  
والحرص على ما يوجب الذكر الجميل من العظامم والثناء الحميد  
من المكارم وهذه الصفة كعلو الهمة والحمية والنجدة من  
أركان الشجاعة التي هي صفة جامعة لذلك فكانوا يحبون المحامد  
والمفاخر وبعد الصيت بما يعدونه عندهم من الفعل الجميل  
كانتصارهم على الاعداء وكسب الغنائم فكانت النصره عندهم  
تقوم مقام الحقوق المدنية عند الاجانب لما يترتب عليها من  
المزايا الاجتماعية أو هي عين حقوق الحرب والصلح عند الامم  
التمدنية وانما كان يتولاها صاحب الحق بنفسه أو بقبيلته لان

أفراد العرب جميعهم كانوا كما قدمنا يسوسون أنفسهم بأنفسهم  
وكانوا ينتقمون من العدو بأخذ الثار فكان القصاص عندهم  
يستوى فيه سائر العشائر والقبائل فلا قبيلة إلا وتأخذ ثارها  
من القبيلة الأخرى ولا عشيرة إلا وتستوفي ثارها وتتق عارها  
فكانت المحمدة على الخير والشر بائثة لهم على كسب المحامد  
أو المثالب كما يحكى أن بعض العرب وقف على تير عامر بن  
الطافيل بن مالك العاصري فقال يرثيه: «أنعم ظلاماً أباً على فلقد  
كنت تشن الغارة، وتحمى الجارة، سريعا إلى المولى بوعدك،  
بأيأغنه بوعيدك، وكنت لا تضل حتى يضل النجم، ولا تهاب  
حتى يهاب السيف، ولا تعطش حتى يعطش البعير، وكنت خير  
ما تكون حيث لا تظن نفس بنفس خيرا.» فقدم مدحه بأحسن  
ما يوصف به عربى

وقد كان بقاء ذكر الإنسان بعد الموت يعد بمنزلة الحياة:

قال بعضهم

فأثنوا علينا لا أبالأيكم      بأفعالنا ان الشاء هو الخلد

وقال آخر

فان بك اغنته انايالى فأوشكت فان له ذكرا سينهى اللياليا  
ومن صفاتهم ايضا الذجدة وعدم الجزع عند المخاوف  
شكأنوا منها على مكانة عالية فكانت احلامهم تحمل اجسامهم  
مالا يطاق وسواء فى ذلك الشخص او القبيلة كما قيل فى الاول  
أكر على الكتبية لأبالي أفيها كان حتى ام سواها  
ولى نفس تتوق الى المعالى ستلف او ابلغها مناها  
وقيل فى الثانى

وكنى تستقل بحمل سيفى وبنى ممن يهضمنى امتناع  
وحولى من بنى قحطان شيب وشبان الى الهيجا سراع  
اذا فرعوا ذأمرهمو جميع وان لا قوا فايديهم شعاع  
فكان اذا خطر بقبيلة منهم ذات يوم فكرة اقتحام  
خطر من الاخطار لقضاء وطر من الاوطار اتحد أفراد القبيلة  
وصاروا على تاب رجل واحد وهموا بانجاز ما أضمره وقل  
ان يفوتهم نجازة كما قيل

كانوا على الاعداء نار اتبظى واقومهم حرما من الاحرام  
وكان طريق وصولهم الى مقصودهم بشيئين متوفرين

عندهم وهما : اتحاد القبيلة في اللغة واتحادها في الدين اذ كان لكل قبيلة لغة ودين خاصين بها . ولو كانت القبائل العربية في تلك الا زمان الاولية يجمعها لسان واحد ولهجة واحدة مع التمسك بدين واحد لما ساواها غيرها من الامم في السطوة والبأس ولا خلص من الدخول في دولها أمة من الامم ولا احد من الناس ولا بقيت مجهولة مدة من الزمان واكبر شاهد واعظم دليل على ذلك وعلى فضل الاتحاد ومزاياه التي لا تنكر ما وقع من العرب بعد ان اتحدوا في المعتقد وجمعهم جامعة دين واحد في الاسلام فكم فتحوا أمصاراً ودوخوا أمماً واقطاراً حتى اكبرتهم كل الأمم وصارت لهم هبة في كل القلوب ومن صفات العرب كذلك الحمية والغيرة على العرض وشرفه وحفظ ناموسه وهذه الصفة بعينها هي التي بعثهم جميعاً مع اختلاف قبائلهم على علو الهمة وكمال الشجاعة وكرم النفس وقد تغالى بعضهم في شرف المحافظة على العرض حتى اذام الغلوف فيه الى صفات ذميمة كواد البنات الا انهم كانوا يرون الباعث عليه حميداً وهو دفع العار او خشية الاملاق

المرتب عليه عدم وجود الكفء للزواج فيخشى عليهن  
 التفريط في العرض او الميل لغير الكفء للعجز عن التكسب  
 ولما اعتنق العرب الدين الاسلامي الحنيف تخلصوا من  
 كثير من العادات الذميمة والاخلاق الفاسدة ومنها هذه  
 العادة: قال الله تعالى « ولا تقتلوا اولادكم خشية املاق: نحن  
 نرزقكم واياهم »

وكان صمصمة جد الفرزدق يشتري البنات ويخلصهن  
 من القتل كما قال الفرزدق منتخراً

وهنا الذي منع الوائدات وأحيا الوئيدة لم توأد  
 والظاهر ان الوأد لم يكن مع ذلك كثيراً وان كان واقعاً  
 فان العرب كغيرها من الأمم تحرص على النسل حيث هو  
 أمر طبيعي. بل كان نادراً فقد عهد عندهم زواج الفقيرة لابناء  
 الملوك وزواج امرئ القيس وبجته في احياء العرب عن  
 ذات عقل يؤيد ذلك كما يؤيده ايضاً قصة بنات الملق الكلابي  
 وقد كان كذلك لدى الامة العربية كثير من الصفات  
 التي تبرهن على ميلها للسعادة والارتقاء الى درجة الامم

العظيمة وان كانت بقيت محتاجة لاحكام الرابطة وتوحيد  
الكلمة الى زمن ظهور الاسلام واقبالها عليه . فمن تلك  
الصفات الشريفة ما امتازت به عن سائر الأمم من علو الهمة  
وشرف النفس وحفظ حرمة الجوار والمحاماة عن المظلوم  
والوفاء بالوعد وصدق العهد والجرأة والاقدام وحب عظام  
الامور والكرم والجود . وحسب الانسان ترديد نظراته في  
ديوان تاريخها ومفاخرها يجد اشعارها مشحونة بكل ما ذكر  
فمن نظر في أقوال شعراء العرب وخطبائهم عرف  
متدار ما كانوا عليه من الصفات المدوحة والسجيا الفاضلة  
واستدل على شؤونهم وأحوالهم  
وأى شئ أدل على الوفاء وعلو النس والتفاخر من  
قصيدة السموأل التي مطلعها

إذا المرء لم يدنس من اللؤم عرضه

فكل رداء يرتديه جميل

وعلى الكرم وحفظ الجوار من قول عمرو بن الايهم التغلبي

ونكرم جارنا مادام فينا ونبتعه الكرامة حيث مالا

وعلى الجود وعلو الهمة وشرف النفس من قول حاتم طي  
أماوى ان المال غاد ورائح ويبقى من المال الاحاديث والذكر  
وقد علم الاقوام لو ان حاتما أراد ثراء المال كان له وفر  
يفك به العانى ويأكل طيبا ويحفظ عرضا ان هذا هو الفخر  
والشواهد كثيرة على تلك الصفات الجميلة التى كانت  
تعقد لها المناخرات وتقام لاجلها المناخرات بأسواقهم الشهيرة  
كعكاظ وذى المجاز وغيرها تتشدها قصائد هم الغرر المتضمنة  
للفخر والحماسة وذكرى الحوادث والحروب والمدح والقدح  
مما سندر طرفا منها حين التكلم على الشعر والشعراء  
والعرب الآن على حالتهم الاصلية لكون علائق  
المعاش بينهم مستمرة على ما هى عليه ولم يخاطوا أنسابهم  
بالاجانب فتراهم أكثر أهل المشرق سفكاً للدماء وكرما وأشد  
الناس انتقاما وايواء للضيوف وأكثرهم كبرا ومعروفا واذا  
ساغ تشبيه الناس بكرائم الحيوانات— وهو تشبيه لا يفضى  
البدو فكم رأينا منهم من يكون على فرسهم كأنهم يكون اعز  
أصحابهم— صح أن يقال فى العرب: ان لهم حمية وقناعة وصبرا كأنهم

وقد اصاب السائح بورك هارت في وصفه البدو اذ  
 قال : يمتاز البدوي بحب الضيافة والكرم وحفظ الذمام ورعاية  
 الغريب والشهامة والحماسة والذكاء وخفة الروح والتبناة  
 وحب البدوي للجرية يحمله على احتتمار أهل الحضر فانه  
 بعاماتهم قد عرف منهم الخداع والمكر اه

ومن محاسنهم التي يحسن ان يقلدوا فيها غرض الطرف  
 عن عورة الجار وعدم التعرض لحرمة فقد كان الرجل منهم  
 يسافر ويترك زوجته في بيته فيدونها جاره وهو أنزه الناس  
 عن التعرض لها بسوء بل انه يكون عليها أكثر ذيرة من  
 زوجها لكونها في رعايته حتى يعود كما قال في ذلك عنتر العباسي :-  
 واغض طرفي حين انظر جارتي حتى يوارى جارتي ماؤها  
 ومن صفات العرب أيضا الفصاحة والمشهورون بها  
 كثيرون لا يمحسون. والحكمة ومن مشاهيرهم فيها القمان ابن  
 عاد كان من حكماء العرب ودهاتهم. والخطابة ومن اشهر فيها  
 سحبان وائل. ومن عوائدهم ايضا التي حفظتهم وحفظت أنسابهم  
 وقوتهم انهم كانوا لا يخالطون غير جنسهم الا مخالطة التجارة



ولا يدخلون في أنسابهم دخيلاً من غيرهم لا من جهة العصب  
ولا من جهة الرحم ويستنكرون ذلك استنكاراً عظيماً حتى إن  
ذلك إذا كان في خيلهم أو أبلاهم استنكروه واستنكروا منه (١)  
وبجانب هذه الصفات الحميدة كان لدى العرب من العوائد

(١) كان اسماعيل أول دخيل من العجم في ولد قحطان الذين  
هم العرب ثم كانوا بعد ذلك يتحاشون غاية التحاشي من مداخلة العجم  
ومع ذلك فربما كان بعض الوضعاء أو من غلبت عليه الهيمية داخل  
غير العرب وكان منه نسل. فإذا كان الفحل عربياً والآي غير عربية  
سمي النسل الحاصل هيمياً ومنه اشتقاق الهجنة وهجنه أي قبح أمره.  
وإذا كانت الآي عربية والفحل غير عربي سمي النسل مقرفاً فالعرب  
كاتبوا يتحاشون الهجنة والاقراف بل كان بعض القبائل يحافظون على  
أنفسهم ولا يخالطون غيرهم من العرب كما سبق أيضاً حتى إن أبادا  
أجد شعوبهم إما ساكنت الفرس وخالطتهم سقطت منزاتهم بين العرب  
واجتقروا اختقاراً شديداً وعدوا من العجم واتقت مداخاتهم يرشدك  
إلى تحقيق ذلك إن قبيلتي تغلب وبكر اللتين يجمعهما وأئل ابن ربيعة  
قوى أمرها وعزها في العرب وقهراً كثيراً من الناس وفي بعض الأيام  
نزل منهم رجل بناحية قريبة من بلاد الفرس من منازل أباد ومعه  
ابنته وكانت من أجمل نساء العالم فوشى بها رجل من أباد لدى ملك  
الفرس فاعتصبها من أيها ثم عرض عليها جميع المشتبهات وخوفها بجميع

القييحة التي تقشعت غيومها بظهور أنوار الديانة الإسلامية  
ماندكر. بعضاً منه فن ذلك الاشتغال بالخر والميسر والانصاب  
والازلام المحرمة في توله تعالى ( يا أيها الذين آمنوا إنما الخمر  
والانصاب والازلام رجس من عمل الشيطان فاجتنبوه لعلكم

العقوبات ومسها بكثير من المؤامرات ليرى وجهها فابت وخيرته بين  
أن يقتلها أو يعيدها لابلها فلما يئس منها أسكنها في موضع وأجرى  
عابها الوظائف الترفهية واكتفى برؤية قامتها تحت ملابسها في بعض  
الاحيان وبسبب ذلك نشبت خروب بين العرب والفرس وانقضى  
الامر بقتل ملك الفرس وتخليص الفتاة ومن كلامها ( وكان اسمها  
إلى بنت لكيز ) في أثناء ما حصل لها تحت أهلها والعرب على  
تخليصها ونفى العار عنهم

ليت للبراق عينا فترى	ما ألقى من بلاء وعنا
يا كليا وعقيلًا اخوتي	يا جنيدا اسعدوني بالبكا
عذبت أحتكمو ياوياكم	بعذاب التكر صبحا ومسا
غلموني قيدوني ضربوا	لمس المفة مني بالعصا
يكذب الاعجم ما يقربني	ومعي بض حشاشات الحيا
قيدوني غلموني وافعلوا	كل ماشتم جميعا من بلا
فأنا كارهة بغيكم	ويقين الموت شئ يرمحي
يا بني كهلان يا اهل العلا	أندلون على الاعجبا

تفلاحون) أما الخمر فقد كانت لهم مغالاة في شربها و من آخراتهم مشحونة بذكرها وأوصافها وأسمائها وكان شربهم لها في معظم أوقات اليوم وكانوا يسهون الشرب في كل وقت باسم خاص به ولا يخفى ما في شربها من المضار البدنية والعقلية والمالية وما تنتج من وخيم العواقب

أما الميسر فمن الأمور التي قادم إليها حب الظهور بالثروة والغنى وحيث كانت هذه العادة قبيحة جالبة للشر مسببة للاعتماد والضغائن والشح ممن لم يكن لهم حظ في النعم وكان من نصيبهم الغرم حظرها الاسلام

يا ايادا خسرت ايديكمو	خالط المنظر من برد عمى
فاصطبارا وعزاء حسنا	كل نصر بعد ضرير تجي
أصبحت ليلى يغلل كفها	مثل تغليل الملوك العظما
وتقيد وتكبل جهرة	وتطالب بقييجات العنا
قل لعدنان هديتم شمروا	لبنى مبخوض تشمير الوفا
واعقدوا الرايات في اقطارها	واشهروا البيض وسيروا الى ضحى
يا بني تغلب سيروا وانصروا	وذروا الغملة عنكم والكري
اجذروا العار على اعقابكم	وعليكم ما يقيم في الدنا

أما الانصاب فكانت حجارة أو قطعاً من الصخر يقيمونها  
 على أشكال مختلفة ويتقربون إليها بأنواع القرابين زاعمين أنها  
 تشهد لهم بأعمالهم عند الله وتشفع لهم ولا يخفى ما في ذلك من  
 الشرك والضلال أما الأزلام فكانت على جملة أشكال منها  
 اجالة القداح ومنها ما هو عبارة عن ثلاث قطع من الخشب  
 واحدها زلم وتسمى أزلام الاستخارة وأزلام الاستقسام كان  
 يكتب على أحدها أمر وعلى الثاني ناه والثالث يبقى غفلاً ثم  
 يخلطها الرجل عند ما يعقد عزمته على أمر ثم يخرج منها واحداً  
 فإن كان الأمر أقدم تلى ما عزم عليه وإن كان الناهي أحجم  
 وإن كان الغفل استأنف الخلط وغير خاف ما في ذلك من البعد  
 عن الحق والضلال في الاعتقاد بنسبه الأمور لغير فاعلها المختار  
 ففي الإسلام عنه كما نهى عن غيره من المعتقدات الفاسدة  
 وكان من عوائدهم كذلك الاستسقاء بالعرش وذلك  
 أنهم كانوا يخرجون في أوقات الجذب واختباس المطر لطلب  
 السقيا فيجمعون حزم البات المسمى بالعرش والسلع ويربطونها  
 في اذئاب البقر ثم يشعلونها بالنار ويصعدون البقر على هذه

الحال الى الجبال والربوات المترفعة مفرقين بينها وبين اولادها.  
 هذا وقد جرب بعض علماء الترمج حديثا انزال المطر  
 باطلاق الدخان الكثير المتكاثف فنجحت بعض التجارب  
 يا أمريكا وهو المسمى بالامطار الصناعي

ومن عوائدهم التبيحة أيضا معاملتهم للمرأة معاملة  
 الرقيق وهي من العوائد التي ابطالها الاسلام باعطائه للمرأة  
 حقوقا وامتيازات لا توجد لها في قانون آخر كما يعلمه كل من  
 له الملم بعلم الحقوق والشريعة الاسلامية الغراء كما كانوا  
 لا يورثون النساء والاطفال ويقولون لا يرث الا من طاعن  
 بالرمح وذاد عن الحوزة وحاز الغنيمة فلما جاء الاسلام جعل  
 لهن نصيبا مفروضا كما قال تعالى ( للرجال نصيب مما ترك  
 الوالدان والاقربون وللنساء نصيب مما ترك الوالدان والاقربون  
 مما قل منه أو أكثر نصيبا مفروضا )

وكانوا يتجرون بالرقيق ويقتنون كثيرا من الجوارى  
 ويعبدون اولادهم منهن عبيدا ويمملونهم معاملة الارقاء الا  
 اذا اظهر احدهم نجابة أو بسالة أو مكرومة مما يفتخر به العرب

فحينذاك يعترفون بهم ويخولونهم حتى يوق البنوة كما وقع ذلك لعنترة العبسي فلما جاء الاسلام قيد الاسترقاق بقيود جعلته نادرا وأوصى بالرفق بالرقيق وحسن معاملته وحث على العتق كما لا يخفى على كل مطلع غير ذي شرض

وكانت العرب في الجاهلية تفعل أشياء اقرّ الاسلام كثيرا منها فكانوا يحجون البيت ويعتمرون ويحجون ويسعون ويقنون المواقف كلها ويرمون الجمار ويفتسلون من الجنابة ويداومون على المضمضة والاستنشاق وفرق الرأس والسواك والاستنجاء وتقليم الاظافر ونتف الابط وحلق العانة والختان. قال صلى الله عليه وسلم: خمس من الفطرة: الختان والأستحداد وقص الشارب وتقليم الاظافر ونتف الابط وكذلك في حديث البخاري المتعلق برسول ملك غسان الى هرقل ما يدل دلالة صريحة على انه كان من عادة العرب الختان. وكان من عادتهم أيضا قطع يد السارق اليمنى فأبقاها الاسلام وكانوا يقتلون أسرى الحرب الا اذا أكل الأسير أو شرب من مال من أسره فانه يأمن القتل فاذا أمنوه

أطلقوه وجزوا ناصيته وكان الشريف إذا أسر فدى بالمئين  
من الابل.

ولما جاء الاسلام ابطل الاسر بين العرب وجعل لذلك  
شروطا وحدودا حائلا على العتق والتحرير واجسان معاملة الاسير.  
ويحسن بنا بعد ذكر صفات الرجال وعاداتهم ان  
نتفكه بوصف البدويات: فهن في البادية أكثر من الرجال  
عددا وبالطبع ألين جانبا وأرق طبعا ولسن مع ذلك دون  
الرجال نخوة وشهامة: يطقن التعب وتحمل المشاق وتجشم  
المصاعب ويشاطرن رجالهن كل أنواع المتاعب فيقمن بكل  
إدارة بيوتهن ويساعدنهم حتى في غزواتهم ولهن بهم تعلق  
شديد. وهن أشد تعلقا بالبداءة من الرجال ينهرن من الحضارة  
أى نفور وعندهن من الاحكام السائرة: أنه اذا طلبت احدى  
بناتهن لرجل من الحضرة أن تقول « صكك باب ما أريدنه »  
أى إنه إذا نام أغلق بابه فهو اذا جبان لا يليق بها. ولهن عدا  
ذلك مهارة و طرق لطيفة في نقد الرجال. وزى الملابس عندهن  
على نمط واحد يكاد لا يتغير فالبنات البكر في اكثر الاوقات

يقصصن الغرة أو الطارة ويبرزن شعورهن فوق الجبين الى  
قرب قمة الرأس واذن تروجن أرخينها وسترن شعورهن  
بالمنديل وهي علامة فارقة بين البكر والثيب. ويستعملن بلا  
تكاف أموراً كثيرة لو خطرت ببال نساء الفرنج لعقدن لها  
مجلساً وصفقن لها بالأيدي وأذعنها بصحف الاخبار ومادرين  
ان البدويات سبتهن اليها ولم يباهين بها والفرق بين الزين  
ان تلك ثابتة وهذه متقلبة فتراها كل يوم في شان. فزى البدو  
اذاً حضري مألوف وزى الحضري بدوي مخوف. فالاردان  
المتسعة المهمة عند نساء الفرنج مستعملة في البادية وكذلك  
الاردان الضيقة المستعملة الآن ووجه ذلك أن يجمعن بين  
الهيئتين. والنساء المثرىات يلبسن الثوب الضيق الاردان  
ويتردن فوته بكساء متسع الاردان ضافي الحواشي. أما الذبول  
الطويلة المنحصر استعمالها بين بنات التمدن في ملابس العرس  
او الاثواب البيتية فلها استعمال شائع في كل بادية العرب.  
وجر الذيل في كلام الشعراء لا يكاد يخلو منه كلام منظوم  
وعندهن أيضاً المشد المستعمل لدى نساء الفرنج المعروف



« بالكورساج » ( Corsage ) فقد اتخذن نوعاً منه يصنع من نسيج خام فهو أكثر ليونة وألطف بنية من مشدات الحديد والفولاذ ولا يستعمل إلا قليلاً بحيث لا يضيقهن . ولهن نوع آخر منه لتعظيم الصدر في النساء الضئيلات . وغير ذلك . ومع أن الذوق العصري يغالى بجمال الملابس المذكورة ويدعى السابقة في استنابها فهي معروفة في البادية منذ عشرات المئات من السنين تفنن فيها بدو العرب وحضرم منذ التدمر ودعوها العظامه والمرقد والعجيزتوقالوا فيها غير ذلك . فقط لم يصلوا بشيء من تفننهم الى انماها وترقيتها الى حد مقتضيات النمو والارتقاء في الزمن الحالى . وجملة ما يقال : ان ملابسهن سهلة المثال لا تكلفهن مبالاً جزياً ولا وتماً طويلاً وهن وان تزين بأخضر ما عندهن رشيقات القد خفيفات الحركة لا يلجئن ضغط الملابس الى التكلف والتضرر والاستثقال . والمخدرات منهن يتبرقعن خارج الخدر ويسدلن على وجوههن المنديل الاسود ويؤثرن في الملابس كثرة الالوان وأحسنها الاحمر ويلبسن من الحلي الضخم الثقل

كانت الخلاخل والحجول الصغيرة ذهباً وفضة كل على ما  
وسمته حاله ويلقن الخزمات المتسعة بأنوفهن وأكثرها  
مصوغ من الذهب مرصع بالحجارة القليلة الثمن كفضوص  
التيروزج الصغيرة. ولهن أقراط طويلة عريضة قد تبلغ  
القيراطين طولاً بروض قيراط واحد. ويصغن الذهب والفضة  
عقوداً وقلادات طويلة على ضروب شتى. ولهن من أنواع  
التزين الخناء نهى شائعة الاستعمال فيصغن بها الأكف  
والأصابع والأظافر وأخامص الأقدام وأصابع الأرجل.  
والخضاب الأحمر على الشفاه. وتكحيل العيون بالآثمد. وقد  
يزججن حواجبهن ويطلين شعورهن بالدهن المصفى. ولهن ولع  
خاص بالوشم. ويحانن بالصبغة الزرقاء والسوداء جلود أيديهن  
بتقوش مختلفة ويجعلن نقطاً صغيرة في منتصف الجبهة ومارن  
الأنف والذقن وربما وشممن الشفاه السفلى والوجنات  
والسواعد والأقدام

أما أخلاتهن نهى بالجملة حسنة وخير ما يزينهن عزة  
البنفس وشدة التعلق بالأهل والأزواج وقيامهن مقامهم في

أكثر الاعمال ولا يقوم الرجال بشيء من أعمالهن. فاشتغال  
البدوى متصور على الغارات والنزوات والمرادرفيضة ومعينة  
له في كثير منها وجميع ما بقى متروضا على المرأة بحيث لو  
انقطع الرجل مدة في طلب السلب والدفاع كانت هي ربة  
البيت مكافئة بكل ما تستلزمه ادارة المعيشة والتربية فاعتماد  
عليها تام أو يكاد واعتمادها عليه ناقص. وهي مع ذلك راضية وهو  
غير راض وذلك أمر حتمي في كل هيئة غير عريقة في المدن.  
ومما كان ولا يزال شائعا بين العرب العشق والهيام المؤدى في  
أغلب الاحيان الى الجنون ولكن في الغالب كان عشقهم مع العفة  
التي لم يسمع بمثالها في البلاد ولذا كثيرا ما رأينا شعارهم مشحونة  
بالفزل والتشبيب ولكن ندر فيهم ما امكن الخيانة وعدم العفة  
أفضية العرب وترتيب حكوماتهم — سبق القول بان من  
العرب من كانوا يقسمون الى دول عظيمة تتوارثها ملوك والباقي  
كانوا قبائل شتى والاحكام في البادية موكولة الى الشيوخ  
والامراء وهي بكل فروعها وملحقاتها مثل مبادئ الحكم  
البحارى. فالقوة لمن غلب وتبعتها السلطنة والثروة والنموذالمخلاق

وقد مرّ بنا أن البدو هم دائماً بين عدو وصدىقى ونزىد  
 الآن ان التضاعن والتصافى قد يبلغان عندهم حدّ التحالف  
 الفعلى وقد يتطرّفان الى ما وراء ذلك بأن تحالف قبائل كثيرة  
 تحت لواء واحد فمن ثم يصبح صاحب ذلك اللواء متسلطاً  
 عليها جميعاً . وقد ينفرد بين جماعة من الشيوخ رجل واحد  
 فيتسلط إما بقوته وإما بحزمه وإما بدسائسه . ولا يفضل  
 عندهم الامير على الشيخ ولا الشيخ على الامير الا بنسبة مقامه  
 وللشيوخ والامراء الحكم المطلق والنفوذ المفرد فسلطتهم اذا  
 نافذة فى كل شىء : يقضون بما يشاؤون معتمدين على الشرع  
 المعروف والعرف المشروع وما من شافع لبيهم الا ذمتهم وما  
 حملت . والبدو من حيث الطمع والاذعان جامعون بين الضدين  
 فاذا غلت أيديهم عن التحامل وضاق بهم الحيل قنعوا باليسير  
 وأخذوا وان يدينوا سبيلاً الى الاستطالة هبطوا اليه ويطلق  
 هذا الحكم على الرفيع منهم والوضيع وهو نتيجة كل سلطة  
 مطلقة ولهذا لم يكن الشيوخ فى مأمّن من فتك  
 أقاربهم الا اذا استتب لهم كل الامر . والحكم عندهم وراثى

للأرشد ولكمهم لا يراعون ذلك الا حيث غلبت قوّة الراشد  
فيهم وايس لهم قوانين مكتوبة ومجالس معقودة ومع ذلك  
يقوم العرف أحيانا مقام القانون الناخذ فيرجعون بالتقاضى  
اليه فالتتيل مثلا يقوم أهله وأقاربه للاخذ بثاره. وان كان  
القاتل من عشيرة حليفة فينهم الدية توزع على البائلة (أى  
على أتارب التاتل) وتدفع لاهل المقتول وان اختلفوا في  
أمر أشحن عليهم ولم يشاؤا أن يحكوا السيف رفعوا امرهم  
الى العارزين والعارف عندهم بمقام التاضى يحكم بما اكتسبه  
من الاختبار مما جرى عليه العرب في كل زمن وهو بمقام  
الفيصل أو الفاروق في العهد القديم وله عندهم منزلة كبرى (١)  
وكانوا اذا اعتدى فرد من قبيلة على آخر من قبيلة أخرى  
يرفع المظلوم منهما ظلامته الى رئيس القبيلة التى منها خصمه

(١) وقد عرفت أوروبا حديثا فضل التحكيم ومن اياه فشكوا المحكمة مخصوصة  
بمدينة لاهاى عاصمة هولاندا للتحكيم تفصل فيما يشجر بين الدول وبعضها مما  
لا يمس بالشرف ولا يسقط الكرامة وعقدت معاهدات بين كثير منها  
عدوها منتهى المدنية واثرا من آثار أوروبا ونبأ من مبتكرات افكارها ! !

فان أنصفه فيها والا قامت الحرب بين القبيلتين وسفكت  
الدماء أشهراً وربما دامت الحروب سنوات حتى تنفقر إحدى  
القبيلتين بالأخرى أو يتوسطاً أحدهما في الصلح وينتهي الحرب  
فما ذكر يتضح جلياً أن العرب لم يكن لهم طبيعة الانتظام  
فان ارواحهم الوطنية قد منيت من فطرتهم بسوس قبيح  
أبقاها ما كلاً للشقاق ومرتعاً للانقسام وقد تشابه العرب  
واليونان القدماء في هذا الداء—داء الاستفراد—تشابهاً غريباً  
فان من أكبر الرذائل والادواء التي اودت باليونان حبهم  
الاستفراد أو القيام بالذات أي رغبة كل مدينة من مدنها  
في الاستئثار بالأمر والسلطة مما جعلهم كالسماك يتآكلون  
ويقتل بعضهم بعضاً. حتى ان من يطالع تاريخ حروبهم—خصوصاً  
حروب اسبرطة (Sparte) واثينا (Athènes)—لا يسهه الا  
استغراب تلك الرغبة الشديدة التي كانت لكل من المدينتين  
المذكورتين في التغلب على ائمتها. واعل هذا الخلق نتيجة  
لازمة لقوة النفس وشدة حب التسلط وقد فطر العرب على  
مثل ذلك فكان دأبهم التقاطع وغزو بعضهم بعضاً قبل

تألفهم والانقسام والخروج عن طاعة الدولة الحاكمة بعده .  
 فدلوا بذلك على أنهم لا يحسنون سياسة الملك وان احسنوا  
 تأسيسه كما قال ابن خلدون وبين الامرين فرق واضح .  
 فالتأسيس يقتضى القوة والبراعة العسكرية والصبر على الشدائد .  
 اما السياسة فأول ما تستوجبها اتحاد الكلمة والثبات والخضوع  
 لصاحب الامر وقابلية الانتظام وهذا الذى كان ناقصاً في  
 الأخلاق العربية ومن الأسف أن قد سرى هذا الداء في  
 جميع دول الاسلام بعد ذلك فنخر عظام المسلمين حتى تداعت  
 كل الأجزاء او كادت وتفرقت أجزاء الجسم الواحد فصارت  
 هدفاً للأعداء ولقمة سهل عليهم ازدرادها .

أمطام العرب في الجاهلية — ان حكم العرب في القصاص  
 كان مختلفاً فتارة يوجبون القتل وتارة اخذ الدية وتارة ينفذون  
 الحكيمين فاذا كان المقتول شريفاً في قومه كانوا يقتلون به  
 عدداً أو يأخذون دية أضعاف دية الوضيع بل ربما تناهى  
 أولياء الدم في طلباتهم وطلبوا المستحيل تعجيزاً فيكون لا  
 مناص من القصاص

ولما بعث النبي صلى الله عليه وسلم أوجب الله رعاية العدل وسأوى بين عباده في حكم القصاص « يا أيها الذين آمنوا كتب عليكم القصاص في القتلى: الحر بالحر والعبد بالعبد واللاتي باللاتي » وكان القصاص في يد أولياء الدم فجعله الإسلام في يد الخالكم ينتقم عدلاً من الجاني نيل جنائته، ووجب أحكام الشريعة النزاهة . وإذا اختلف في شأن قتيل بان وجد في محلة ولم يعلم قتله رجوا للقسامة وهي إيمان يخلفها خمسون رجلاً من المحلة أو الخط يتخيرهم ولي الدم كل واحد يقول بالله ماتت ولا عادت له قتلاً . وكانوا إذا سرق واحد منهم شيئاً يقطعون يده اليمنى وإذا لم يعرف الجاني يقصون أثره ولا تزال هذه العادة موجودة عند البدو الحاليين ولهم فيها شهرة عظيمة

حروب العرب وتعرف بإيام العرب - ينسب العرب هذه الحروب إلى الامكنة التي وتمت فيها وإيامهم كثيرة لا تحصى فإن إبا الفرج الاصبهاني وضع فيها كتاباً جمع فيه ألفاً وتسعمائة يوم . وأشهر حروب العرب وإيامهم هي يوم



عويرض بين بكر وتغلب وكذلك يوم النهنى ويوم عنيزة وفيه  
قتل مرة أبو جساس . ويوم العقبة وفيه وتم المهلهل في أسر  
الحرث بن عباد اليشكري . ويوم واردات وفيه قتل همام بن  
حرة . ويوم الجند . ويوم شعب الذنائب وهي أيام حرب البسوس  
الشهيرة التي مكثت أربعين عاماً من سنة ٤٠٩ الى سنة ٤٣٠ هـ  
مسيحية وسببها قتل ناقة وسيأتي خبرها فيما بعد! ويوم شعواء .  
ويوم الطباءة . ويوم المرتب . ويوم قطن . ويوم حسي . ويوم القروق  
بين عبس وفزارة وهي أيام حرب سباق الخيل المعروف بحرب  
داحس ونبراء وهما فرسان الاول انيس بن زهير سيد بني  
عبس والثانية حذيفة بن بدر سيد بني فزارة وهذه الحروب  
هي من أشهر المواقع التي شهدها نبتة وقد ذكرها ابن  
الأثير في خبر طويل لا محل له هنا وزبدته أن قيس بن زهير  
العبسي عقد بينه وبين حذيفة الفزاري رهناً على سباق هذين  
الفرسين ثم ارساوهما في المنهار ولكن حذيفة أضمر الخيانة  
وانفذ رجلاً يقف في مكنن على طريقهما حتى اذا سبق داحس  
ينفره لتسبب الغبراء وكان كذلك فوقع الخلاف بين الحيين

ثم انتشرت الحرب وقتل خلق كثير من الفريقين ودامت الحرب بينهم من سنة ٥٦٨ لسنة ٦٠٨ مسيحية ثم اصطاحت عيس وفزارة وانفردت عيس عن بني عيس وساح في الارض حتى انتهى الى عمان فتصير بها ومات. وتكفيننا هاتان الحربان دايلاً على ان العرب كانوا سرى الغضب ألفوا التتال يخاطون البشر من لا شىء.

وكان اسفار العرب للغزوات والحروب بظلمونهم وسيائر حلانهم وأحيائهم من الاهل والولد. وكان الشعر في حروب الجاهلية يقوم مقام الآلات الموسيقية فكانوا في خروجهم للغزوات يتغنون بالشعر في مواكبهم فيطربون وتبجيش همم الابطال ويسارعون الى مجال الحرب. وكانوا ينصبون الرايات على أبواب بيوتهم لتعرف بها ويفتخرون بالراية الصفراء لانها راية ملوك اليمن وأما الرايات الحمر فهي لأهل الحجاز وكانوا يتاتلون بالكر والفر ولا يعتبرون قتالاً حفاً صفوفاً وهو المعتبر عند سواهم من الاعاجم<sup>(١)</sup>. ويلبسون

(١) لما شرع العرب في مقاتلة الفرس واروم وغيرهم اضطروا الى

في حروبهم الدروع السلوقية ويعتقلون الرماح ويتكبدون  
 القسي ويضربون بالسيوف المشرفية والرماح السمهرية  
 والرديزية وكان من سلاحهم أيضاً النبال والتروس والدرق  
 والمجانيق وعرادات لرمي الحجارة صرعى بعيداً الخ  
**الزواج والطهر في الجاهلية** - قد كانت الانكحة:

في الجاهلية مختلفة فمنها ان يتفق ولي الزوج والزوجة على مهر  
 فيتم النكاح بايجاب وقبول كما يحصل الآن ومنها نكاح السفاح  
 وهو ان تباضع المرأة رجلاً ثم اذا أعجبته وأعجبها عقد عليها  
 ومنها نكاح البغايا وهو ان يذأ البني جماعة متفرقون واحد  
 بعد واحد فاذا حملت وولدت ألحقت الولد بمن غاب عليه  
 شبهه منهم. ونكاح الاستبضاع وذلك ان المرأة اذا طهرت

مقاتاتهم زحفاً بمثل قتالهم فجعلوا يعبئون الجيوش تسمية اثروم والفرس.  
 فيقسمون العساكر أقساماً يسمونها كراديس ويسوون في كل كردوس  
 صفوفهم ويرتبون الكراديس حتى اذا تم هذا الترتيب يكون الزحف  
 من بعد هذه التسمية وحروبهم في صدر الاسلام تدل على مهارتهم  
 في فن الحرب وسياسته

من حيضها يقول لها زوجها أرسلني إلى فلان استبضي منه  
 ويعتزلها زوجها ولا يمسه حتى يتبين حملها فإذا حملت أصابها  
 زوجها إذا أحب. ومنها نكاح الجمع وهو أن يجتمع جماعة دون  
 العشرة ويدخلون على امرأة من البغايا وكلهم يطؤها فإذا  
 حملت ووضعت ومرت عليها ليل بعد أن تضع حملها أرسلت  
 إليهم فلم يستطع رجل منهم أن يمتنع حتى يجتمعوا عندها فتقول  
 لهم: «قد عرفتم ما كان من أمركم وقد ولدت فهو ابنك يا فلان»  
 وتسمى من أحببت منهم فيلحق به. وكان الرجل في الجاهلية  
 يتزوج بكثيرات وربما كان في عصبته عشر نساء أو أكثر  
 فحظر الإسلام ذلك وأباح الأربعة فادونها بالكتاب والشروط  
 التي أجازها الشرع الشريف

وفضلاً عما سبق من أمر الزواج عند العرب واتساع  
 دائرته قد كان فيهم من لا يستتبع مزاحمة أبيه في زوجته  
 ويسمونه الضيزن. ونكاح المقت وهو إذا مات الرجل وترك  
 زوجته قام ولده الأكبر وألحق ثوبه عاينها فيرث بذلك نكاحها  
 فإن لم يكن له بها حانجة زوجها البعض إخوته بمهر جديد. وكان

هذا الزواج - زواج امرأة الأب - عند التاميل من العرب  
وكان أكثرهم يستقبحه ولا ينكح الامهات ولا البنات ولا  
يجمعون بين الاختين . وكان بينهم ايضاً من يتزوج بابنته  
كما يفعل المجوس . وكان من عوائدهم في الزواج الذي بايجاب  
وقبول ان تعرض الآباء على بناتهم أمر الزواج قبل العقد  
عليهن وبعد قبولهن يمد يده الى الخاطب أو إلى أبيه أو لمن  
يكون وكيلاً عنه في الطلب ويجيب سؤاله بعد ان يتفقا على  
مهر معلوم للزوجة ثم يتواعدان على يوم معين للزفاف بحضور  
شهود عدول فاذا كان اليوم المعلوم اولوا الولا ثم احتفالاً  
بزفاف العروسين ثم تضرب لهم قبة فيدخل عليها بها ويشتر  
على الحاضرين النثار . ونثار العرب في أعراسهم التمر . أما  
الصداق للمرأة فكان لا بد منه في الجاهلية وربما بلغ مبلغاً  
عظيماً ولذلك كانت العرب تقول اذا ولدت لاحد من بنات «هنياً  
لك الناجفة» أي المعظمة لملك لانك تأخذ مهرها فتضه لملك  
فينتج . فلا يمكن الرجل أن يتزوج بدون اصداق الزوجة  
شيئاً يعطيها بعضه قبل دخوله عليها وبعضه يبقى ديناً عليه

تستوفيه منه متى طلقها أو من تركته بعد موته  
 وأما الطلاق فكان إذا لم تحسن المعاشرة بين الزوجين  
 فيكون للمرأة الحق في ان تطلق كما ان للرجل كذلك بقوله  
 لها « الحق بأهلك » وعلامة طلاق المرأة هو ان تحول بينها  
 المصنوع من الشعر او البوبر مثلاً الى جهة مخالفة لجهته الاصلية.  
 ولما جاءت الشريعة الاسلامية أبطأت تلك الانكحة  
 العربية التبيحة. ولو نظرنا اشرائع الأمم الاخرى التي كانت  
 معاصرة للعرب قبل ظهور الاسلام كالروم وهم أصحاب النفوذ  
 على المسكونة في ذلك الوقت مثلاً لوجدنا عندهم انكحة تشبه  
 ما كان منها لدى العرب بل ربما فاقها شناعة وقباحة وكذلك  
 كان الحال عند الفرس واليونان

تقويم العرب في الجاهلية - كانت الأمم السالفة تؤرخ  
 بالحوادث العظام وبملك الملوك أما بنو اسماعيل فأرخوا ببناء  
 الكعبة ولم يزالوا يؤرخون بها حتى تفرقت معد وكان كلاً  
 خرج قوم من تهامة ارخوا بخروجهم ثم ارخوا بعام النبل  
 ويوم الفجار وكانت معد بن عدنان تؤرخ بغاية جزم الغاليق

واخراجهم اياهم من الحرم ثم أرخوا بأيام الحروب كحرب  
 البسوس وحرب داحس وكانت حمير وكهلان تؤرخان  
 بملوكهم التبابعة وأرخوا بنار غرار: نار كانت تظهر ببعض  
 حرات اليمن . وارخوا بسيل العرم ثم أرخوا بظهور الحبشة  
 على اليمن . وكانت العرب الى عهد رسالة النبي تؤرخ بعام الفيل  
 ويوم النجار وبقى التاريخ كذلك الى أن ولي عمر بن الخطاب فتقرر  
 الأمر على ان يؤرخوا بهجرة النبي عليه الصلاة والسلام الى  
 المدينة وتركه ارض الشرك فجعلوا التاريخ من المحرم اول عام  
 الهجرة وكان هذا التقدير في سنة سبع عشرة او ثمانى عشرة من  
 الهجرة بعد ان قدموا التاريخ على الهجرة شهرين وجعلوه من  
 الحرم وأثبت المرحوم محمود باشا الفاكى ان دخول النبي صلى الله  
 عليه وسلم المدينة المنورة كان يوم الاثنين ٢٠ سبتمبر سنة ٦٢٢  
 من الميلاد وهذا اليوم يوافق ١٠ تشرينى عند اليهود وهو يوم  
 عاشوراء عندهم

وأجمع المؤرخون على أن الوثنيين من العرب كانوا  
 يحسبون أوقاتهم بالسنة القمرية والشمسية ولكن ظواهر

عبارات المفسرين وشرح الحديث الشريف وأئمة اللغة تفيد أن العرب لم يستعملوا البتة سوى السنوات القمرية المبهمة وقد وقع هذا الخلاف بعينه بين علماء الفرنج ولقد أثبت فقيد مصر المرحوم محمود باشا الزمكي في كتابه « نتائج الافهام في تقويم العرب قبل الاسلام » الذي ترجمه للعربية حضره معاصرنا المفاضل احمد بك زكي ان العرب لم يستعملوا سوى السنين القمرية المحضة قبل ظهور الاسلام وانهم كانوا يحسبون أشهرهم بمقتضى سير القمر وأن الشهر عندهم إما ٣٠ يوماً أو ٢٩ يوماً والاسماء التي كانت الجاهلية تطلقها على شهورها هي عين التي نستعملها نحن الآن (١) وكانوا يعتبرون أربعة منها

(١) ان أسماء الشهور المعروفة الآن وضعت في عهد كلاب بن مرة أحد اجداد النبي صلى الله عليه وسلم وكان ذلك قبل الاسلام بقرنين تقريباً واما اسماؤها القديمة فليست معروفة بحكيفية معينة مبسوطة. قال الخطيب خير الدين المدني في تذكرته: «ان المحرم كان يقال له عند الجاهلية المؤثر لانه أول السنة فكل شئ من أقضيتها يؤتمر فيه. وصفر الناجر من النجر أي شدة الحر. والربيع الأول الخوان من الخيانة. والثاني الصوان من الصيانة. وجمادى الأولى الزباه



محرمة ويسمونها الأشهر الحرم لاعتقادهم حرمة التكال فيها من قبل ظهور الدين المحمدي بمدة طويلة وهي رجب وذو القعدة وذو الحجة ومحرم فكانوا يرغبون فيها السلام ويكفون عن الحرب والكفاح وتتخسّم الخصومات وتزول العداوات وتد

وهي الداهية الكبيرة. والآخرى البأد لكثرة القتال والقتل فيه. ورجب الأصم لانهم كانوا يكفون فيه عن القتال فلا تسمع فيه أصوات السلاح. وشعبان الواعل وهو الداخل على قوم ولم يدعو لهجومه على رمضان. ورمضان الباطل وهو كوزيكال به الحمر. وشوال العاذل لانه من أشهر الحج فكان يثبهم عن غير مهماته. وذو القعدة رنة لان الانعام كانت ترن فيه لقرب النحر. وذو الحجة ترك لانهم كانوا يتركون الابل فيه. «وتختلف أسماء هذه الشهور القديمة في روايات أخرى كما اختلفوا أيضا في تعليل تسميتها بتلك الاسماء. فقال المرحوم محمود باشا الفلكي: «ان العرب أطلقت على الأشهر أسماء تناسب الحوادث الجوية أو غيرها التي وقعت في سنة التسمية فقط ولم يرسلوا أنظارهم الى ما وراء ذلك لجهاضم بأنه بعد مضي سبع عشرة سنة تنتقل شهور الصيف في الشتاء وبالعكس وكذلك ما غيروا الاسماء القديمة واستبدلوها بالاسماء المستعملة الآن لم يراعوا الا الاحوال التي كانت جارية في وقت التسمية فأول شهورهم المحرم سمي بذلك لان من شهورهم أربعة حرما واحد فرد وثلاثة سرد فالثلاثة السرد ذواقعدة وذو

قال المسيو كوسان دو برسوال في هذا الصدد ما معرّبه  
 « ان ذلك نوع من الهدنة جعلها الله تعالى لحكمة بالغة في  
 في أمة دأبها شن الغارات ودينها تحريك الفتن لكونها  
 اعتادت السلب والنهب فانه يترتب على هذه الهدنة منع  
 القبائل ابادة بعضها وتحديد أوقات معينة يأمن فيها الانسان  
 على نفسه ونفيسه فتروق سوق التجارة حيث تكون آمنة

الحجة والمحرم ورجب وكانوا يحرمون القتال في هذه الشهور كما أسلفنا  
 ولا يتعرضون لاحد فيها بالقتل والدم وان كان عنده دم . ثم صفر  
 سمي به لما كان يعتريهم من مرض يصفر الوانهم ثم شهر ربيع الاول  
 وشهر ربيع الآخر سميا بالربيع لانها كانا يأتيان في الخريف وكانت  
 العرب تسمي الخريف ربيعا ثم جمادى الاولى وجمادى الثانية سميا  
 بذلك لاتيانهما في أيام الشتاء عند جمود الماء ووقع الجليد ثم رجب  
 وسمى بذلك لانه يقال فيه ارجبوا أي كفوا عن القتال ثم شعبان  
 سمي به لان شهاب القبائل فيه الى طاب المياه والغارات ثم رمضان  
 سمي به لانه كان يأتي حين برء الحر ورمض الارض ثم شوال لقولهم  
 شولوا أي ارتحلوا وقيل بل سمي به لان الابل كانت تشول فيه  
 بأذناها لشهوة الضراب ولذلك لا تجوز العرب فيه التزويج ثم ذو القعدة  
 اعودهم فيه عن القتال وذو الحجة لاقاهاهم الحج فيه . اهـ

مطمئنة « ومما سبق يعرف انه كان للعرب في كل سنة وقتان تزول فيهما الضنائن وتذهب الاحقاد أحدهما مدة شهر واحد والثاني مدة ثلاثة شهور متواليات ولكن تحريم القتال في الثلاثة شهور المتواليات شق على قوم ألغوا الحروب واتخذوها وسيلة للتعديش فلم يستطيعوا مقاومة أهوائهم الغريزية فلاجل أن تقضى العرب وطرها من الغزو اذا انفتحت أبوابه ولا يفوتها فنعيم من تهيبات اسبابه سنوا النسيء الذي هو تأخير حرمة شهر محرم الى شهر غير محرم ايوقفوا بين أهوائهم الحربية وفر الأضيم الدينية فكانوا من وقت الى آخر يؤخرون تحريم شهر محرم الى الشهر الذي يتلوه بحيث كانوا يلتزمون عبر اعادة شهرين محرمين متتابعين بدلا من ثلاثة ولما ظهر الاسلام ابطال النسيء وأخبر الله عز وجل عنهم بذلك بقوله « انما النسيء زيادة في الكفر يضل به الذين كفروا يحلونه عاما ويحرمونه عاما »

وكانت الجاهلية تستعمل قديما الاسماء الآتية للدلالة على ايام الاسبوع وهي أول « الاحد » وأهون « اى الاثنين »

وجبار « اى الثلاثاء » ودبار « اى الاربعاء » ومؤنس « اى  
الخميس » وعروبة « اى الجمعة » وسنان « اى السبت »  
وذهب المرحوم محمود باشا الفلكى الى أن العرب كانوا يجهلون  
بالحكمة تقسيم اليوم الى ٢٤ ساعة

**خرافات العرب ومعتقداتهم** — وكان العرب يعتقدون  
بالجن والغول والسحر والهواتف والكهانة والعرافة والطيرة  
والزجر والقيافة والخيافة والفراسة والتنجيم وصدق تخطيط  
الرمل ويعتقدون أن من خرج فى سفر لو التمت وراءه لا  
يتم سفره وان من علق عليه كعب ارنب لم تصبه عين ولا سحر  
ويزعمون أن الحية تهرب من الارنب لكونها تحيض وان  
المرأة اذا أحببت رجلا وأحبها ثم لم يشق عليها رداءه وتشق  
عليه برقعها فسد حبهما وان الرجل اذا قدم قرية خاف وباءها  
فوقف على بابها قبل أن يدخلها ونهق كما ينهق الحمار لم يصبه  
وباؤها وان الرجل اذا ضل فى سفر وقلب ثيابه اهتدى وان  
الناقة اذا نفرت وذكر اسم أمها سكنت وكانت لهم خرزة  
اسمها السلوان لو حكها عاشق وشرب ما يخرج منها سلى

وتصبر وكانت النساء لا يبكين على مقتول حتى يؤخذ بثاره  
وأن الغلام اذا سقط سنه فرمى به في عين الشمس بسبابه  
وابهامه وقال أبدلى أحسن منها فانه يأمن على نفسه الفلج  
والعرج والجعر وكانوا اذا ارسلوا الخيل على الصيد فسبق  
واحد منها خضبوا صدره بدم الصيد الذي يصيدونه علامة  
على ذلك وكان فيهم ايضاً من المعتدات الفاسدة الرثم وهو  
اذا اراد أحدهم سفراً عمد الى شجرة فيعقد شخصاً منها فاذا  
عاد من سفره فوجدته قد انحلت قال تد خانتي امرأتى وان  
وجدته على حاله قال لم تخنى. والرثمة وهي اذا مات أحدهم عقلوا  
ناقة عند قبره حتى تموت ويزعمون انه اذا بعث ركبها والتفقتة  
والتعمية وهي ان الرجل اذا بلغت ابله ألفا قلع عين الرجل  
ويزعمون أن ذلك يدفع عنها العين فاذا زادت على الالف  
فتأ عينه الاخرى وكانوا اذا أصيبت الابل بالجرب أو بالعر  
— وهوداء يشبهه — يكونون السايمة ويزعمون ان ذلك يبرىء  
السقيمة وكانت البقر اذا امتنعت عن الشرب يضر بون الثيران  
زاعمين ان الجن يركبون الثيران فيصدون البقر عن الشرب

ويزعمون ان الحية تموت من أول ضربة فاذا ثبتت عاشت  
 ويزعمون أن الانسان اذا قتل ولم يؤخذ بثاره يخرج من رأسه  
 طائر يسمى بالهامة ولا يزال يصيح على قبره ويقول اسقوني  
 الى ان يؤخذ بثاره ويقولون ايضاً انها تخبره بما يكون بعده  
 وقال بعضهم

هامى تخبرنى بما تستشعروا فتجنبوا الشنعاء والمكروها  
 وكانوا يزعمون ان فى البطن حية تسمى الصنر تعض  
 الانسان اذا جاع فاما جاء الاسلام قال النبي صلى الله عليه  
 وسلم لا هامة ولا صنر

معتقدات العرب وديانتهم - وقد دخل بلاد العرب  
 جميع اديان المشركين فكان اقدم اديانهم المجوسية وعبادة  
 الاوثان (١) التى تسلطت فى بلادهم مدة من الزمان وكان

(١) اساس المجوسية عبادة الاجرام السماوية وعبادة العرب  
 لها فى ايام جاهليتها ضرورة لانهم اكثر الناس حاجة الى تلك الاجرام  
 فهى تهديهم لاسفارهم وتدهنم على جهات مسيرهم ولا يزالون يستعينون  
 بها على ذلك للآن فضلا عن تفاؤلهم ببعض الاجرام وتشاؤمهم ببعض  
 الآخر . واشهر من تدين بالمجوسية فى العالم أمة الفرس وعندهم أخذ

يخاطبها القول بالاصلين: الخير والشر ثم أدخل فيها مجوس  
الفرس مذهب زرادشت ومن وقتئذ مزجوا عقائدهم الاصلية  
بعبادة الشمس والنجوم ثم سرت اليهم بعض عقائد اليهود

الناس عبادة الاجرام وفي جماتهم العرب فانهم قلدهم بعبادتها وبنوا لها  
الهياكل على مثال هياكل الفرس وحجوا اليها فقد كان بجزيرة  
العرب سبعة هياكل للسيارات السبعة تسمى البيوت . وما لبثت المجوسية  
ان تحولت من بعض وجوهها الى عبادة الاصنام واضمحلت من جهة  
أخرى امام الديانتين اليهودية والنصرانية فجاء الاسلام وليس من  
المجوس الا جماعة قليلة أكثرهم من بنى تميم من العدنانية وكانت  
منازلهم بأرض نجد وما والاها الى اليمامة ومنهم زرارة ابن عديمة  
وابنه . ومن آثار العرب الآن من المجوسية اعتقادهم بالانواء ونسبة  
التقيرات الجوية الى طلوع بعض النجوم او غيابها

أما الوثنية فالعرب اقتبسوها من الامم القديمة كالكلدان  
والفنيقيين والمصريين وغيرهم في اقدم الازمنة فكانت كل قبيلة تتخذ  
صنما تنصبه في ارضها فتعبده وتستخيره حتى انتشرت تلك العبادة  
وغابت على المجوسية فجعلوا الكعبة هيكلاً عمومياً لها ونصبوا فيه  
التمثيل التي بلغ عددها عدد أيام السنة على ما قيل واما جاء الاسلام  
انمحت كلها وكسرها النبي صلى الله عليه وسلم عند فتح مكة

الذين كانوا يحكمون على سواحل البحر الأحمر من زمن داود وسليمان عليهما السلام حتى أتت بعض قبائل من تجار بني إسرائيل نزلت بسواحل الحجاز واليمن<sup>(١)</sup> فلما ظهر دين

(١) يظهر أن اليهودية قديمة العهد في جزيرة العرب لأن اليهود ما برحوا منذ أول عهدهم ينزحون إلى بلاد العرب مما يلي بلادهم إما فراراً من القتل أو اتهاشاً للرزق ويؤخذ مما روى أبو الفرج الأصبهاني في كتاب الأغاني أثناء كلامه عن السميرال بن عادي اليهودي أن اليهود سكنوا يثرب في القرن الخامس عشر قبل الميلاد والظاهر أن بعضهم بقي على ما تعلمه من عبادة الأصنام بمصر ومنهم اقتبس الأوس والخزرج عبادة الصنم وقال المقرئ في كتابه عن كبس الشهر ان العرب تعلموا من اليهود الذين نزلوا يثرب على عهد صموئيل النبي (في القرن الحادي عشر قبل الميلاد) ولما خربت اورشليم على عهد طيطوس (Titus) في القرن الأول للميلاد هاجرت جماعة كبيرة من اليهود إلى بلاد العرب وأقاموا فيها وأخذوا في نشر ديانتهم بين أهلها فلم يأت القرن الثاني للميلاد حتى أصبحت الديانة اليهودية شائعة في كثير من بلاد العرب . وفي رواية أن أسعد أبا كرب ملك اليمن هو الذي أدخل اليهودية بلاد اليمن حوالي القرن الأول قبل الميلاد . ويقول ابن خلدون أن أول من أدخلها بين العرب ذونواس أحد التبابعة ملوك



النصرانية وبث رسل الحواريين هذا الدين في بلاد الهند لم يجتازوا بلاد العرب من غير أن يتركوا بها شيئاً من آثار الأنجيل (١) فبذلك كانت السيادة في بلادهم لاربعة أديان الا أن عبادة الاوثان كانت أكثر انتشاراً من غيرها. هذا وقد

اليمين وكان اسمه يوسف فتهود معه أهل اليمين في أواخر القرن الخامس للميلاد وفي رواية أخرى ان أهل اليمين تهودوا في القرن الرابع وبالجملة لم يأت القرن السادس للميلاد حتى أصبحت الديانة اليهودية منتشرة في القبائل وأشهر يهود العرب بنو نمير وبنو كنانة وبنو الجرث بن كعب وبنو كندة . اهـ

(١) يزلم من تقاليد الكنيسة الشرقية القديمة أن القديس توما أول من بشر بالنصرانية في بلاد اليمين أثناء مسيره الى الهند وان يولس الرسول بشر بها في الشام فاعتنقها كثيرون من عربها الذين خلفتهم دولة الغساسنة . ولا يبعد أن قوافل العرب التي كانت تفتد الى الشام وال عراق في الاجيال الاولى للميلاد كانت تقديس بعض العقائد النصرانية وتؤثرها على الوثنية . على أن الاضطهادات النصرانية في القرنين الثالث والرابع حملت النصارى على المهاجرة الى بلاد العرب والإقامة فيها ونشر تلاميهم بين أهلها وهناك روايات كثيرة عن اصل تنصر بعض قبائل العرب وأول من تنصر منهم وبالجملة فان النصرانية كانت منتشرة في جزيرة العرب قبل الاسلام وأشهر من تدين به

كان بين بعض قبائل العرب من يدين بدين التوحيد وهو دين إبراهيم عليه السلام وابنه اسماعيل وكان عبدة الاوثان يحجون الى الكعبة المشرفة ويوجهون اليها امانيتهم وعباداتهم وكانت قريش تصوم عاشوراء (١) وكان كثير من العرب يقول بالطبيعة الواحدة للمسيح وهو اعتقاد اليعاقبة وكان فيهم من يقول بالمعاد ويعتقد أن من نحرت ناقته على قبره حشر راكباً ومن لم يفعل

ربيعاً وغسان وتنوخ وحمير وتغلب وبعض قضاة وطى وسكان بخران وعرب الحيرة ولتنصر عرب الحيرة حكاية مشهورة حدثت للنعمان لا محل لها هنا

(١) قيل ان عاشوراء عبراني. معرب لفظ عاشور وهو العاشر من تشرى اليهود الذي صومه صوم الكبور وانه اعتبر في شهور العرب فجعل في اليوم العاشر من أول شهورهم كما هو اليوم العاشر من أول شهور اليهود وقد فرض في التوراة صوم هذا اليوم ولا يزال اليهود الى هذا العهد يحافظون على صيامه ويتقربون باكرامه وقد دخل النبي صلى الله عليه وسلم المدينة يوم عاشوراء اليهود كما سبق ايضاحه

ذلك حشر ماشياً ومنهم من كان ينكر ذلك وبقوا في غيابة  
جهلهم يعمهون حتى سطع النور الاسلامي في أفق العالم  
فانكشفت غيوم الشرك وآب الكبل لعبادة إله فرد صمد  
لم يلد ولم يولد ولم يكن له كفوا أحد

في لغة العرب وآدابهم وأشعارهم وشعراتهم وأسواقهم  
وكتابتهم — لما كانت العرب تعمل على غرائزها الفطرية  
كانت الملكة الاصلية الجبلية فيهم على حد سواء واتحدت  
ألسنتهم وأفكارهم وحماستهم وبلاغة مقالهم وانما اختلفت  
فيهم لغات الاحياء والقبائل ومخاطبات البطون والعشائر (١)

(١) لما ظهر الاسلام كان العرب قبائل متفرقة ولكل قبيلة  
منهم لغة أو لهجة خاصة بها وكان الاختلاف بين هذه اللهجات قليلا  
الافى أطراف البلاد حيث خالط العرب الحبش والتبسط والروم والنبط  
وفي بلاد اليمن لان لغة اليمن الحميرية كانت قد صارت بعيدة عن بقية  
لغات العرب لاسباب سياسية ومحلية . وسبب قلة الاختلاف بين لغات  
العرب في الحجاز وما جاورها كثرة ارتحال العرب واختلاطهم بداعي  
الغزو والاسر وعكسهم على زيارة البيت الحرام وانشادهم الاشعار  
التي تحفظ وتسير بها الركبان الى كل الاحياء فتقوم مقام الكتب

يعنى اتحد اللسان الذي به التفهم والتفهم واختلف متعلقه وأحوال التلفظ به في التأدية وأسماء المسميات وكينيات الحركات والسكنات ومع ذلك فاللسان واحد وعلى قاعدة واحدة تكاد أن تكون عمومية لا يعترها تغيير وإلا لكان لحنًا وغلطًا ولا يجوز أن يتوهم في العزبي البدوي أن يغلط في نطقه ويلحن فيه وإن تعد ذلك لا يطاوعه لسانه فالعرب معصومون من لحن اللسان وإطلاق الألفاظ على غير معانيها وإنما يجوز أن يخطؤا في وضع بعض الألفاظ وتوضيح ذلك نقول كما ورد في كتاب مميزات العرب للفاضل حنفي بك ناصف إن اللغة العربية وإن كانت في ذاتها لغة واحدة مغايرة للغة الرئيسية والانكيز والالمان وبقية الأمم إلا أنها تعدد بالنسبة

والجرائد في حفظ اللغة ونشرها . نلو كانت بلادهم خصبة وطرق المعيشة فيها ميسورة وهم قبائل متفرقة لا تجمعهم جامعة الملك ولا الدين لا شتد الفرق بين لهجاتهم حتى صارت لغات متفرقة كما حدث لزنج أفريقية وهنود أمريكا . فلم يتعد عن لغات العرب إلا الحميرية بسبب استقلال أهلها وقيامهم في المدن واتصالهم بالاحباش وقيام الملك فيهم أزمانا طويلة

للاختلافات التي توجد في السنة المتكلمين بها فلغة هذيل غير لغة عقيل وكلاهما غير لغة قيس وكل منها غير لغة أسد والاربع تميز عن لغة تميم ويغاير الجميع لغة الحجاز وهلم جرا فالأتحاد والتعدد من جهتين مختلفتين فلا تناقض في الكلام ويمكن تشبيه ذلك بافراد بني آدم فانهم يتحدثون جميعاً في الحيوانية الناطقية بحيث يطلق على كل فرد منهم لفظ انسان ولكنهم يختلفون بميزات أخرى مثل الطول والقصر والسمن والذخافة والبياض والسمررة على أن ذلك أمر موجود في كل اللغات كما قدمنا فالخبير بلغة الفرنسيين مثلاً يمكن أنه يميز الباريسي من المارسييلي والأثين من المونبيلي بمجرد ما يسمع كلامهم مع أن كلا منهم يتكلم باللغة الفرنسية ولما كانت لغات العرب لا بد من تداولها في المحاورات والمخاطبات والمحاضرات وكان أهل نجد والحجاز مثلاً لا يفهمون لغة اليمن وحير بل ربما كانت قبائل إقليم لا تكاد تتكلم بلغة واحدة أي لا تستعمل كلمات واحدة في تأديه المعنى الواحد كما قدمنا وكانوا جميعاً مولعين بقول الشعر ونشره

بينهم بدون يأس ممن أبطأ في قوله ثم نطق كالنابغة الذي نبغ فيه مرة واحدة ولقب بذلك. اجتمع الشعراء وأجمعوا رأيهم على تحسين اللسان العام الذي يكون به التفاهم عند جميعهم لما في توحيد اللغة من المزايا والفوائد وانجزوا ذلك وتغلبت لغة قريش على كل اللغات الأخرى انزولهم مكة المشرفة وتولاهم سدانة الكعبة فلما نزل القرآن الشريف بأمة قريش انشأ التمدن العربي بها وانضمت قبائل العرب تحت لواء الاسلام وتألفت العربية من مجموع هذه اللغات أو اللهجات ولما شمل الفتح الاسلامي البلاد واختلط العرب بالعجم ودخل كثير من الكلمات الاعجمية واساليب الاعاجم في صور كلامهم العربي وخيف من وقوع اللحن في لسانهم وضع ابو الاسود الدؤلي ومن تبعه من الافاضل العلماء علوم اللسان العربي لحفظ اللغة ثم أصاب العربية في هذه الاعصر ما أصاب غيرها من اللغات الشهيرة من قبلها كاليونانية واللاتينية أي ان العلم انحصر في فئة من الخاصة فحافظت على اللغة وقواعدهما وسار الجمهور في طريق التغيير والتبديل والتجريف

لقيامه انتشار العلوم بينهم ففسدت انتمهم بذلك وباختلاطهم مع من جاورهم من الشعوب صارت اللغة لغتين لغة الكتابة ولغة التكلم كما هي الى هذا العهد . ولا يخفى ما في إهمال أمر اللغة من المضار أدبياً ودينياً وعامياً فقد قيل إن ضياع اللغة تسليم للذات . ولذلك اجتهدت كل أمة في المحافظة على لغتها فبقيت محفوظة فيها الا الامة الاسلامية فقد اهلكت لغتها العربية وهي لغة دينها الذي يجمعها كلوا نهل لها من لبيب يتدبر ويعتبر بما فات على غيره

والكيفية التي توصل بها شعراء الجاهلية لتجسين اللسان العام وتوحيد اللغة هي أنهم كانوا في أواخر أمرهم اذا نظموا قصائدهم حاولوا ان تكون ألفاظها مألوفة للجميع متعارفة بحيث تفهم معانيها المقصودة منها لجميع أحياء العرب وقبائلهم فتكون من ذلك لسان عربي مشترك بين العرب على اختلاف أحيائهم ولا شك أنه لم يكن في استطاعة أحد غير الشعراء القيام بهذه المهمة لان العرب لم يكونوا أصحاب كتب يرجعون اليها ولم توجد طرق النشر وقتئذ كما هي

الآن وإنما كانوا يرجعون إلى تلتى كل طبقة عن فوقها ما  
تواتر من الأخبار والآثار فيتناقلون تواريخ حسابهم ويحفظونها  
محافظة على صناء انسابهم ولا يهملون معرفة ما أثر قدمائهم  
واسلافهم ووقائعهم وحوادث حروبهم وخطوبهم وعلاقاتهم  
مع من جاورهم وكل هذا بطريق الروايات خلفا عن سلف  
وقد دانت أشعار العرب على وقائعهم التاريخية وأيام حروبهم  
وعلى ما كان عندهم من الاخلاق والعوائد دلالة كافية في  
الوضوح وبممارسة قرض الشعر على هذا الوجه المنسجم نتجت  
اللغة العربية وتخلصت من شوائب الرككة واللكنة واستعمال  
الالفاظ الوحشية والعربية وأثمر قرض الشعر بهذا الوجه  
المقبول فوائد حجة منها انه كان يدعو إلى المروءة وعلو الهمة  
ويحمل على الشجاعة والاقدام على عظام الأمور فلذلك كان  
لشعراء العرب في ذلك العهد نفوذ تام ورسوخ أقدام واعتماد  
عليهم ووثوق بهم فكان كلامهم حجة به يستشهد وعليه يعتمد  
للسادة الشعراء فضل ثابت ولهم مقام شامخ ومكان  
وهو سلاطين الكلام أم ترى كل امرئ منهم له ديوان



وكان الشعراء دون غيرهم هم المؤرخون والنسابون  
والناقلون للحوادث في جزيرة العرب بتمامها لاشتمال تصاندهم  
على الوقائع والآثر والنوازل والمفاخر وتحويل الاحوال من  
مكان الى مكان وتنقل الحوادث من زمان الى زمان فكانوا  
بدون شك ولا شبهة أمراء الكلام وأهل الحل والابرام  
ولما كانوا هم المحسنين والمقبحين والمادحين والقادحين  
والمغرين والمحذرين كانوا يرفعون القبائل ويخفضونها  
ويشرفونها ويضعونها كما يشاؤون مدحاً وهجواً تلويحاً وتصريحاً  
تعريضاً وكناية

وللشعراء السنة حداد على العوراء ما برحت دليلة  
والكن السعيد من اتقاها وداراها مداراة جميلة  
ولذا كان يخشى بأسهم ويحترم جنابهم وكثيراً ما كانت  
تجتمع العرب تحت خيامهم وقبابهم يتناشدون الاشعار  
ويتغنون بها بالانغام والايقاعات فتطرب المسامع وتحاو على  
لسان منشدتها وناظمها كما تلد بها أذن السامع فكأنما البدوى  
من العرب مخلوق من أصل الفطرة لقرض الشعر وابتكار

المعاني البديعة والتفنن في أنحاء الكلام  
وقد أنشأ العرب جمعيات احتفالية في أسواق دورية  
ذات ميادين شعرية كسوق عكاظ وسوق مجنة وسوق ذي  
المجاز ولكن سوق عكاظ هو المتميز منها بالسباق في الشعر  
وعكاظ قرية بصحراء بين مكة والطائف على ثلاث مراحل  
من مكة المشرفة وكان فيها سوق أسبوعية يوم الأحد  
وسوق سنوية وهي المتصودة هنا كانت تقوم هلال ذي  
القعدة ويستمر موسمها عشرين يوماً يجتمع فيها قبائل العرب  
فيتعاطفون أي يتفاخرون ويتناشدون وكان من فوائدها  
أن العرب يتعارفون فيها ويتحابون وكانت فرسان العرب إذا  
سكان أيام عكاظ في الشهر الحرام وأمن بعضهم بعضاً  
يتقنعون حتى لا يعرفوا. وإن كانت هذه السوق تؤذن  
بالتعامل والإخذ والعطاء إلا أنه كان في الحقيقة جل الغرض  
منها اجتماع فحول الشعراء والفصحاء والباغاء من أهل العربية  
لابدأ نتائج افكارهم واظهار محاسن فصاحتهم وبلاغتهم  
وكان يجتمع بها سادات العرب وملوكهم وقبائلهم ورؤساء

العشائر وعرفاؤها ومثل عكاظ في ذلك سوق ذي المجاز  
 خلف جبل عرفات وأسواق آخر وكانت هذه الأسواق  
 ساذجة بسيطة مجردة عن الزينة والزخرفة لكنها مهيبة  
 يزدحم فيها الشعراء من جميع جهات العرب ويقوم الشاعر  
 ويرز في حومة الميدان وأرباب المجالس ثابتون في مكانهم فينشد  
 الأشعار من قريضه وهم يصغون إلى سماعها منه ويحرصون  
 على التقاطها من فم بمجرد النطق بها ويحفظونها عن ظهر  
 قلب فيكتب في المحفل العام ما يستحسن من القصائد بحروف  
 الذهب على منسوج الحرير ويلق على الكعبة المشرفة  
 ليخلد اسم صاحبه ويبقى على مدى الأيام رسمه ولا يزال في  
 الخلف بقايا ماثر السلف ولهذا بقيت شهرة المعلقات السبع  
 محفوظة إلى عهدنا هذا وقد اعتنى علماء الإسلام بشرحها لما  
 اشتملت من البلاغة والفصاحة والصناعة الشعرية وكانت  
 العرب إذا أتت في الموسم يضعون سلاحهم عند أهل السدانة  
 من قريش قبل الدخول في السوق ومن لم يضع سلاحه  
 عندهم عرض نفسه للقتل

وكما كانت هذه السوق مجمع الفصاحة والأروسية كانت مجمع مكارم الاخلاق أيضا حتى كان بعض أشراف الشعراء كعاصم بن الطغفيل الدامري ينادى مناديه في هذه السوق « هل من راجل فنحمله أو جائع فنطعمه أو خائف ننؤمنه » وكانت أيضا هذه السوق كديوان ملوك العرب فكان بعضهم يأخذ ماله من الاتاوة والمرتبات على الباتل كل سنة بالموسم وكانت العرب تنتقل من سوق عكاظ بعد انفضاضها الى سوق مجنة وتقيم فيها عشرين يوما ثم تنتقل منها الى سوق ذي المجاز فتقيم فيها الى أيام الحج وكان سوق عكاظ الذي هو مجمع المفاخرة قد يتسبب عنه المقاتلة والحرب وممن اشتهر بالخطابة فيه قس بن ساعدة وهو أول من قال « أما بعد » في كلامه وهو القائل

لقد علم الحى اليمانون أنى اذا قلت أما بعد أنى خطيبها  
وقد آمن برسول الله صلى الله عليه وسلم قبل بعثته ولم يره  
وخطب خطبة في سوق عكاظ خث فيه على اتباع دينه وكان  
مقرا بالبعث والعقاب فصيحاً اذا خطب عمر ا طويلا

وكان مقرا لله تعالى بالوحدانية تضرب بحكمته الامثال  
ومن خطبه خطبة شهيرة قالها وهو على جبل له أحمر بالسوق:  
«أيها الناس اجتمعوا واسمعوا وعوا: ان من عاش مات ومن  
مات فات وكل ما هو آت آت. ميمار ونبات. وارزاق واقتوات.  
جمع واشتات. وآيات بعد آيات. ان في السماء خبيرا. وان  
في الارض لخبيرا. نجوم تمور. وبحار تغور. وسقف مرزوق.  
ومهاد موضوع. اقسم بالله قسما لا حاشا ولا آثما ان لله دينا  
احب من دينكم الذي اتم عليه. ونيا قدا ظلمكم او انه. وادرككم  
إبانه. فطوبى لمن ادركه فآمن به وهداه. وويل لمن خالفه  
وعصاه.» ثم قال: «مالي أرى الناس يذهبون ولا يرجعون؟  
أرضوا بالمقام فأقاموا؟ ام تركوا هناك فناموا؟ يامعشر بني  
آدم أين الآباء والاجداد؟ وأين المرضى والعواد؟ طحنهم  
الثرى بكلكاه ومنزقهم بتطاولة؟ كلاب هو الله الواحد  
المعبود ليس بوالد ولا مولود! وانشد

في الذاهبين الاولين من القرون لنا بصائر

لما رأيت موارد للقوم ليس لها مصادر

ورأيت قومي نحوها تمضي الاصغر والا كابر  
لا يرجع الماضي السي ولا من الباين غابر  
ايقتت انى لا محاة لة حيث صار القوم صائر  
ولما قدم الجارود بن عبد الله على النبي صلى الله عليه  
وسلم سأله عن قس فقال: هلك. فقال « رحم الله قسا انى لا رجو  
« أن يبعثه الله أمة وحده »

وبالجملة فقد كان محفل عكاظ معدن المفاخر التليدة  
والطارفة ولم يكن وحده فى جزيرة العرب بل كانت أسواق  
اليمين ايضاً مركزاً للمفاخر الظاهرية والمنافع العمومية والزينة  
والزخرفة فكانت بضاعتها هى النافقة

شعر ابن العرب والمعلقات السبع — قد اتفق الكل على  
ان المعلقات السبع هى من أجود اشعار العرب واشهرها  
وقال صاحب تذكرة الحكم فى طبقات الامم: « ان العرب  
يقيت تسجد لهذه المعلقات مدة طويلة لفصاحتها الى أن ظهر  
الاسلام وابطل القرآن بسطوة فصاحته اعتبار العرب لهذه  
المعلقات « واصحابها هم:

(١) امرؤ التيس بن حजर الكندي وكان موته قبل  
الهجرة نحو اثنين وثمانين سنة ومطلع معلقته  
فقائبك من ذكرى حبيب ومنزل

بسقط اللوى بين الدخول فحومل

وقد اشتهرت هذه المعلقة حتى صار يضرب بها المثل  
في الامر الواضح فيقال: اشتهر من قفايبك. وسنأتي في الفصول  
الآتية على ترجمة هذا الشاعر عند التكلم على ملوك كندة

(٢) طرفة بن العبد البكري وكانت وفاته قبل الهجرة

بثمان وخمسين سنة ومطلع معلقته

نحولة اطلال بيرة ثمهد تلوح كباقي الوشم في ظاهر اليد

وكان طرفة في حسب كريم وعدد كثير من قومه

البكرين وكان شاعراً جريئاً على الشعر بلغ مع حداثة سنه

ما بلغ القوم مع طول اعمارهم. مات أبوه وهو صغير ومن شعره:

وأعلم علماً ليس بالظن أنه اذا ذل مولى المرء فهو ذليل

وان لسان المرء ما لم تكن له حصاة على عوراته لدليل

وله أيضاً

ولا أغير على الأشعار اسرقها غنيت عنها وشر الناس من سرقا  
وان أحسن بيت أنت قائله بيت يقال اذا انشدته صدقا  
وتدمات مقتولا ولم يناهز العشرين من عمره وقصة  
قتله مشهورة في كتب الادب

(٣) عمرو بن كلثوم التغلبي وكانت وفاته في السنة  
الاولى من الهجرة ومطلع معلقته

ألا هبي بصحنك فاصبحينا ولا تبقى خور الاندرينا  
وهو من أجود العرب شعرا واعزهم نساء وأكثرهم امتناعا  
في شعره حتى قال بعضهم: «لله در عمرو بن كلثوم لو أنه رغب  
فيما رغب فيه اصحابه من كثرة الشعر ولكن واحده أجود  
من مثاتهم» ويذكرون أنه عاش مائة وخمسين سنة وسبب  
موته مشهور ايضا

(٤) الحرث بن حلزة اليشكري ومولده قبل الهجرة  
بأثنتين وثلاثين سنة وهو من اهل العراق ومشاهير الشعراء  
ومطلع معلقته

أذنتنا بينها أسماء رب زاويل منه الثواء



ومنها

لا يقيم العزيز بالبلد السه  
ليس ينجي الذي بوائل منا  
هل ولا ينفع الذليل النجاء  
رأس طود وجرة رجلاء

ومن شعره

عش بالجدود فما يض  
والعيش خير في ظلا  
واتد رأيت معاشر  
وهو ذباب طائر  
مر الجهل مأوتيت جدا  
ل النوك ممن عاشن كدا  
جمعوا لهم مالا وولدا  
لا يسمع الآذان رعدا

(٥) لبيد بن ربيعة العامري وبكني بأبي عقيل وكان

مولده قبل الهجرة بأربعين سنة وهو من اهل العراق أيضاً  
أدرك الاسلام واسلم ومطلع معانته

عفت الديار محلها فتامها . بمنى تأبذ ثولها فرجامها

ومن شعره في الجاهلية

يلينا وما تبلى النجوم الطوالع  
فلا جزع ان فرق الدهر بيننا  
وثبى الديار بعدنا والمصانع  
فكل امرئ يومابه الدهر فاجع  
يحور رمادا بعد ما هو ساطع  
وما المرء الا كالشهاب وضوئه

وما المال والأهلون إلا ودائع ولا بد يوماً أن تردّ الودائع  
فمنهم سعيد أخذ بنصيبه ومنهم شقي بالمعيشة قانع

وفد عاش عمراً طويلاً وإلى ذلك يشير بقوله

ولقد سئمت من الحياة وطولها وسؤال هذا الناس كيف أبعد

روى أنه لم يقل شعراً منذ أسلم وكان يقول: ابداني الله

به القرآن. وله في البكرم آثار مشهورة: حكى أنه كان عليه نذر

من قديم أن لا تهب ريح الصبا إلا وينحر ويطعم فهبت يوماً

وهو فتير لا يملك شيئاً فعلم بذلك أمير العراق وقتئذ الوليد

بن عتبة فخطب الناس وقال: انكم تعرفون نذر أبي عتيل على

نفسه وقد أصبح اليوم فقيراً فأعينوه. ثم نزل فبعث إليه بمائة

نائة وكتب إليه يقول

أرى الجزار يشحذ مديته إذا هبت رياح بني عقيل

طويل الباع ابلغ جعفرى كريم النفس كالسيف الصقيل

يهش إذا الضيوف تداولته فيقرى بالبعير وبالفضيل

وكان للبيد بنت فقال لها اجيبي الأمير لأنى تركت قول

الشعر فقالت :

اذا هبت رياح بني عتيل      دعونا عند هبتها الوليدا  
 بامثال الهضاب كأن قوما      عليها من بني حام قعودا  
 أبا وهب جزاك الله خيرا      نحرناها واطعمنا الثريدا  
 فعد ان الكريم له معاد      وظنى في ابن عقبة ان يعودا  
 فقال لها : أحسنت يا بنية لولا المسألة. فقالت : يا أبا ان  
 مثل هذا لا يستحي من مسأته. ومات ليذوله من العمر مائة  
 وأربعون سنة .

(٦) زهير بن أبي سلمى المزني كان شاعرا مشهوراً  
 في الجاهلية من أهل نجد مات قبل البعثة بسنة ومطامع معلقته  
 آمن أم أوفى<sup>(١)</sup> دمنة لم تكلم بحومانة الدراج فالتشم  
 ومن أبياتها الجارية مجرى الحكم قوله  
 سئمت تكاليف الحياة ومن يعش      ثمانين حولاً لا أبالك يسأم

(١) ذكر ابن الأعرابي أن زهيراً تزوج امرأتين الأولى  
 اسمها أم أوفى وهي التي ذكرها في البيت الأول من معلقته ولدت  
 له أولادا ماتوا ثم تزوج غيرها وهي أم ابنه كعب وبجير فغارت من  
 ذلك فطلقها ثم ندم

رأيت المنايا خبط عشواء من تصب  
 رأيت سفاه الشيخ لا حلم بعده  
 واعلم ما في اليوم والامس قبله  
 ومن لم يضائع في أمور كثيرة  
 ومن يجعل المعروف من دون عرضه  
 ومن يك ذا فضل ويخل بفضله  
 ومن هاب أسباب المنايا ينلته  
 ومن يجعل المعروف في غير أهله  
 ومن لم يزد عن حوضه بسلاحه  
 ومن يغترب بحسب عدو اصدقائه  
 ومهما تكن عند امرئ من خلية  
 وكائن ترى من معجب لك شيخه  
 لسان الفتى نصف ونصف فؤاده  
 سألنا فأعطينا وعدنا فعدتم  
 ويقال انه رأى قبل موته بسنة في نومه كأنه رفع الى  
 السماء حتى كاد أن يمسه بيده ثم انقطعت الحبال فدعى بنيه

تمته ومن تخطى يعمر فيهم  
 وان الفتى بعد السناهة يحلم  
 ولكنى عن علم ما في غد عمى  
 يضرس بأنياب ويوطأ بذيهم  
 يفره ومن لا يتقى الشتم يشتم  
 على قومه يستغن عنه ويذم  
 وان يرق أسباب السناء بسلم  
 يكن حمده ذمما عليه ويندم  
 يهدم ومن لا يظلم اناس يظلم  
 ومن لا يكرم نفسه لا يكرم  
 وان خالها تخفى على الناس تعلم  
 زيادته او نقصه في التكلم  
 فلم يبق الا صورة اللحم والدم  
 ومن أكثر التسأل يوم ما سيحرم

وقص عليهم رؤياه وقال لهم: انه سيكون بعدى أمر يعلو من  
 اتبعه ويفلح فخذوا بحظكم منه. ثم لم يعيش الا يسيرا حتى مات  
 فلم يحل الحول حتى بعث رسول الله صلى الله عليه وسلم ثم أسلم  
 بجير بن زهير وحسن اسلامه فلامه اخوه كعب بن زهير بقوله  
 ألا بلغا عنى بجيرا رسالة فهل لك فيما قلت ويحك هل لك  
 ستمالك بها المأمون كأساروية. فأنهك المأمون منها وعلكا  
 فلما بلغ النبي صلى الله عليه وسلم هجو كعب له اهدر دمه  
 فكتب إليه أخوه بجير يعلمه بذلك فضاقت بكعب الارض  
 ولم يدر فيم النجاة فأتى أبا بكر فاستجاره فقال: اكره أن اجير  
 على رسول الله صلى الله عليه وسلم وقد اهدر دمك. أتى عمر  
 فقال مثل ذلك فأتى عليا فقال: « ادلك على امر تتجوبه: هو أن  
 تصلى مع رسول الله صلى الله عليه وسلم فاذا انصرف فتم  
 خافه وقل مد يدك يارسول الله أباعك فانه سيناولك يده  
 من خافه فخذ يده فاستجره فاني ارجو أن يرجمك. » ففعل فلما  
 ناوله رسول الله يده استجاره وأنشد قصيدته التي مطلعها  
 « بانت سعاد فقلبي اليوم متبول » إلى آخرها فأجازه عليها

ببردته الشريفة . ولا يه زهير قصائد غير المعلقة كانت تلقب بالحوليات وكان ينظم الواحدة منها في أربعة أشهر ويهذبها بنفسه في أربعة أشهر ويعرضها على أرباب الشعر في مثلها فلا يشهرها حتى يأتي عليها حول وكان زهير منقطعا الى خاله بشامة بن الغدير معجبا بشعره وكان بشامة رجلا فقعدا ليس له ولد حازم الرأي كثير الأدب وكان يستشيره قومه « بنو غطفان » اذا أرادوا أن يغزوا واذا رجعوا قسموا له مثل ما يقسمون لافضلهم فإذلك كثير ماله وكان أسعد غطفان في زمانه فلما حضره الموت جعل يقسم ماله في أهل بيته وبنى اخوته فأثاه زهير فقال يا خاله لو قسمت لي من مالك فقال له: يا ابن أختي لئد قسمت لك افضل من ذلك وأجزل . قال وما هو ؟ قال شعري .

(٧) عنتر بن عمرو بن معاوية بن شداد العبسى شاعر

بنى عبس وفارسهم ولد سنة ٥٢٥ مسيحية وتوفى سنة ٦١٥ ويقال له عنتره الفوارس ويكنى بأبي المغلس<sup>(١)</sup> وكانت أمه

(١) لم يشهر أحد من الجاهلية أو الاسلام بين عامة الناس

جارية حبشية اسمها زبية سبها أبوه في بعض مغازيه  
 ناستولدها عنتره وكان أبوه ينكره أولاً ولا يدعوها ابناً له  
 لكون امه جارية فلما شب وترعرع وتعلم الفروسية وصار  
 شجاعاً مشهوراً يرد العدو وشاع ذكره بين العرب دغاه أبوه  
 ابناً له وكان عنتره يهوى ابنة عمه عبلة بنت مالك بن قراد  
 وكثيراً ما يذكرها في شعره وكان أبوها يمنعها من زواجها  
 فهاجم بها واشتد وخذله واخيراً تزوجها بعد جهد طويل ثم  
 مات عنها مقتولاً ومطلع معلقته

هل غادر الشعراء من متردم أم هل عرفت الدار بعد موسم  
 ومنها

وخاصتهم اشتهار عنتره فلا تكاد ترى رجلاً ولا امرأة ولا صبياً ولا  
 ابنة سواء كان من الجهلاء أو العلماء من الفقراء أو الاغنياء الا وقد  
 عرف اسمه أو سمع شيئاً عنه وسبب اشتهاره قصته المشهورة التي لم  
 يعب أحد من عامة القراء تلاوتها أو سماعها . وهذه القصة هي عبارة  
 عن رواية تاريخية وضعت في أوائل الاسلام وغير معروف تماماً  
 واضعها ولكنهم ينسبونها الى الاصمعي « في أوائل القرن الثالث  
 للهجرة » لورود اسمه فيها بمنزلة الراوي

فاذا ظلمت فان ظلمي باسل      سر مذاقته كطعم العلقم  
فاذا شربت ذاتي مستهالك      مالي وعرضي وافر لم يكلم  
واذا صحت فما اقصر عن ندى      وكما علمت شمائي وتكرمي  
وكان عنتره مع شدة بطشه اين العريكة حلما سهل الاخلاق  
لطيف الحاضرة رقيق الشعر لا يأخذ مأخذ الجاهلية في  
ضخامة الالفاظ وخشونة المعاني ومن ذلك قوله في عبلة  
يا عبل لأخشى الحمام وانما أخشى على عينيك وقت بكاك  
وكانت له اليد الطولى في الحماسة ومن ذلك قوله

إني لا عجب كيف ينظر صورتي      يوم القتال مبارز ويديش  
وقوله من قصيدة

حصاني كان دلال المنايا      نفاض غبارها وشري وباعا  
وسيفي كان في الهيجا طيبا      يداوى رأس من يشكو الصداعا  
ولو أرسلت رمحي مع جبان      لكان بهيبي يلقى السباعا  
ملأت الارض خوفا من حسامي      وخصمي لم يجد فيها اتساعا  
اذا الابطال فرت خوف بأسي      ترى الاقطار باعا أو ذراعا  
ومن شعره أيضا



أحبك يا ظلوم وانت منى      مكان الزوج من جسد الجبان  
ولو أنى أقول مكان زوحى      خلفت عليك بادرة الطعان



وقد علق الكعبة غير تلك المعلقة السبع معلقة اخرى  
كمعلقة الأعرشى التي أولها  
ودع هريزة ان الركب مرتحلان      وهل تطيق وداعاً ايها الرجل  
ومنها

قالت هريزة لما جئت زائرها      ويلي عليك وويلي منك يا رجل  
قالوا الطراد فقامنا تلك عادتنا      أو تنزلون ذانا معشر نزل  
وقد ذكر ياقوت في معجمه أشعار العرب مقسمة الى  
الانواع الآتية السموط والمجمهرات والمنتقيات والمذهبات  
والمراثى والمشوبات والملحجات وأقدم الآداب التي انتهت  
اليها هي أمثال ليمان وهي نثر مقفى ويأتى بعدها منظومات  
شاعرين قديمين وهما عامر بن خنيس والمرقس الأصغر ومن  
أشهر شعراء الجاهلية الذين نبغوا فى القرن السادس للميلاد  
غير من ذكرناهم عدى بن ربيعة المعروف بالمهلhel وعدى

بن زيد وعدي بن الابرص وأمّية بن أبي الصلت ويعدونهم  
من الطبقة الاولى والشنفرى وأبو دؤاد الايادى وسلامة بن  
جنبد والمثقب العبدى والبراق بن رومان وتأبط شراً  
والسموأل وعلقمة الفحل والحارث بن عباد وخدّاش بن زهير  
وعروة بن الورد والاسود بن يعفر وحاتم الطائى وأوس بن  
حجر ودريد بن الصنمة ويعدونهم من الطبقة الثانية ولقيط  
بن زرارة وغيره ويعدونهم من الطبقة الثالثة . وقد اشهر  
أيضاً نساء كثيرات فى الشعر والذكاء المفرط كالخنساء التى  
شهد لها النابغة فى سوق عكاظ باليد الطولى فأعجب بشعرها  
وقال لها «لولا ان هذا الاعمى أنشدنى قبلك - يعنى الاعشى -  
لفضلتك على شعراء هذا الموسم» واكثر شعرها فى مرثى  
اخويها معاوية وصخر وقد أدركت الاسلام واسلمت وتوفيت  
سنة ٢٤ هجرية

وقد اجمع علماء الشعر انه لم تكن قط امرأة قبلها ولا  
بعدها اشعر منها . وكانت شريفة الاحساس ذات نخوة  
عربية وشهامة نادرة المثال . وقد اختلف الناس فى تفاضل

الشعراء: فقال قوم أفضلهم امرؤ القيس ومنهم من قال زهير بن أبي سلمى وقيل عنتر بن شداد وقيل غيره وسئل الأصمعي من أشعر العرب فقال: عنتر إذا ركب وزهير إذا رغب والنابغة إذا طرب والاعشى إذا رهب وقال الفرزدق: «أن الشعر كان جملاً باذلاً عظيماً فنجر فجاء امرؤ القيس وأخذ رأسه وعمرو بن كاثوم أخذ سنامه وزهير كاهله والاعشى والنابغة نخديه واطرافه ولييد كركرتة ولم يبق إلا المزارب والبطن فتوزعناها بيننا»

أما ما حفظ في أيامنا هذه من الأشعار البليغة فهي موجودة في كتب كثيرة أشهرها ما ورد في جمهرة العرب لابن دريد وكتاب الأغاني للأصمعي والعقد الفريد لابن عبد ربه وفي كتاب الميداني نقلاً عن المفضل وفي كتاب أدب الكاتب لابن الأثير وآخر للنويري وفي مجموعة الحماسة. وفي كتابي ابن الأثير والنويري ومجموعة الحماسة أشعاراً أخرى عن الحروب التي كانت بين الروم والفرس أي بين كسرى أنوشروان وبين جوستينيان وهي الحروب التي اشترك فيها

ملوك الحيرة وملوك غسان من العرب

علمهم العرب ومعارفهم — كان العرب لهم مع تفردهم بالفصاحة والبلاغة معرفة بأوقات مطالع النجوم ومغاربها وعلم بأنواء الكواكب وأمطارها حسبما أدركوه بفريظ العناية وطول التجربة لاحتياجهم الى معرفة ذلك في اسباب المعيشة . وزعم بعضهم ان الجاهلية كانوا على جانب عظيم من العلم والفلسفة وان فيثاغورس اليوناني استمد أكثر معارفه منهم كما رواه الفيلسوف ملك ( بورفيروس ) ووافقه جماعة من المتأخرين وكذلك قام بين العرب بعض أطباء كالحرث ابن كلدة الثقفي : يقولون انه رحل الى أرض فارس وأخذ الطب عن أهل جند يسابور وغيرها وطبب في أرض فارس وحصل مالا ثم ان نفسه اشتاقت الى بلاده فرجع الى الطائف ومن أقواله: «من سره البقاء — ولا يقاء — فليأكر الغداء وليخفف الرداء وليقل من غشيان النساء قال بعضهم : يريد بخفة الرداء أن لا يكون عليه دين .

وبالجملة فقد كانوا يعرفون من الطب ما يحتاجون إليه

في مداواة ما يلم بهم وما يعتورهم حسب حالتهم وعواندهم  
 ومجرباتهم . وفي الحقيقة إنهم كانوا ولا يزالون أقل من أهل  
 الامصار اضطراراً الى الترف وبالتبعية الى الطب والتقدم في  
 علومه كما قاله ابن خلدون لاقتصارهم على أنواع بسيطة من  
 المأكّل وتعودهم الجوع وجوبهم التفار تراض أجسادهم  
 ويكونون بمعزل عن استيلاء الانجزة السامة الحاوية أنواع  
 النقيعات

أما آدابهم وحكمهم فقد انترف لهم بالسبق فيها كل  
 من خالطهم أو وصل اليه كلامهم وشهد لهم بها ملوك الاعاجم  
 وحسب الانسان ترديد الطرف في حكم أكرم بن صيفي (١)

(١) تكلم اكرم يوماً بين يدي كسرى فقال: « ان أفضل الاشياء  
 أعاليها . وأعلى الرجال ملوكها . وأفضل الملوك أعمها نفعاً . وخير  
 الأزمنة أخصبها . وأفضل الخطباء أصدقها . والصدق منجاة . والكذب  
 مهواة . والشر لجابة . والحزم مركب صعب . والعجز مركب  
 وطىء . وآفة الرأي الهوى . والعجز مفتاح الفقر . وخير الامور  
 منقبة الصبر . وحسن الظن ورطة . وسوء الظن عصمة . واصلاح  
 فساد الرعية خير من اصلاح الراعي . ومن فسدت بطانته كان

من رجال العرب ليقدرهم قدرهم  
ويجمل بنا قبل اختتام هذا الكلام ان نذكر هنا حديثاً  
جري للنعمان مع كسرى وعنده وفود الروم والهند والصين  
وقد ذكر كل منهم ملوكه وبلاده فافتخر النعمان بالعرب  
وفضلهم على جميع الامم لا يستثنى فارس ولا غيرها فقال  
كسرى—واخذته عزة الملك: «يأنعمان لقد فكرت في أمر  
العرب وغيرهم من الأمم فوجدت الروم لها حظ في اجتماع  
ألفها وعظم سلطانها وكثرة مدائنها ووثيق بنيانها وان لها دينا

كالفاص بالماء . وشر البلاد بلاد لا أمير لها . وشر الملوك من  
خافه البرئ . وخير الاعوان من يرعى الصعبة . وأحق الجنود من  
حسنت سيرته . ويكفيك من الزاد ما بلغك المحل . وحسبك من شر  
سماعه . والصمت حلم وقليل فاعاه . البلاغه في الأيجاز . من شدد  
نفر . ومن تراخى ألف . « فتعجب كسرى من حكم أكرم وأمثاله .  
ومن حكمه أيضاً : ذلوا اخلاقكم للمطالب . وقودوها الى المحامد .  
وعاموها المكارم . وصلوا من رغب اليكم وتحلوا بالجود يابسكم  
المحبة . ولا تعتقدوا البخل فتعجلوا الفقر . ومن حكمه قوله  
كونوا جميعاً يابني اذا اعترى خطب ولا تفرقوا آحادا  
تأبي القداح اذا اجتمعن تكسرا واذا افترقن تكسرت أفرادا

بين حلالها وحرامها ويرد نسفها ويقدم جاهلها ورأيت الهند  
نحو من ذلك في حكمتها وطبها مع كثرة أنهار بلادها وثمارها  
وعجيب صناعاتها وطيب اشجارها ودقيق حسابها وكثرة  
عددتها وكذلك الصين في اجتماعها وكثرة صناعات أيديها  
وفروسياتها وهمتها في آلة الحرب وصناعة الحديد وان لها  
ملكاً يجمعها والترك والخزر على ما بهم من سوء الحال في  
المعاش وقلة الريف والثمار والحصون وما هو رأس عمارة الدنيا  
من المساكن والملابس لهم ملوك تضم قواصمهم وتدبر أمورهم.  
ولم أر للعرب شيئاً من خصال الخير في امر دين ولا دنيا  
ولا حزم ولا قوة ومع ان مما يدل على مهانتها وذلتها وصغر  
همتها محلتهم التي هم بها مع الوجوش المنافرة والطير الحائرة  
يقتلون اولادهم من الفاقة ويأكل بعضهم بعضاً من الحاجة  
قد خرجوا من مطاعم الدنيا ومشاربها وملابسها وهوها  
ولذاتها فأفضل طعام ظفر به ناعم لجوم الابل التي يعافها  
كثير من السباع لثقلها وسوء طعمها وخوف دائها وان  
قرى أحدهم ضيفاً عدتها مكرمة وان اطعم أكلة عدتها غنيمة

تنطق بذلك أشعارهم وتفتخر بذلك رجالهم . ما خلا هذه  
التنوخية التي أسس جدّي اجتماعها وشهد مملكتها ومنعها من  
عدوها فجزى لها ذلك الى يومنا هذا وان لها مع ذلك آثارا  
ولبوسا وقري وحضونا وأمورا تشبه بعض أمور الناس : يعنى  
اليمين . ثم لا أراكم تستكينون على ما بكم من الذلة والذلة والفاقة  
والبوؤس حتى تفتخروا وتريدوا أن تنزلوا فوق مراتب الناس !»  
قال النعمان : أصلح الله الملك حتى لأمةٍ الملك منها ان يسمو  
فضلها ويعظم خطبها وتعار درجاتها . إلا أن عندي جوابا فى كل  
ما نطق به الملك فى غير رد عليه ولا تكذيب له فان أمتى  
من غضبه نطقت به . قال كسرى قل فأنت آمن . فقال النعمان :  
«أمامتك أيها الملك ذابست تنازع فى الفضل لموضعها الذى  
هى به من عقولها وأحلامها وبسطة حكمها وبجوحة عزها  
وما أكرمت به من ولاية أبائك وولايتك . وأما الامم التى  
ذكرت فما من أمة تقرنها بالعرب الا فضلها بعزها ومنعتها  
وحسن وجوهها وبأسها وسخائها وحكمة أسنتها وشدة  
عقولها وانفتها ووفائها فأما عزها ومنعتها فانها لم تزل



مجاورة لا بآئك الذين دوخوا البلاد ووظدوا الملك وقادوا الجند  
ولم يطمع فيهم طامع ولم ينلهم نائل : حصونهم ظهور خيلهم  
ومهادهم الارض وسقوفهم السماء وجنتهم السيوف وعدتهم  
الصبر إذ غيرهم من الأمم انما عزها الحجارة والطين وجزائر  
البحور . وأما حسن وجهها وألوانها فقد يعرف فضلهم في  
ذلك على غيرهم من الهند المنحرفة والصين المنخفة والترک المشوهة  
والروم المتشعبة . وأما أنسابها وأصباها فليست أمة من  
الأمم إلا وقد جهلت آباءها وأصولها وكثيراً من أولها  
وآخرها حتى ان احدهم يسأل عن وراء ابيه دنيا فلا ينسبه  
ولا يعرفه وليس احد من العرب إلا يسمى آباءه آباءً .  
احاطوا بذلك احسابهم وحفظوا به انسابهم فلا يدخل رجل  
في غير قومه ولا ينتسب الى غير نسبه ولا يدعى الى غير  
ابيه . واما سخاؤها فان ادناهم رجلا الذي تكون عنده  
البكرة أو الناب عليها بلاغه في جمواته وشبعه وريه فيطرقة  
الطارق الذي يكتفي بالغلظة ويجتري بالشرية فيعقرها له ويرضى  
ان يخرج عن دنياه كلها فيم يكسبه حسن الأحدوثة وطيب

الذكر . واما حكمهم ألسنتهم فان الله تعالى اعطاهم في اشعارهم ورونق كلامهم وحسنه ووزنه وقوافيه مع معرفتهم بالاشارة وضربهم للامثال وابلاغهم في الصفات ما ليس لشيء من السنة الأجناس ثم خيلهم افضل الخيل ونساؤهم اعف النساء . ولباسهم افضل اللباس ومعادنهم الذهب والفضة وحجارة جبالهم الجزع ومطاياهم التي لا يبلغ على مثلها سفن ولا يقطع بمثلها بلد تفر . واما دينها وشريعها فانهم متمسكون به حتى يبلغ احداهم من نسكه بدينه ان لهم شهرا حراما وبادا محرما وبيتا محجوبا ينسكون فيه مناسكهم ويدبحون فيه ذبائحهم فيلقى الرجل قاتل ابيه او اخيه وهو قادر على اخذ ثاره وادراك رغمه منه فيحجزه كرمه ويمنعه دينه عن تناوله بأذى واما وفاءها فان احداهم ياحظ اللحظة ويومئ الأيماء فهي ولث وعقدة لا يخلها الا خروج نفسه . وان احداهم ليرفع عودا من الارض فيكون رهنا بدينه فلا يعلق رهنه ولا تختر ذمته . وان احداهم ليبلغه ان رجلا استجار به وعسى ان يكون غائبا عن داره فيصاب فلا يرضى حتى يفنى تلك القبيلة التي اصابته أو

تفنى قبيلته لما اخفر من جواره. وانه ليلجأ اليهم المجرم المحدث  
من غير معرفة ولا قرابة فتكون أنفسهم دون نفسه  
وأموالهم دون ماله. وأما قولك ايها الملك « يثدون اولادهم »  
فانما يفعله بعض جهاتهم بالاناث أنفة من العار. وأما قولك  
« إن افضل طعامهم لحوم الابل على ما وصفت منها » فما  
تركوا مادونها إلا احتقارا له فعمدوا الى اجلها وأفضلها  
فكانت مراكبهم وطعامهم مع انها اكثر البهائم شحوما  
واطيبها لحوما وارقها البانا واكلها غائلة واحلاها مضغعة وانه  
لا شيء من اللحمان يعالج بما يعالج به لحمها إلا استبان فضلها  
عليه. واما تحاربهم وأكل بعضهم بعضاً وتركهم الانقياد  
لرجل يسوسهم ويجمعهم فانما يفعل ذلك من يفعله من  
الأمم اذا آنت من نفسها ضعفا وتخوفت نهوض عدوها  
اليها بالزحف وانه انما يكون في المملكة العظيمة اهل بيت  
واحد يعرف فضلهم على سائر غيرهم فيلقون اليهم امورهم  
وينقادون لهم بأزمتهم. واما العرب فان ذلك كثير فيهم حتى  
لقد حاولوا أن يكونوا ملوكا اجمعين مع انفسهم من اداء

الخراج والعشر . اما اليمن التي وصفها الملك فلما اتى جد الملك اليها الذي أتاه عند غلبة الحبش له دلي ملك متسق وامر مجتمع فأتاه مسلوبا طريدا مستصرخا قد تقاصر عن ايوائه وصغر في عينه ماشيد من بنائه ولولا ما وتر به من يديه من العرب لمال الى مجال ولو وجد من يجيد الطعان. ويفض ب للاحرار من غلبة العبيد الاشرار.» فعجب كسرى لما اجابه النعمان به وقال: «انك لاهل لموضعك من الرئاسة في أهل اقليمك ولما هو أفضل.» .  
 فله در النعمان على هذا الحديث وهذا الوصف فقد جمع فأوعى ونلخص في كلمات وجيزات جميع صفات العرب المميزة لهم التي ذكرناها في هذا الفصل .

في الكتابة عند العرب — لا نعلم بالضبط الزمن الذي فيه استعمل الخط بين القبائل العدنانية أيام الجاهلية وانما المعلوم انه قبل الاسلام بزمن قليل عرف عندهم الخط الحيرى نسبة الى الحيرة عاصمة ملوك العراق وعلى ما جاء في أخبار العرب ان أول من استنبط الكتابة مرار بن مرة الانباري نسبة الى الانبار<sup>(١)</sup> اخذها عن الخط المسند المعروف بالحيرى

بعد ان تصرف فيه ومن الانبار انتشرت الكتابة العربية فأخذها عنهم اهل الحيرة وتداولوها ثم قدم الحيرة حرب بن امية بن عبد شمس بن عبد مناف القرشي الاموي فنقل هذه الكتابة من الحيرة للحجاز بعد ان عاد لمكة. وفي رواية أخرى ان أول من كتب بالعربية من أهل اليمن قوم هود وكانت تسمى كتابتهم بالخط المسند وهو خط حمير كانوا يكتبون كل حروفه منفصلة بعضها عن بعض وكانوا يمنعون العامة من تعلمه فلا يتعلمه أحد إلا باذنهم حتى تعلمه مرار المذكور واسلم بن توك وعامر بن حديرة ونويرة من عرب طيء فتصرفوا فيه وسموه بخط الجزم لانه جزم أى اقتطع من خط حمير المعروف بالخط المسند ثم علموه أهل الانبار ومنهم اشتهرت الكتابة في البلاد العربية. وبعد الفتوحات الاسلامية وتمضير البصرة والكوفة عرف هذا الخط بالكوفي وكان

( ١ ) الانبار مدينة قديمة على الفراءة بينها وبين بغداد وعشرة فراسخ وانما قيل لها الانبار لان الاكسرة كانوا يخزنون فيها المطاعم وكلمة عنبر « المستعملة الآن بأخوذة منها ومعناها « مخزن »

غثلا من الحركات والتنقيط الى أن وضع أبو الاسود الدؤلي الشكل في أيام معاوية ووضع نصر بن عاصم النقطة افراداً وازواجاً في أيام عبد الملك بن مروان منعاً للاشكال والابهام ثم لما انتشرت العرب في الاقطار والممالك وافتتحوها افريقية والاندلس واختط بنو العباس بغداد ترقى الخطوط للغاية ثم تقدمت الحضارة والتمدن في الدول الاسلامية في كل قطر وعظم الملك واتسعت دوائر العلوم وانتسخت الكتب وتنافس الكتاب في كتابتهم وملأوا بها القصور السلطانية والخزائن الملوكية وتبارت الاقطار في ذلك ولا زالت الخطوط آخذة في التحسين على أساليب جديدة.

قال بعضهم ان ابن مقلة هو أول من نقل الخط الكوفي الى العربي ووسطة يضرب به المثل في الحسن لانه أحسن خطوط الدنيا وقتها كما قيل انه كتب كتاب هدته بين المسلمين والروم فوضعه في كنيسة قسطنطينية فكانوا يبرزون في الاعياد ويجعلونه من جملة زياتهم في أخص بيوت العبادات هذا وقد ذهب آخرون الى أنه وجدت خطوط نسخ

قبل بن مقلة وفي زمنه قبل ظهوره فتبد اخبرني فضيلة الشيخ  
محمد عبده مفتي الديار المصرية حالا انه رأى خطوطا فيينا  
— عاصمة بلاد النمسا — مكتوبة سنة ٢٤ هجرية

وانه موجود بمكتبة الازهر كتاب «غريب الحديث»  
لابي عبيد مكتوب سنة ٣١١ هجرية وابن مقلة لم يشتهر الا  
سنة ٣١٤.

ثم جاء بعد ابن مقلة ابن هلال وهو أبو علي الحسن بن هلال  
المعروف بابن البواب فزاد في تغريب الخط ثم جاء ياقوت  
المستعصمي ونخم حسن الخط وأكمله فحسن الخط جدا في عهد  
الدولة العباسية ثم لما تضعفت خلافة بغداد وانتقلت الخلافة  
الى مصر والقاهرة انتقل الخط والكتابة والعلم اليها وسرى منها  
الى مضافاتها من البلاد التابعة لدولتها والى ما جاورها فلا زال  
الخط في جميع هذه الاماكن آخذا في الجودة الى هذا العهد  
وصار للحروف قوانين في وضعها واشكالها متعارفة بين  
الخطاطين. وأول من ضبط وجعل له قوانين معروفة علماء  
الخط من الأتراك العثمانيين واليهم انتهت جودة الخط وكماله

في الوقت الحاضر. وفي الحقيقة لا يقال ان جودة الخط الآن احكم من السابق الا بالنسبة لذوق الوقت فالخط المستعمل الآن في المحاضرات والانشآت بقدر درجة الانشآت والمحاورات ومألف الدواوين في ذلك. وبالجملة فلسان العرب الاوّل قد تغير واحتاج الى الاصلاح بالنحو وكذلك الخط العربي قد تغير واحتاج الى الاصلاح بقوانين جديدة بخلاف اللغة العربية فانها باقية على حالها وفي موضوعاتها لم تتغير الى هذا العهد فلم تزل محفوظة دائرة على السنة العلوم ومعرفة ضرورية كما سبق لنا القول لاسيما لأهل الشريعة اذ ماخذ الأحكام الشرعية كلها من الكتاب والسنة وهي لغة العرب والناقلون للشريعة هم الصحابة والتابعون وهم عرب وشرح مشكلات الشريعة من لغاتهم فالمحافظة على اللغة العربية من أوجب الواجبات وطريق المحافظة عليها هي الكتابة وهي فضيلة من الفضائل ومما يدل على فضلها قوله صلى الله عليه وسلم: قيدوا العلم بالكتابة. فضلا عن أن بقاء الأمة بقاء لغتها والتاريخ أكبر شاهد على ما نقول



أما الخط المسند فهو قديم العهد ولا يعلم من أثره إلا أنه خط حمير ويظنُّ البعض أنه عن الخط الفنيقي ولعله مأخوذ عن خطوط أهل الهند القديمة لأنه كثيرا ما يشابهها وقد وجد أهل البحث من الحديثين آثار اللغة الحميرية منقوشة على عدة حجارة وعمد في جهات حضرموت وبلاد اليمن بالخط المسند المذكور وبعد مناوله قراءته بما يقاربه من الخطوط ثبت لهم أنها لغة قديمة جدا ومن مشابهتها اللغة العربية المعدنانية من جهة ولغة الحبش من جهة أخرى ولغة أهل مهرة أيضا جزموا بأنها هي لغة القبائل البائدة كعاد وشمود وطسم وجد يس التي سنثبت طرفا مما وصلنا عنها من الحديث وفي رواية أخرى ان العرب الشماليين تعلموا الكتابة من أهل الشام الذين هم أقرب السريان اليهم وان أهل الشام كانوا يستعملون اللغة السريانية في القرن الخامس أو السادس للميلاد الذي فيه بدأ العرب أن يكتبوا بالقلم الكوفي المتولد منه القلم النسخي الدارج اليوم وأن قبل القلم الكوفي كان اشتهر في اليمن من بلاد العرب قلم آخر متخذ من القلم السرياني

وذلك في الدولة المشهورة التي يقال لها الحميرية ويسمى علماء  
الفرنج هذا القلم القلم السبئي وبذلك حكم أصحاب هذا الرأي  
بأن الكتابة العربية مأخوذة من السريانية لا من اليونانية  
أو غيرها كما قال بعضهم أيضاً وبأن الحبشة في نحو ذلك  
الزمان تعلموا الكتابة من سريان الشام لأن حروف قلمهم  
تشبه الحروف السريانية شها شديدا

وقد ذهب آخرون الى أن الحبش تعلموا الكتابة من  
السريان لأرأسا ولكن بواسطة عرب اليمن وهم السبئيون  
والحميريون الذين جرت بينهم وبين الحبشة وقائع كثيرة في  
سالف الزمان لمجاورة بعضهم لبعض . فان قلم الحبشة شبيه  
بالقلم الحميري غاية الشبه حتى انه لما بدأ الافرنج في هذا  
القرن بالبحث عن الحجارة القديمة المكتوبة بهذا القلم الحميري  
الذي كان مجزولا لم يمكن علماءهم أن يفكوا قراءته إلا بمقابلته  
بالقلم الحبشي . وقد تطرف بعضهم فنسب اختراع الكتابة  
للسريانيين الشرقيين الذين يقال لهم الكلدان وهم الذين  
سبقوا في العمران والمدن سائر فروع الأمة السامية وفاقوا

عليهم جميعا وقال ان الذين جلبوا صناعة الكتابة الى اليونانيين  
وعلموهم اياها كانوا سريانين بلا شك وكذلك الالتيونيون  
تعلموا الكتابة منهم وأهل هذا المذهب يقولون ان لهم أدلة  
كثيرة على اثباته ليس هذا محل ايرادها وجاء في مجلة الهلال  
الاغرى: ان أصل الكتابة المعروفة الآن في العالم المتمدن نشأ  
في وادي النيل بشكل صور وهي المعروفة بالهير وغليفية ثم  
حوّلها الفينيقيون الى الحروف الهجائية وعلموها لليونان في  
القرن السادس عشر قبل الميلاد والاشوريين بعد ذلك بقليل  
وعرفت بالحرف الأرامي . ومن الحرف اليوناني القديم  
تولدت جميع الخطوط الافرنجية التي يكتب بها أهالي أوروبا  
وأمریکا وكثير من مستعمراتهما . ومن الحرف الأرامي  
تولدت الخطوط التي تكتب بها اللغات الشرقية وأكثرها  
انتشارا الخط العربي الذي يكتب به أكثر أهل آسيا  
وأفريقية فيمتد من أقاصي الهند شرقا الى أقصى بلاد صرا كش  
غربا ومن بلاد تركستان شمالا الى أداني زنجبار جنوبا .  
وانتشار الخط العربي على هذه الصورة حجة دامغة على

امتداد فتوحات العرب في صدر الإسلام . وكان العرب يكتبون على قطع العظام أو الخشب أو الأحجار أو سعف النخل وما شاكل ذلك وربما كتبوا على البردي أيضاً حتى اصطنعوا الكاغد في أوائل الدولة العباسية

صناعة العرب في الجاهلية — كان العرب في الجاهلية

يعرفون الذهب والفضة والنحاس والحديد ويستعملون منها حلياً واوراني ورماحاً ودروعاً وسيوفاً وأدوات أخرى كثيرة وكانوا يصنعون المآكل والمشروبات والخمور وينسجون الملابس والمنسوجات من الحرير والقطن والكتان وكانوا يغزلون خيامهم وخبائهم من صوف الشاة ووبر الابل والفسطاط من شعر المعزى والسرادق من القطن ويصطنعون البيوت من اللبن والاجر والحجارة . ويقولون إن أكثر هذه الصناعات تعلمها العرب من مجاورينهم كالفرس والهند والمصريين كما نقلوا عنهم أيضاً السمور والسنجاب والقاقم والفتك والدلق والديباج والسندس والاستبرق ودليلهم على ذلك أن أغلب هذه الاسماء اعجمي على ما أثبتته أئمة اللغة وليس

بدعا ان يكون قد علق في بعض الاقطار المتحضرة شئ من  
الصناعات المأخوذة عن الجوار . وكانوا يصيغون حايا من  
الؤلؤ والمرجان والاحجار الكريمة المعروفة عندهم وكذلك  
كان عندهم من الصناعات ما يفى بحاجياتهم كلها

**التجارة في الجاهلية** - بقي علينا ان نبحث في تجارة القوم  
وشأنهم في الحضارة فانا نعلم من التاريخ ان تجار العرب كانوا  
يتجرون مع مصر والحبشة والهند وفارس وفينيقية على أن شأن  
العرب من البداوة البحتة واقتصار معظمهم على اتجاع العيش  
الفطري يكاد ينقض تلك الرواية التاريخية لولا اتفاق المؤرخين  
عليها مع اختلافهم جنسا ولغة. أما اللغة العربية فتصدق على  
مؤدى التاريخ لانها تحوى كثيراً من الكلمات الاعجمية وتلك  
لا يتأتى دخولها بين قوم إلا اذا واصلتهم بالتجارة وحسبك  
اثباتاً لذلك ان معظم تلك الكلمات تدل على شئ لم يكن ليعرف  
في العربية لولا الاتجار به . مثال ذلك الابريق والميزاب  
وامثالها فانها دخلت البلاد من الهند وكذلك النمسطاط  
والقرميد واشباهها اخذت عن اليونانية ولم نذكر الا كلمتين

من كل من اللغتين اكتفاء على ان في كتب اللغة من المعربات  
الشيء الكثير

أما العروض التجارية التي راجت سوقها بين العرب فقد  
ذكرها بعض المؤرخين حيث اعتبر ذلك بما ورد في سفر  
التكوين ص ٢٧ عدد ٢٥ من قوله « واذا قافلة اسماعيليين  
مقبلة من صلعاد وجمالهم حاملة كثيراء وبلسانا ولاذنا ذاهبين  
لينزلوا بها مصر » وبما ورد عن بليني المؤرخ الروماني المشهور  
من أن العرب كانوا يأخذون من مصر المنسوجات الكتابة  
ويجيئون اليها بحاصلات بلادهم. ويؤخذ مما قاله ثقات المؤرخين  
ان القبائل الساكنة بسواحل البحر الاحمر كانوا من اشهر  
التجار وان قوافل البلاد العربية كانت تنزل في العريش وان  
من أهم العروض التجارية عند العرب الطيوب والذهب  
والحجارة الثمينة والقرنفة والبن والصمغ واللبان والصبر والمر  
والقليل والحناء والعود وغيرها من العقاقير وانهم يستجلبون  
الكتان والقطن وبعض المعادن والرز والزيت والسكر الى  
غير ذلك وقيل ان الذهب كان وافراً جداً عند العرب حتى

ان السبئيين كانوا يموهون به جدران دورهم وأبوابها وسقوفها  
وكذلك الفضة والعقيق واللؤلؤ والمرجان ومعادن الرصاص  
وكانت مكة من اعظم مستودعات تجارة العرب تفد اليها  
الوفود للتجار والبيع والشراء كما كانوا يؤمنونها للحج والعبادة  
والتعاكظ وكذلك صنعاء اليمن كانت مركزا تجاريا مهماً في  
بلاد العرب

نقود العرب ومسكوطاتهم وموانئهم — كان العرب  
أولاً على نهج سائر الفطريين أي ان تجارتهم بدأت بالمقايضة  
ساعة بساعة ثم تدرجت الى الاقتصار على ثمن مسمى ولسنا  
على بينة من شأن ذلك الثمن قبل ظهور النقدين الكريمين  
أي الذهب والفضة فلما وجدنا شرع القوم يتعاملون بهما  
وزنا أي انهم لم يكونوا قد ضربوا السكة ولا اتبسوها بل  
أخذوا عن الجوار التعامل بالوزن باعتبار الدائق — وزن حبة من  
الحنطة — والدرهم — وزن خمسين دانقاً — والدينار — وزن مثقال  
غير ان المعاملة بالوزن لم تكن ذات أمد طويل لانهم استعوضوها  
بالسكة ولا يعرف أي النقد كان قديماً ولئن ذكر في كتب

اللغة ان الفليس اسم معاملة من النحاس قديمة العهد قليلة القيمة ويحظر لنا ان القوم ظلوا يتعاملون بالسكة النحاسية زمناً طويلاً أى حتى دانايم الروم وعاملوهم لانه ورد في تاريخ المشرق وآثاره ما يستدل منه على ان ملوك البرشين لم يضربوا من السكة الا الفضة ومثل ذلك فعل الفرس في عهد بنى ساسان فانهم لم يضربوا من الذهب الا بضع قطع لم يقصدوا بها أن تكون سكة تجارية وأما الذهب والفضة فكانا يعلوان ويهبطان بمثابة العروض التجارية

وجاء في كتاب النقود القديمة والاسلامية للمقرئى ان النقود التي كانت للناس على وجه الدهر على نوعين: السوداء الواغية والطبرية العتية. وهما غالب ما كان البشر يتعاملون به قالوا فية وهي البغاية هي دراهم نارس — الدرهم وزنه زنة المثقال الذهب — والدرهم الجواز تنقص في العشرة ثلاثة فكل سبعة بغاية عشرة بالجواز وكان لهم ايضاً دراهم تسمى جوراقية وكانت نقود العرب في الجاهلية الذهب والفضة لاغير ترد اليها من الممالك دنانير الذهب قيصرية من قبل الروم ودرهم



فضة على نوعين سوداء وافية وطبرية عتباء وكان وزن الدراهم والدنانير في الجاهلية مثل وزنها في الاسلام فترتين ويسمى المثلث من الفضة درهما ومن الذهب ديناراً. وكانوا يتبايعون بأوزان اصطالحوا عليها فيما بينهم وهو الرطل الذي هو اثنتا عشرة أوقية والأوقية هي أربعون درهماً فيكون الرطل ثمانين واربعاًة درهم والنص وهو نصف الأوقية حوتت صاهه شينا. فتيل نش وهو عشرون درهماً والنواة وهي خمسة دراهم والدرهم الطبري ثمانية دوانيق والدرهم البغلي أربعة وقيل بالعكس والدرهم الجوارقي أربعة دوانيق ونصف والدانق ثمان حبات وخمسا حبة من حبات الشعير المتوسطة التي لم تقشر وقد قطع من طرفها ما امتد. وكان الدينار يسمى لوزنه ديناراً وانما هو تبر ويسمى الدرهم لوزنه درهما وانما هو تبر وكانت زنة كل عشرة دراهم ستة مثاقيل والمثلث زنة اثنين وعشرين قيراطاً إلا حبة وهو ايضاً بزنة اثنتين وسبعين حبة شعير مما تقدم ذكره

وقيل ان المثلث منذ وضع لم يختلف في جاهلية ولا اسلام

ويقال ان الذي اخترع الوزن في الدهر الاول بدأه بوضع  
المشقال أولا فجعله ستين حبة زنة الحبة مائة من حب الخردل  
البرى المعتدل ثم ضرب صنجة بزنة مائة من حب الخردل  
وجعل بوزنها مع المائة حبة صنجة ثانية ثم ثالثة حتى بلغ  
مجموع الصنيج خمس صنجات فكانت صنجته نصف سدس  
مشقال ثم أضعف وزنها حتى صارت ثلث مشقال فركب منها  
نصف مشقال ثم مشقالا وعشرة وفوق ذلك فعلى هذا تكون  
زنة المشقال الواحد ستة آلاف حبة . ولما بعث الله نبينا محمدا  
صلى الله عليه وسلم أقر أهل مكة على ذلك كاه وقال: الميزان  
ميزان أهل مكة. وفي رواية ميزان المدينة. اهـ

## ﴿ الفصل الثاني ﴾

## طبقة العرب البائدة

عاد — نمود — طسم — جدیس وغيرهم

يريدون بالعرب البائدة كما قدمنا القبائل التي هلكت  
واندثرت أخبارها قبل الاسلام فهي عندهم تسع : عادون نمود  
وطسم وجدیس وأمیم وعبیل وعمليق وجرهم وجاسم وأشهرها  
الأربعة الأولى وأما أصل هذه القبائل فالتوراة لا تعرض  
لذكره وقد حاول بعض مفسريها تطبيق بعض الاسماء  
الواردة هناك على بعض اسمائها فلم يستطيعوا ذلك إلا بتكلف  
وتساهل فأراد بعضهم ان يجعل جرهما متخلفة عن هدورام  
بن يقطان وعادا متخلفة عن عادة امرأة عيسو وقس على ذلك  
مما لا يخرج عن حد الوهم على ان مطابقة الاسماء وحدها لا  
تؤيد قولا ولا تثبت أصلاً أما عمليق فإنها وردت في التوراة  
صريحاً وتدل على قبيلة الجبابرة والاراقة انما سموا بذلك نسبة  
الى اسماء ملوكهم فقد كان الملك منهم يسمى ارقم على أن قدماء

الجغرافيين ومنهم استرابون وبطليموس وغيرها ذكروا في كلامهم عن جزيرة العرب أسماء قبائل يمكن ردها الى بعض هذه القبائل بسهولة مثل (Thamudini) «ثموديني» فانها تدل على ثمود ويؤيد ذلك ان بطليموس جعل مساكنها على حدود بلاد العرب الصحريّة و (Jolisitai) «جوليسيتي» تدل على جديس بتكلف والغالب ان أصلها بالبدال بدل اللام وهذان الحرفان متشابهان الشكل في اليونانية. وبناء على غموض أصلهم وطمووس أخبارهم وسكوت التوراة عنهم تكاثرت الظنون وتضاربت الآراء فيهم فذهب كل من المؤرّخين المتأخرين مذهبا خالف فيه الآخرون فزعم كوسين دي برسفال ان معظم العرب البائدة من نسل حام وكذلك العالم الفرنسي ديربلوت أخذ بهذا الظن في كتابه الذي نشره في اواخر القرن السابع عشر الميلادي وسماه المكتبة الشرقية وكذلك المؤرّخ رينان. وظن آخرون انهم من نسل قحطان وزعم غيرهم انهم من نسل ارام بن سام وأقر جماعة بغموض ذلك الاصل واشكاله ولم يتكلموا في شأنه أما مؤرخو العرب

فيقولون ان العرب البائدة من نسل سام وذكروا ان بعض تلك القبائل ترجع الى لاد بن سام وهم يسمونه لاوذ وبعضها يرجع الى ارام بن سام ويسمونه ارم . ولندكر طرفاً من ذكر القبائل الاربعة التي وصلتنا أخبارها من القرآن الشريف أو من أشعار العرب فنقول :

قوم عاد — ان عادا الذي نسبت اليه أمته هو إرم بن سام ابن نوح وكان قومه في نهاية من طول الاجسام وعظمتها وكانوا أشد الناس بطشاً ومواطنهم ببلاد الاحقاف شيدوا بها أبنية شاهقة مما يدل على حضارتهم ومدنيتهم ثم فسقوا وبطروا بأنهم الله عابدهم وأشركوا به فأرسل اليهم أخاهم هودا نبيا ورسولا فوعظهم وخوفهم من عذاب الله ودعاهم للتوحيد فلم يؤمن به الا التليل . قال الله تعالى : « والى عاد أخاهم هودا . قال : يا قوم اعبدوا الله ما لكم من إله غيره أفلا تتقون . قال الملائكة الذين كفروا من قومه : إنا لنراك في سفاهة وإنا لنظنك من الكاذبين . قال يا قوم ليس بي سفاهة ولكني رسول من رب العالمين أبلغكم رسالة ربي وأنا لكم ناصح

أمين أو عجيبتم أن جاءكم ذكر من ربكم على رجل منكم لينذركم؟  
واذ کروا اذ جعلكم خلفاء من بعد قوم نوح وزادكم في الخلق  
بسطة فاذا کروا آلاء الله لعلكم تفلحون. قالوا: أجبئنا لنعبد  
الله وحده ونذر ما كان يعبد آباؤنا ذاتنا بما تعبدنا ان كنت  
من الصادقين. قال: قد وقع عليكم من ربكم رجس وغضب  
أبجادلوني في أسماء سميتموها أتم وآباؤكم ما أنزل الله بها  
من سلطان؟ فانتظروا انى مغم من المنتظرين. فأتجيناها والذين  
معه برحمة منا وقطعنا دابر الذين كذبوا بآياتنا وما كانوا  
مؤمنين « بأن سنخر عليهم ريحاً سبع ليال وثمانية أيام حسوما  
فترى القوم فيها صرعى كأنهم أعجاز نخل خاوية وقال أيضاً:  
« ألم تر كيف فعل ربك بغاد إرم ذات العماد التي لم يخلق مثلها  
في البلاد وشمود الذين جابوا الصخر بالواد وفرعون ذى الاوتاد  
الذين طغوا في البلاد ذاكثروا فيها الفساد فصب عليهم ربك  
سوط عذاب ان ربك لبالمرصاد » وقال تعالى: « ذأما عاد  
فاستكبروا في الارض بغير حق وقالوا من أشد منا قوة؟ ألم  
يروا أن الله الذى خلقهم هو أشد منهم قوة! »

وبقي من آمن بهود من قوم عاد متصلاً ببلاد اليمن الى  
 أن غلبهم عايبا يعرب بن قحطان وطردهم منها فنزلوا بجبال الشحر  
 كما سيجيء. والى عاد تنسب العرب المباني الشاهقة التي توجد  
 بقاياها وآثارها في جنوب جزيرة العرب ويقولون ان من بقي  
 من قوم هود حكم فيهم من بعده رجل ممن آمن به اسمه لقمان  
 مدة طويلة وأقاموا بالقرب من سبأ وبنو اسد العرم (١)

(١) العرم كان سدا يعترض به الوادي لحبس المياه مبنياً من  
 القدم حسب بعض الروايات وقيل بناء بنو عاد في واد من أودية  
 بلاد اليمن بالقرب من مأرب ولم تزل آثاره الى الآن والقصد منه  
 حبس الماء في قسم من الوادي ثم تفريقه على جهتيه وورد أنه قبل  
 حادثة السيل التي سيأتي ذكرها رأى عمرو مزريقاء بن عامر بن  
 حارثة—وهو ماء السماء جد الاوس والخزرج— في منامه سيل العرم  
 فهاب ما رأى وأشفق من الهلكة فأمر رجلاً من بنيه اذا هو جلس  
 في المجلس ان ينازعه الحديث ثم يسبه ويلطمه ففعل ذلك فقام عمرو  
 كهيئة المفضب فخلف ليقطن ابنه ذلك فلما سمع قومه قوله قاموا  
 اليه فكلموه فقال: «أما اذا تركته لكم فاني لا أسكن بأرض لطمت بها  
 فمن شاء منكم فليبتع مني مالي» وانما فعل ذلك حتى يبيع ماله خوفاً  
 مما رأى فلما سمعوا قوله قالوا اغتموا غصبة عمرو بن عامر فابتاعوا  
 ماله فلما صار ثمنه في يده تجهز وأخبر الناس بالسيل فلم يحفل اكثرهم

الى ان تغلب عليهم يعرب فبادوا في سنة ٧٥٠ تقريباً قبل المسيح على مارواه البعض والارجح بل الاصح أنه قبل ذلك بكثير قوم عمود — كان ملك عمود بين الشام والحجاز وبيوتهم الى وقتنا هذا منحوتة في الجبال بأبواب صغار ومساكنهم

بجبره فعند ذلك سير بنيه وأنزلهم وأقام من أراد الله ان يصيبه بالسيل وجمع عمرو سائر بنيه وقال: «لهم يابى انى علمت انكم ستفرقون من منزلكم هذا بعدى فمن كان منكم ذا حمل مغن وهم مدن وقرية وشن فليحق بأرض شن» ناحية بالسراة وهى الجبال المتصل بعضها ببعض بين تهامة واليمن» فزلها ازد شنودة. ومن كان ذا فاقة وفقير وصبر على أزمات الدهر فليحق ببطن مر» من نواحي مكة عنده يجتمع واديا النخلتين فيصيران وادياً واحداً» فسكنته خزاعة. ومن كان منكم يريد الحمر والحمير والامر والتأخير والديباج والحريز فليحق ببصرى وعوير» من أرض الشام» فسكنتها غسان. ومن كان منكم ذا هم بعيد وحمل شديد ومزاد حديد فليحق بقصر عمان الجديد فزله أزد عمان ومن كان يريد الراسخات فى الوحل المطعمات فى المحل فليحق بيثرب ذات النخل فقصدها الاوس والخزرج فزلوها وكان فيهم من قبلهم اليهود. وقد اختلف فى زمن وقوع هذه الحادثة اختلافاً كثيراً ويظهر أن أصحها أنها وقعت فى القرن الاول أو الثانى بعد الميلاد



على قدر مساكن أهل عصرنا وآثارهم بادية وذلك بطريق،  
 الحاج لمن ورد من الشام بمكان معروف بالحجر وكانوا في  
 أرغد عبث فكفروا وعشوا في الأرض مفسدين فباؤا بغضب  
 من الله وعذاب أليم ولما مر النبي صلى الله عليه وسلم على  
 مساكنهم قال لا يحجابه: « لا تدخلوا مساكن الذين ظلموا  
 أنفسهم إلا وأنتم باكون: أن يصيبكم ما أصاب هؤلاء التوم »  
 ولما طفوا أرسل الله لهم صالحا نبيا ورسولا فوعظهم ودعاهم  
 للتوحيد فلم يجبه منهم الا قليل مستضعفون وقالوا « يا صالح  
 قد كنت فينا مرجوا قبل هذا أتتهنا أن نعبد ما يعبد آباؤنا  
 واننا لنفي شك مما تدعونا اليه مريب » ثم ان كفارهم طلبوا  
 منه أن يأتيهم بآية فجاءهم بآية الناقة المذكور تفصيلها في القرآن  
 فعقروها ولم يؤمنوا ذأهلكهم الله بعد ثلاثة أيام بصيحة من السماء  
 فيها صوت كل ساعة فتتطعت قلوبهم ذأصبحوا في ديارهم جاثمين  
 وسار صالح الى فاسطين ثم انتقل الى الحجاز يعبد الله فيمن  
 بقى من قومه المؤمنين ومات بمكة ودفن بالحجر قال الله تعالى  
 « كذبت ثمود بطغواها اذا انبعث أشقاها فقال لهم رسول

الله : ناقة الله وسقياها فكذبوه وعقروها فدمدم عليهم ربهم  
بذنبيهم فسواها ولا يخاف عقباها » وقال أيضا « والى ثمود  
أخاهم صالحا قال ياتوم اعبدوا الله ما لكم من إله غيره قد  
جاءكم بينة من ربكم هذه ناقة الله لكم آية فذروها تأكل  
في أرض الله ولا تمسوها بسوء فيأخذكم عذاب أليم واذكروا  
اذ جعلكم خلقا من بعد عاد وبوأكم في الأرض تتخذون  
من سهولها قصورا وتتحتون الجبال بيوتا فاذكروا آلاء الله  
ولا تعثوا في الأرض مفسدين قال الملأ الذين استكبروا من  
قومه للذين استضعفوا لمن آمن منهم أتعلمون أن صالحا مرسل  
من ربه قالوا انا بما أرسل به مؤمنون قال الذين استكبروا انا  
بالذي آمنتم به كافرون فعتروا الناقة وعتوا عن أمر ربهم  
وقالوا يا صالح ائنا بما تعدنا ان كنت من المرسلين فأخذتهم  
الرجفة فأصبحوا في ديارهم جائمين فتولى عنهم وقال يا قوم  
لقد ابغتكم رسالة ربي ونصحت لكم ولكن لا تحبون  
الناصحين » وقال جل جلاله « ولقد أرسلنا الى ثمود أخاهم  
صالحا أن اعبدوا الله فاذا هم فريقان يختصمون قال يا قوم لم

تستعجلون بالسيئة قبل الحسنة لولا تستغفرون الله لعلم  
 ترحمون. قالوا أظيرنا بك وبمن معك. قال طأركم عند الله بل  
 أتم قوم تفتنون. وكان في المدينة تسعة رهط يفسدون في  
 الارض ولا يصلحون قالوا تقاسموا بالله لنبيتنه وأهله ثم  
 لنقولن لوليه ما شهدنا مهلك أهله وأنا لصادقون. ومكروا  
 مكراً ومكرنا مكراً وهم لا يشعرون. فانظر كيف كان عاقبة  
 مكروهم: أنا دمرناهم وقومهم أجمعين فتلك بيوتهم خاوية بما  
 ظلموا: ان في ذلك لآية لقوم يعلدون وأنجينا الذين آمنوا  
 وكانوا يتقون «

طسم وهديس — كانت مساكن هاتين القبيلتين في  
 اليمامة والملك عليهم من طسم واستمروا على ذلك مدة من  
 الزمان حتى انتهى الملك من طسم الى رجل غشوم يقال له  
 عملاق وكان ظلوماً سام جديساً سائر أنواع القهر والغلبة  
 زمناً طويلاً. ومن منكراته أنه أمر أن لا تزف بكر من  
 جديس الى بعلها حتى يدخل هو عليها ويفض بكارتها قبل  
 زوجها « كما كانت هذه العادة جارية بالبلاد الاوروبية. لغاية

القرن العاشر المسيحي» (١) فلقوا من ذلك ذلا طويلا وبلاء عظيما ولم تنزل حالتهم على ذلك حتى تزوجت امرأة من جدليس يقال لها عفيرة وهي أخت الاسود بن غفار رئيس جدليس فلما كان ليلة زفافها الى زوجها انطلقوا بها الى عملاق الملك حسب العادة ومعها القينات يغنين ويقلن .

ابدئي بعملوق وقومي فاركي وبادري الصبح بأمر معجب  
فما بكر بعدكم من مذهب

فلما دخلت عفيرة على عملاق افتضها وخلي سبيلها فخرجت على قومها في دملها شاقة جيها من أمامها ومن خلفها وهي تقول

لا أحد أذل من جدليس أهكذا يفعل بالعروس  
وقالت تحرض قومها من جدليس على طسم وأبت ان  
تمضى الى بيت بعلا

أصلح ما يؤتى الى فتياتكم وأتم رجال فيكم عدد النمل  
وتصبح تمشي في الدماء عفيرة جهارا وزفت في النساء الى بعلا

(١) انظر كلمة droit de jambage في قاموس Poittevin

فلو أننا كنا رجالا وكنتم نساء لكاننا لا نقر لهذا الفعل  
 فموتوا كما أميتوا أعدوكم وأوروا النار الجرب بالحطب الجزل  
 والا نخلوا بطنها وتحملوا إلى بلد قفر وموتوا من الهزل  
 فالبين خير من مقام على الأذى وللموت خير من مقام على الذل  
 وإن أتم لم تفضبوا بعد هذه فكونوا نساء لا تعيب من الكحل  
 ودونكم طيب النساء فإنا خلةتم لأثواب العروس وللغسل  
 فبعدا وسحقا للذي ليس دافعا ويختال يمشى بيننا مشية الفحل  
 فلما سمع القوم ذلك وأخوها الأسود معهم وقد عاينوا  
 ما هي فيه شبت في قلبه نار الغيرة والحمية وكان سيدا مطاعاً  
 في قومه الذين كانوا هم أيضاً ملوا الذل والجور ولا يخفى أن  
 الشدة والظلم يولدان في الأفراد المتفرقة حب التآلف والاتحاد  
 ويوقدان في أفئدة الأمم المقهورة المغلوبة نار الانتقام ويحملان  
 على النزوع لطلب الاستقلال والحرية ورفع الضير  
 فلا يقيم على ضيم يراد به إلا الأذلان غير الحى والوئد  
 نعم قد توجد ظروف قهر توجب الامتثال والطاعة  
 ولكن إذا بلغ السيل الربى وطفح الآناء مالت القلوب إلى

الالفة وتآقت للتخلص من شدائد الملل وأجمعت على الاتحاد قلبا وقالبا وعمدت الى الفعل لما فيه الحثف أو الخلاص بالمرّة وكان الاسود يعلم من قومه الشعور بمثل هذا الاحساس فظن ان الفرصة مناسبة للتخلص من نير حكم طسم الجائر وحينئذ ظهر الظاهر فجمعهم وقال لهم: «يا معشر جديس قد رأيتم ما نحن فيه من الذل والعار الذي ينبغي أن تعافه الكلاب وأن هؤلاء القوم ليسوا بأعز منكم في داركم الا بملك صناحبهم وتغلبه وقهره ولولا عجزنا لما كان فينا فأطيعوني لتنالوا عز الدهر.» فقالوا الى م تشير علينا لتقتفيه ولا تقف لك فيه. قال: نصنع للملك وقومه طعاما ونجعله بظاهر البلد وندفن سيوفنا في الرمل وندعوهم الى أكل الطعام فاذا جاؤا أعملنا سيوفنا فيهم وأفئدناهم عن آخرهم. وكان كذلك فانه لما حضر الملك في خواصه من طسم أفنوم بالطريقة المتقدمة ولم يفلت منهم الا رجل واحد يدعى رباح بن مرة فأتى حسان بن تبع ملك اليمن اذ ذاك واستنصره وشكا ما فعله جديس بملكهم فأجابه حسان ونهض معه بقومه قاصدين جديسا للاخذ بثأر طسم

فلما كانوا على ثلاثة مراحل من منازل القوم قال لهم رباح: ان لي أختا مزوجة في جديس وانها لتبصر الراكب من ثلاث مراحل واخاف ان تبصركم فليأخذ كل رجل منكم بشجرة صغيرة فيجعلها في يده ويسير خلفها. ففعلوا وقد أبصرت بهم زرقاء اليمامة—أخت رباح—فقالت لقوم جديس: لقد سار اليكم الشجر. فقالوا لها ما ذاك؟ قالت: اشجار تسير ووراءها شيء كثير واني لا اري رجلا من وراء شجرة ينهش كتفا أو يخصف نعلا. فكذبوها وغفلوا عن أخذ أهبة الحرب فانشأت تقول

اني أرى شجرا من خلفها بشر فكيف تجتمع الاشجار والبشر  
 ثوروا باجمعكم في وجه أولهم فان ذلك منكم فاعلموا ظفر  
 فلم يسمعوا لها كلاما وعدوه حديث خرافة حتى فاجأهم  
 حسان وقومه ووثب عليهم واستباحهم قتلا وسبي نساءهم  
 وصبيانهم وابداهم وخرب ديارهم وحصونهم وهرب الاسود  
 بن غفار فنزل بجبل طيء حتى قضى فيها نحبه ولم يعقب. ولما  
 فرغ حسان من حربه لتلك القبيلة طلب زرقاء اليمامة أخت

وباح وامر بقلع عينها فلما قلعت وجد بها عروقا سودا زعمت  
ان ذلك من كثرة اکتجالها بالاثمد وخلي سبيلها ولم تقتل  
وكان بهذا الموضع صنوف الشجر والاعناب بحدائق ملتزمة  
وقصور مصطفة فاباد الله هذه الاشياء وأهلها وهكذا بادت  
الطبقة البائدة بظلم أهلها وافسادهم واثمهم وعدوانهم ولا غرو  
فالظلم مرتعه وخيم ولا تدوم معه دولة

الشر مصراع له سطوة يستنزل الجبار عن عرشه  
وأنت ان لم ترج أو تتقى كالميت محمولا على نعشه  
لا تنبش الشر نتبلى به فقاما تسلما من نبشه  
اذا طنى الكبش بلحم البكى أدرج رأس الكبش فى كرشه  
ونابش الموتى له ساءة نأخذه أنبش من نبشه  
لله فى قدرته خاتم تجرى المقادير على نقشه

وكما استحق طسم الهلاك لظلمهم استحقته جدليس  
أيضا لغفاتهم وعدم تدبرهم فكأنهم طمس على سمعهم  
وبصرهم فلم يقبلوا من الزرقاء نصحا ولم يستمعوا لها قولا فما  
لبثوا ان حل بهم الهلاك من كل صوب وبادوا . وقال زوج



الزرقاء — وكانت تلقب بحذام —  
ولولا المزعجات من الليالى . لما ترك القطاطيب المنام  
إذا قالت حذام فصدقوها فان القول ما قالت حذام  
ولكن ماذا يفيد الندم وقد زلت القدم فسبحان من  
يرث الارض ومن عليها  
وأما بقية القبائل البائدة فمنها اميم: سكنت بادية ابارزونا  
ويحد هذه البادية عمان من الشرق ومهرة او الشحر من  
الجنوب والاحقاف من الغرب واليهامة من الشمال . وعييل:  
سكنت موضع يثرب ثم اخرجهم منها العماليق فنزلوا موضع  
الحجفة بين مكة والمدينة . وعماليق وهي قبائل عديدة عرفت  
بالعمالة سكن بعضها ارض الحجاز وتهامة وهي قبائل بنى ليف  
وبنى سعد وبنى مطر وبنى الارق وبنى عبد ضخم وسكن  
بعضها نجد! وهي قبائل بديل وغفار وسكن بعضها البلاد  
الصخرية (Arabie Pétrée) في شمالي جزيرة العرب وهي  
قبيلة بنى هومر بن عمليق وسكن بعضها في عمان وهي جاسم  
المتقدم ذكرها في أول هذا الفصل وسكن آخرون في تيماء

والحجاز وهم بنو الأرقم وسكن آخرون في فلسطين وجوارها  
وهم عمالة التوراة يقال لهم الجبابرة ومنهم جليات المشهور  
وأما جرهم فمنها قبيلتان: جرهم الأولى يقولون أنها كانت  
على عهد عاد فبادت واندرست أخبارها وكان لسامها العبرانية  
وأما الثانية فسكنت حوالي مكة والحجاز ومنهم تزوج اسماعيل  
عليه السلام كما سيجيء وبالجملة فإن العرب البائدة معظمهم من  
العمالة من نسل لاوذ أولود بن سام وبعضهم من نسل  
أرم بن سام وقد خرجوا من بين النهرين قبل زمن إبراهيم  
عليه السلام وأقاموا في أعلى جزيرة العرب وتفرقوا فيها  
جنوباً وغرباً وما بينهما . ومما لا يحسن التغاضي عنه أن العرب  
البائدة يسمون أيضاً في بعض كتب التواريخ العرب العاربة .  
ذكر بن خلدون وغيره أنهم سموا بذلك من الرساخة في  
العروبة كما يقال ليل أليل أو بمعنى الفاعلية للعروبة ولكن  
الطبري يقول أن تخليق جد العمالة يسمى « عريب » فلعل  
العرب البائدة سموا أولاً عريبيه ثم عاربه .

## ﴿ الفصل الثالث ﴾

( طبقة العرب الباقية )



## العرب المتعربة

تمهيد — ملوك اليمن قبل سيل العرم . اليمن بعده . استيلاء الحبشة على اليمن — ملك الحبشة على اليمن . استيلاء الفرس على اليمن — مملكة العراق وملوك الحيرة من سنة ٢١٠ لسنة ٦٣٤ مسيحية — ملوك بني غسان — ملوك كندة — ملوك متزاتون بجزيرة العرب .

تمهيد — سبق القول ان عرب هذه الطبقة ترجع كلها الى قحطان والى عدنان ولد اسماعيل عليه السلام وان كلا من قحطان وعدنان كما انهم متحدون في النسب متحدون في الطبائع والعادات اما تاريخهم فينقسم الى عصرين عظيمين اولهما تاريخ بلادهم واكثره مأخوذ عما يروى من اعمال ابطالهم وثانيهما تاريخ الامة العربية في بلادها وفي غيرها مما حصل فتحه على ايديها وما استوطنته من البلاد التي أسست فيها ممالكها العظيمة فهو لذلك بمقام من الالهية في تاريخ الامم والحد الفاصل بين هذين العصرين العظيمين هو بدء

## البعثة النبوية المحمدية

ولنبداً بالقحطانيين من هذه الطبقة وهم العرب العاربة أو المتعربة حسبما يسميهم بعض المؤرخين وقد سموا بذلك لاتخاذهم اللسان العربي عن الطبقة البائدة التي يسميها بعضهم كما سبق القول العرب العاربة فقد جاؤا جزيرة العرب والعرب البائدة في ابان سطوتهم فقتضوا زمنا طويلا تحت حياطتهم وكان بنو قحطان يتكلمون باللسان الكلداني وهو لسان اهل العراق الاصليين فتعلموا العربي من العرب العاربة . والقحطانية سكنوا جنوبي بلاد العرب خصوصا اليمن ويسميهم ابن خلدون وغيره باليمينة السبئية . ويتبع القحطانية عرب الحيرة وغمسان وكندة والنبط والاوز والخزرج وغيرهم وسيأتي ذكرهم فيما بعد . ولدولة اليمن دوران مهمان ينتهي الاول بسنيل العرم وهو سيل هدم السد السابق الذي ورد ذكره في القرآن الشريف ويتخلل الدور الثاني انتقال الملك من ملوك اليمن لاجبشة ثم للفرس ثم للاسلام

ملوك اليمن قبل سيل العرم - أول من ملك منهم

قحطان بن عابر جد العرب العاربة

وسبق لنا القول عند ذكر قوم عاد من الطبقة البائدة  
انه قد بقي منهم بقية تغلب عليها بنو قحطان المذكور وطردهم  
الى جبال الشحر وكان بنو قحطان نزولا ببلاد اليمن ولما مات  
قحطان ملك ابنه يعرب اليمن وتغلب على الحجاز وولى أخاه  
جرهما عليها وبنو جرهم المذكور هم الذين صاهروا اسماعيل  
عليه السلام وكان منهم العرب المستعربة كما سيجيء ذكر  
ذلك في الباب الثاني. وكذلك ولى أولاده على الشحر وعمان  
وفي عهده عظم شأن اليمن واتسع نطاقه وهو أول من حياه قومه  
بتحية الملك — وهي أبيت اللعن — وكان الجاهلية لا يخاطبون  
غير الملك بهذه التحية حتى أن احدهم اذا تولى الامارة والملك  
قيل فلان نال التحية. ومعنى أبيت اللعن أى أبيت أن تفعل  
فعلا تلغن عليه. ويعرب المذكور هو أول من اختط المدن في  
بلاد العرب ومن بنيه التبابعة — ملوك اليمن — والغساسنة — ولاة  
الروم على الشام — والمناذرة — ولاة الفرس على الحيرة — وقيل ان  
يعرب المذكور هو أول من نطق بالعربية وكان من الفصاحة

والبلاغة بمكان وهو الذي قال عنه حسان بن ثابت  
تعلمتم من منطق الشيخ يعرب أينا فصرتم معريين ذوى نفر  
وكنتم تديما ما لكم غير عجمة كلام وكنتم كالبهائم فى الفقر  
وقيل أنه لما حضر يعرب الوفاة دعا بنديه ووصاهم بقول  
كأنه حكم وآيات باهرات تدل على كرم اخلاقه وسعة اطلاعه  
وسياسته فى ملكه وهو « اوصيكم يا بنى بحسن السيرة  
والسلوك بين الرعية وأن تتعلموا العلم وتعملوا به. واركبوا  
الحسد عنكم ولا تلتعنوا اليه فانه داعية القطيعة بينكم وتجنبوا  
الشر وأهله فان الشر جالب للشر وانصفوا الناس من أنفسكم  
فانهم ينصفونكم من أنفسهم واجتنبوا الكبرياء فانها تبعد  
قلوب الرجال عنكم وعليكم بالتواضع فانه يقربكم من الناس  
ويحببكم اليهم واذا استشاركم احد فاشيروا عليه بما تشيرون  
به على أنفسكم فى مثل ما استشاركم فيه فانها امانة قد ألقاها  
فى اعناقكم » تلك وصية جمعت من آداب السياسة والحكم  
فى كلمات صغيرة ما لو تمسكت به أمة ما لحقها ضيم ولا  
اندرست لها معالم ولا هوت لها دولة وهنى توافق كل زمان

ومكان وما أحوالنا نحن معشر الشرقيين الآن لا تباع هذه  
النصائح والعمل بموجبها خصوصاً ونحن في زمن فضلا عن اننا  
فيه متفرقون متناطعون نرى الايدي الاجنبية تعمل بكل  
جهد ضد تآلفنا واتحادنا

ولما مات يعرب ملك بعده ابنه يشجب وكان واهى  
العزيمة ضعيف النفس. وبموته خلفه ابنه عبد شمس ويلقب  
بسباً لانه لما أكثر من الغزو في أقطار البلاد وسي خلقاً  
كثيراً لقب بذلك وهو اول من سنّ السبي في العرب وبني  
مدينة سبأ وكان له من الولد كثيرون أشهرهم حمير وكريلان  
الذان تشعبت منهما قبائل اليمن وصار الملك ينتقل في بنيتهم  
ولقبوا بالتبابعة لانهم كانوا كلنا مات منهم واحد قام آخر  
تابعاً له في سيرته. ومن التبابعة المذكورين شرحبيل وكان  
عادلاً شجاعاً بنى قصر غمدان في ظاهر صنعاء وهو قصر  
عظيم رفيع البناء وأبدع فيه من الخزاف والصنائع الغريبة  
وكان يسكن شرحبيل بمأرب فلما بنى هذا القصر انتقل اليه وصار  
دار الملك من بعده للملوك اليمن ثم لما مات ملك بعده ولده

الهدهاد وكان يجب الملاحى والتنم ولما مات ولم يعقب تولى ابن اخيه مالك وكان فاحشا فاسقا خيثا لا يبلغه عن بنت ذات جمال الا أحضرها وفضحها حتى اتى بنت عمه بلةيس فى قصرها وكانت أعدت له رجلين وأمرتهما بقتله اذا دخل عليها وانفرد بها فصدعا بالامر وقتلاه فأحضرت وزواءه وأصدقهم الخبر قائلة: أما كان فيكم من يأنف لكريمته وكرام عشيرته؟ وأرتهم اياه قتيلا وفوضت لهم ان يختاروا رجلا يملكونه عليهم فقالوا لا نرضى بغيرك وملكوها وهى التى ورد ذكرها فى القرآن الكريم فى سورة النمل وكانت فى عهد سليمان عليه السلام فى القرن العاشر قبل الميلاد تقريبا وكان هذا هو سبب توليها الملك اذ كانت العرب تأنف من تملك النساء حتى ان الهدهد لما جاء سليمان ظن أنه آتاه من سبأ نبأ غريب لم يكن مألوفا عادة عندهم وذلك انه رأى امرأة تحكم رجالا ولكن فاته أن المرأة التى رآها كانت خيرا منهم اذ ازاحت عنهم عارا كانوا له متحملين وبلاء كانوا عليه مصطبرين. قد آتأها الله لهم فخلصتهم واستحقت



بذلك الامارة والسيادة عليهم واستمر الحال في اليمن على هذا المنوال مدة : كلمات ملك تولى آخر . وكانت اليمن ذات اشجار وثمار هواؤها حسن وعماراتها شاهقة كثيرة مما يدل على أن الحضارة كانت بلغت تصارها فيها وكانت المرأة منهم اذا ارادت أن تجني شيئاً من الثمر وضعت مكتلها على رأسها وخرجت تمشي تحت الاشجار وهي تغزل أو تعمل ما شاءت فلا ترجع حتى تملأ مكتلها من الثمار التي تتساقط عاينها وكانوا لا يرون سواً لحسن هوائها وكان شجرهم ممتداً من اليمن الى الشام يبيتون بقرية ويقبلون بأخرى ذات مياه وأشجار لا يحتاجون الى حمل زاد ثم انهم بطروا نعمة ربهم وسثموا الراحة وكان انعام ملوكهم الاخيرين في الترف والملاذ والملاهي سبباً في خور عزائمهم ومقدمة لضياح الملك من أيديهم فسألوا ربهم أن يباعد بينهم وبين اسفارهم ويجعل بينهم وبين الشام فلوات ومفاوز يركبون فيها الرواحل ويتزودون فيها الازواد وكانوا يعبدون غير الله ويظلمون فسلط الله عليهم سنيل العرم فخرّب عمائرهم وبساتينهم وهذه عاقبة

المترفين المكذبين قال الله تعالى « لقد كان لسبأ في مسكنهم آية: جنتان عن يمين وشمال كلوا من رزق ربكم واشكروا له بلدة طيبة ورب غفور. فأعرضوا. فأرسلنا عليهم سيل العرم وبدّلناهم بجنتيهم جنتين ذواتى أكل خمط وأثل وشيء من سدر قليل ذلك جزيناهم بما كفروا وهل يجازى إلا الكفور وجعلنا بينهم وبين القرى التى باركنا فيها قرى ظاهرة وقدرنا فيها السير سيروا فيها ليالى وإياما آمنين فقالوا ربنا باعد بيننا وبينهم أنسفارنا وظلموا أنفسهم فجعلناهم أحاديث ومنزقناهم كل ممزق ان فى ذلك لآيات لكل صبار شكور »

ولما أرسل الله سيل العرم ورأى الناس الذين سلموا منه أن بيوتهم هدمت وأراضيتهم تلفت وانعامهم هلكت ولم يبق لهم أمل فى الحصول على المياه فيما يأتى من السنين هاجر بعضهم من بنى نخم الى الحيرة والانبار على مقربة من نهر الفرات وعرفوا بالناذرة وصاروا ملوكا على العراق وكانت دولتهم من اعظم دول ملوك العرب ومقاهم بأرض الحيرة وسنأتى على طرف من ذكرهم وهاجرت جماعة من

بنى قحطان من قبيلتين يقال لهما الأوس والخزرج وتملكوا حوران والباقاء ونزلوا على ماء بقرب دمشق يقال له غسان فاشتهروا به حتى غلب اسمه عليهم فقبل لهم آل غسان ثم تغلبوا على الشام وسيأتى ذكرهم أيضاً وهاجر بعض من بنى قحطان واسسوا ممالك صغيرة داخل الجزيرة كالكنديين وكانت مملكتهم نجد وغيرها مما سند ذكر بعضها منها وكان هذا هو السبب فيما ذكره أهل التاريخ بعد هذا السيل مما يتعلق بوجود بعض قبائل قحطانية فى الجهات الشمالية التى هى وطن العرب المستعربة — أى العدنانيين — مع أن اصل مركزها كما مر ببلاد الجزيرة جنوباً

مملكة اليمن بعد السيل — استمر بنو قحطان يملكون فى من بقى باليمن من اليمنيين بعد السيل واخطوا المدن وشيدوا المباني وغزا بعضهم البلاد المجاورة فكان منهم الملك شمر يرعش وهو من أشد ملوك العرب عنيزة واعلام همة واقوام جاشا: يقولون انه غزا بلاد العراق ثم ارتحل عنها طالباً بلاد الصين وجعل طريقه على بلاد فارس فدوخوا

وهدم كثيرا من المدائن والمعقل ودخل مدينة السغد فخر بها  
ولذا قيل لها بالفارسية شمر كند اي شمر خربها ثم أعيد  
بناؤها فبقي عليها ذلك الاسم لكنهم تصرفوا فيه فقالوا  
سمرقند . ولما استخلص بلاد فارس سار منها طالبا بلاد  
الصين — وقد انكر العلامة بن خلدون خبر وصوله الى الصين —  
فلما بلغ ملكها خبر قدومه ارتاع فقال له وزيره — وكان محبا  
لوطنه غيورا على مصالحه يفديه بنفسه اذ كانت مجتمعة فيه  
صفات الوزير الحقيقية — : *أنا فدى المملكة بنفسى واكفيك شر  
هؤلاء القوم المعتدين . فجدع الوزير مارن انفه بكفه وقصد  
شمر يرعش وشكى اليه ظلم الملك له وقال : قد فعل بي  
ما ترى بغير جناية تستحق ذلك وخشيت ان يقتلنى  
فخرجت اليك هاربا . وارجو أن يكون افتتاح هذه المملكة  
على يدي فسر معى وانا ضمين لك بذلك . فاعتز شمر يرعش  
بما رآه من جدع انفه وانصاع لقوله وانخدع له فنهض بجيشه  
والوزير يتقدمهم فى تلك المفاوز والتقفار حتى دخل بهم فى  
فلوات معطشة ولا سبيل للماء فيها حتى امانتهم وهلكوا جميعا*

وهلك شمر يرعش وكفى الله الصين القتال، فياها من وطنية  
صادقة واحساس شريف من وزير بمثله تحفظ البلاد ولاعجب  
فيمثل هؤلاء الرجال وبمثل تلك الاعمال تدوم الدول وتسود  
كما انه يمثل طمع شمر وغفلته تدرس الممالك وتزول معالمها  
فلكل عمل جزاء من جنسه : تلك سنة الله في خلقه من القدم  
للآن فما أخلص قوم في خدمة بلادهم الا سادوا وسادت  
وارتفعت وحفظ لهم الذكر الجميل والاحدوثة الحسنة . وما  
أحرى بدوله الصين في أن يكون لها الآن مثل هذا الوزير  
حتى تتخلص من طمع دول أوروبا الاشعبي .

وبعد ان مات شمر يرعش قام ولده ابو مالك بالملك  
بعده وعزم على المسير الى بلاد الصين للاخذ بثأر أبيه الذي  
ذهب فريسة الطمع والغفلة فبلغه خبر وجود معدن من  
الزمرد في بلاد المغرب فطمع فيه ونسى ثأر أبيه وسار بجيش  
كثير طالباً ذلك المعدن فادر كته المنية في الطريق ومات جمع  
عظيم من عسكره شهداء طمع ماكهم الذي كان هو وأبوه  
في غنى عن هذه المطامع ولهم في بلادهم من الخيرات والثروة

ما أطمع الأجنب فيها وهم عنها لاهون وهكذا صار الملك  
 ينتقل من واحد لآخر من بني قحطان وكان منهم الظالم والعاقل  
 والشهم وضعيف العزيمة والمحجوب عند رعيته والمذموم لديها  
 فمنهم حسان بن تبع قيل انه هو الذي انتصر لطسم من جدليس  
 وأذاقهم كأس الردى وكانوا قتلوا اباهم فجعل يتبع قاتليه ويقتلهم  
 حتى اتى على آخرهم فكرهوه وكان يدين بدين اليهود وسار  
 بمن معه من عرب اليمن الى مدينة يثرب ثم قصد مكة و اراد  
 هدم الكعبة فمنعه من كان معه من أحبار اليهود فامتنع  
 وكساها البرد اليماني ثم أن قومه أجمعوا على ان يقتلوه لما  
 لحقهم من التعب والنصب وهو غير مكترث بهم كأنه راعى  
 ابل أو غم يقودها أنى شاء شقوا أو سعدوا فكلوا أخاه  
 عمرو بن تبع في قتله ووعدوه بالملك بعده ان قتله وكان هذا  
 الامر عن رأى الجميع ما عدا شخصا منهم يقال له ذورعين  
 لم يوافقهم عليه وهى عمرا عن قتل اخيه فلم يقبل منه فكتب  
 ذورعين شعرا فى صحيفة واودعها عند عمرو بن تبع يقول فيها  
 الا من يشترى سهرا بنوم سعيد من بيت قري عين

فأما حمير غدرت وخانت فمعدرة الاله لدى رعين  
فلما قتل عمرو واخاه حسانا واستولى على الملك بعده حسب  
اتفاق القوم استولى عليه الارق ومنع عنه النوم فشكا ذلك  
للاطباء والكهان والعرفان من العرب فقالوا له: « ياملك ما  
قتل رجل أخاه أو ذا رحم له باغياً الا سلط الله عليه السهر »  
وكانت هذه من معتقدات العرب وقد أشار إليها ذورعين في  
بيته فجعل عمرو يقتل كل من أشار عليه بقتل أخيه من رؤساء  
قومه وهم يقتل ذى رعين فذكره الشعر الذى اودعه اياه في  
الصحيفة فكانت فيه معذرتة ونجاته من القتل ثم ان الاسقام  
توالت عليه فكان لا يخرج الى الخلاء الا محمولاً على نعش  
فسمى بذى الاعواد لذلك وهو الذى أشار له احد الشعراء بقوله  
ولقد علمت سوي الذى نبأتى ان السبيل سبيل ذى الاعواد  
ثم دهنته المنية بدون ان يجمع بلذة الملك الذى حاول  
استعجاله ونسى بسببه حقوق الأخوة وحنان الشقيق  
وواجبات الانسان فلاقى جزاءه ونساء منقلبه ولا عجب فمن  
تعجل بشئ قبل اوانه عوقب عليه بحرمانه (١) وكذلك نضحائه

وما هم إلا نصحاء الشؤم قد جوزوا بما استحقوا بفعلتهم أما  
ذورعين فتبراً من عملهم ولم يخش تألبهم عليه وكان هو الوحيد  
في رأيه ضد الاجماع ولم يخف بطشهم ففضل المخاطرة بحياته  
دون تمحيض النصح وما عليه اذا لم ينفع فقد فعل الواجب  
عليه وقد عرف له ذلك فيما بعد حينما قام ذلك الذي لعب  
القوم بعقله حتى أوقعوه في الورطة يفتك بهم ففاز ذورعين  
حين نكل بأولئك المضايين تنكيلا. نعم ان حسانا تعدى وظلم

(١) ورد في التاريخ ذكر كثيرين ممن قتلوا آباءهم طمعاً في  
نوال الملك وكانت عاقبة ذلك وبالاعايبهم فمنهم شيرويه بن ابرويز قتل  
أباه فلم يتمتع بالملك بعده كذلك محمد المنتصر العباسي اذ قتل أباه  
المتوكل ليتولى الخلافة فلم يستقر له الملك حتى مات ويقولون أنه بعد  
ان جلس المنتصر على سرير الملك فرش له بساط لم ير مثله وعليه  
كتابة عجيبة بالفارسية فنظر اليه نظر استحسان واستحضر من يعرف  
بالفارسية وأمر بقراءتها فأحجم عن ترجمتها فقال المنتصر قل وما  
عليك بأس فقال مكتوب على هذا البساط « أنا شيرويه بن كسرى  
قاتل أبي فلم أتمتع بالملك بعده » فتطير المنتصر من ذلك ونهض من  
مجلسه غضبان فلم تتم له مدة شيرويه وهي ثمانية أشهر حتى مات  
فليتأمل الطامعون الغافلون ويتدبروا



حتى كرهته رعاياه كلها وسئمت حكمه وقامت بصوت واحد  
ضده وقد حصد ثمار ما زرع على حد قول الشاعر  
وما من يد الا يد الله فوقها وما من ظالم الا سيبلى بأظلم  
لكن ما كان ليجمال بأخيه أن يقتله بيديه طمعا في  
وراثته الملك من بعده لا انتصارا للمهضومين المقهورين  
ومن ملوك اليمن ايضا عندما أخذت شمس دواتها في  
الافول ذو الشنار — ومعناها الاقراط في لغة اليمن — وقيل  
له ذلك لانه كان يتحلى بها وكان فاسما خبيثا يأتي الاحداث من  
أبناء الملوك لثلا يملكوا وكانت عادة العرب في ذلك الزمان  
لا يملكون من يفعل به ذلك وبقي ذو الشنار على هذه السيرة  
الخبثية حتى سمع بسلام من أبناء الملوك الحميرية له صيت وجمال  
ياقب بذي ثواس — لا رساله ذوائب شعرة على ظهره — وكانوا  
ايضا يسمونه بيوسف الحسن لجماله فأرسل له رسولا من  
عنده ليستقدمه اليه فلما جاءه الرسول وبلغه رسالته عرف  
ما يريد فآخذ سنكينا وأخفاها بين نعله وقدمه فلما صار عنده  
ونحلا به وثب عليه فقتله واحتز رأسه ووضعها في مكان كان

الملك يشرف منه على حرسه من عبيده وجنده اذا قضى حاجته ويأمر الغلام بعد ذلك بان يخرج وهو واضع سواكا في فيه اشارة لما فعل به فلما قتل ذونواس الملك خرج على الحراس والسواك في فمه حسب العادة وانما فعل ذلك خوفاً من تعرض القوم له فلما رأوه على هذه الحالة قالوا له مستهزئين ساخرين: رطب أم يابس . فأجابهم ذونواس أن اسألوا الشيطان الخناس الذي في المشرفة فهو يخبركم بحاله وانشأ يقول

أساس الملك ويحكم رجال      اذا ما الملك ذل عن الاساس  
فكم من تاج ملك قد رأيتم      تنقل من أناس في أناس  
أطيعوا الرأس فيكم كي تسودوا      وهل جسد يسود بغير رأس  
فان الناس مثل الارض أرض      وان ملوكهم مثل الرواسي

فلما تحققوا من قتل ذي نواس لملكهم فرحوا به وملكوه أمرهم وهو صاحب الاخدود الذي دعا أهل اليمن الى اليهود وكان قد نزل يثرب مجتازا فأعجبتة اليهودية فتهود وتبعه أهل اليمن الا طوائف من حضر موت وعدن فغزاهم وقتلهم جميعاً ثم دعا العرب الى اليهودية فكان من لا يجيب دعوته يسير

اليه فيوقع به فشاع ذكره في سائر الاقاليم وعظمت شوكرته  
 وأطاعته العباد وكانوا يجيئون دعوته خوفاً من شدة نعمته  
 فكرهته أعيان حمير وحسدوه على الملك الذي هو فيه  
 وندموا على تملكه لما ظهر لهم منه فعزموا على خلع طاعته فلم  
 يخف عليه ذلك لكنه لم يحفل بهم بل قبض على البعض  
 وعذبهم أشد العذاب

**استيلاء الحمير على اليمن** — اعلم انه لما رسخت قدم  
 ذي نواس في الملك حملته اليهود على غزو نجران لامتحان  
 من بها من النصارى حيث كان بها كثير منهم اعتنقوا الدين  
 المسيحى فأغار عليهم ودعاهم الى اليهود فامتنعوا فقتل ماكرهم  
 وحمل اهل البلد وأتاهم في حفرة قد احتفرها وأضرم النار  
 فيها وهي المراد بالآخذود فذهبوا شهداء تمسكهم بدينهم  
 وجور هذا الملك الذي لم يخلص اليمن من بلاء الاليوقعه في  
 بلاء أدهى وأمر ولكن من الحقائق الثابتة التي نشاهد على  
 صحتها كل يوم ألف شاهد ودليل ان من طال عدوانه زال  
 سلطانه ومتى أراد الله أمراً هنيئاً له الأسباب فكان من

أسباب زوال سلطان ذى نواس بل زوال البلاد جميعها من  
 ايدى اهلها انه هرب من نصارى نجران رجل من عظمائهم  
 يقال له دوس بن ثعلبان فسار الى النجاشى ملك الحبشة وشكا  
 اليه ما ارتكبه ذو نواس وكان النجاشى نصرانياً اعتنق الدين  
 المسيحى فى عهد القيصر قسطنطين وكان محالفاً لقيصرة الروم  
 للجامعة الدينية بينهما فكتب الى انسطاس الثانى قيصر الروم  
 وقتها وكان متعصباً لدينه يستأذنه فى تجريد خيل الى اليمن  
 فصرح له بذلك وخرج النجاشى لمقاتلة ذى نواس ونزع الملك  
 منه ولما علم ذو نواس بقدمه تجهز للحرب وفرق السلاح  
 على جنوده وسار يستقبل الجيش فالتقوا على ساحل عدن  
 وثار النجاشى بأصحابه ويقال إنه خاطبهم بقوله: هذا البحر  
 خلفكم والسيوف أمامكم فلا ماجاً لكم الا الصبر أو تظفروا.  
 فاقتتل القوم قتالاً شديداً وقتل من الفريقين عدد كثير وكان  
 الظفر للحبشة وحق لجيش يشجعه رئيسه بمثل الكلام المتقدم  
 أن ينتصر ويظفر

وانهزم ذو نواس بأصحابه وتبعهم الحبشة وخاف ذو

نواس من الاسر فاقتحم البحر بجواده وقال : الغرق أفضل  
من اسر السودان . فضربته الامواج وكان آخر العهد به  
وياليتته كان قال العدل والرأفة والاعتدال خير من طمع وغنى  
يورثان الذل ويضيعان استقلال الاهل والبلاد ويوقعان الجميع  
فى اسر الاجانب والسودان الذين فضل الغرق على الوقوع  
بين أيديهم ولكن قدر فكان ومدة ملكه من سنة ٤٨٠ الى  
سنة ٥٢٨ مسيحية على ما قيل

ولما غرق قام بعده ذوجدن الحميرى وحاول ان يكون  
ملكاً فمنعته الاحباش وجرت لهم معه وقائع ثم هزموه فاقتحم  
البحر أيضاً ولحق بذي نواس كأنه أراد ان يخبره بما صار اليه  
الاهل والاطوان وبتأيج طيشه وظلمه وما أتى من العدوان  
وبعد أن دهمته المنية أفضى الامر الى ذى يزن الحميرى  
سنة ٥٢٩ ميلادية وهو آخر ملوك اليمن التى خلص بعد ذلك  
ملكها للحبشة ولا عجب فان تصرف ملوكها الاخيرين قد  
كان نذيراً بذلك مقدمة له إذ قد فسقوا وظلموا وأماتوا فى  
رعايهم احساس النخوة والشهامة فهوت دولتهم وحق لها

الانقراض : فمن حاد عن طور الاعتدال والاستقامة جنى  
الحسرة والندامة هذه سنة الله تعالى في جميع الدول ومن  
تأمل بعين النقد والتدبر وجد أن جميع الحكومات الرومانية  
واليونانية والفارسية وكذا الحكومات الشرقية ما اضمحلت  
وسقطت من عزها الشانخ الا من عهد خروج أهلها عن  
الاعتدال واستسلامهم للأثم والعدوان وللخلاعة والفسق  
والمجون المثبطة للهمم والداعية للفساد وتراخي الاعضاء وامانة  
العواطف والاحساسات الشريفة فيصبح الحر أسير شهواته  
البهيمية قاعدا ومتقاعسا عن كل ما من شأنه رفعة بلاده  
وحفظ زمام أمور سلمت اليه وأودعت امانة لديه فخان فيها  
فاستحق الذل والخذلان والتكليل به قال الله تعالى وهو  
أصدق القائلين « واذا اردنا أن نهلك قرية امرنا مترفها  
ففسنقوا فيها فحق عليها القول فدمرناها تدميرا »

ملوك اليمن على اليمن من سنة ٥٢٩ لسنة ٦٠١ هـ

أول من تولى الولاية منهم على بلاد اليمن ارباط قائد

جيش النجاشي وكان من بني عمه ومدة ولايته على اليمن من

سنة ٥٢٩ الى سنة ٥٤٩ مسيحية وكان يكرم العظماء من اصحابه  
 ويزدري بالضعفاء ويكافهمم مالا يطيقون من المشاق فجزعوا ذلك  
 واجتمعوا الى أبرهة الاشرم - أحد رؤساء الجيش - فغضب  
 لهم وعزم على الاخذ بناصرهم فعاهدوه على المبايعه له والتسليم  
 اليه فعصى ارباط وخرج عليه ودعاه الى الحرب فكاثت الفتنة  
 وقتل ارباط في معركة بينهما فجوزى بما ظلم وقام بدله أبرهة  
 وأطاعته العرب والحبش جميعاً وكان توليه على اليمن من  
 سنة ٥٤٨ لسنة ٥٨٩ ومات بمكة وكان قصدها بجيشه يريد أن  
 يهدم البيت الحرام واتخذ فيلا عظيماً يقدمه في وجه قومه  
 ليتقوا به وقع النبال ولذلك قيل له صاحب الفيل وهو صاحب  
 القصة التي ورد ذكرها في سورة الفيل بالقرآن الشريف كما  
 سيجيء عند التكلم على الحجاز وقد اشتهر أبرهة بميله الى  
 النصرانية

ولما انقضى عهد أبرهة خلفه على الولاية ابنه يكسوم  
 وكانت مدته من سنة ٥٨٩ لسنة ٦٠١ مسيحية

استبدر الفرس على اليمن - لما توفي يكسوم تولى

أمر الدولة مكانه أخوه مسروق فرآى أهل اليمن ثبات ملوك الحبشة عليهم وتوارثهم إياه خلفاً عن سلف فجزعوا لذلك وأخذتهم الأنفة والحمية وعقدوا معاهدة بينهم على تخليص وطنهم من الأجانب ولا غرو فالجر لا يرضى بالذل طرفة عين. وكان في تلك الأيام قد نشأ سيف بن ذى يزن الحميرى بن ذى يزن السابق فاجتموا إليه وقالوا له: إن الحبشة قد دخلوا بلادنا بسبب جدك ذى نواس وقد طال بلاؤهم علينا حتى ضاقت صدورنا عنه. وأثاروا فيه الغيرة والشهامة الغريبة التي حاول أجداده أن يمتئوها فقام واستخلص المملكة من أيدي الحبشة بمساعدة كسرى أنوشروان ملك الفرس بعد أن استولوا عليها نحو سبعين سنة وملخص ذلك: أنه لما حرّضه الإهالى على الأحباش بالصورة المتقدمة استنجد أولاً بقيصر ملك الروم فأبى عليه مساعدته وليت شعري كيف يستغيث سيف بمك محالف لخصمه ويطلب نجاته ضده ولم يكن احتلال الحبشة لليمن إلا بعد ابتشارته! ولما يئس سيف من قيصر قصد كسرى قباد ملك فارس فتردد وقال له: بعدت



أرضك عن أرضنا وهي قليلة الخير إنما هي شاء وبغير والمسالك  
 فيها صعبة ولست أغرر بجيشي . وأمر له بمال جزيل فأخذه  
 وخرج من عنده وهو يثر المال الذي أعطاه إليه فالتفتاه  
 الناس من الأرض وأخذوه فسأل كسرى عن سبب ذلك  
 فقال له سيف : جبال أرضي ذهب وفضة واني لم آتكم للمال  
 وإنما جئتكم للرجال ولتمنعني من الذل والهوان . فرق كسرى  
 له بل ربما كان في الحقيقة طمع في المال الذي سمع به وشاور  
 أهل دولته فأشاروا عليه بمساعدة سيف وقال له موبدانه —  
 وزيره — : أن في سجونك رجالا أصحاب نجدة وبأس قد حبستهم  
 للقتل فلو أن الملك وجههم معه فلو ظفروا كان الظفر لك  
 وازددت مالا إلى ملكك وان هلكوا فيكون الملك قد  
 استراح وأراح أهل مملكته . فأعجب كسرى هذا الرأي  
 ويحق له ان يعجب به ويفتخر بوزير هذه مشورته وعمل بما  
 أشار ونجح واستولى على اليمن وأعاد على ملكها سيف ذي  
 يزن وأمره بالنزول بقصر الملك برأس غمدان وفرض اتاوة  
 على اليمن التي لم تخاص من الحبش الا لتقع في يد الفرس فلما

ملك سيف صار يقتل الحبشة ويبتز بطون الجبال من النساء ولم يبق منهم إلا جماعة قد جعلهم من خاصته واصطفاهم لخدمته فكانوا يمشون بين يديه بالحراب ولما استقر له الملك وفدت عليه الوفود من العرب يهادونه ويهشون به بملك آبائه وأجداده التبابعة وامتدحه العرب بأشعارهم وبيابته كان استخلص الملك تماما من الاجانب ليحق له صحيح التهاني وتمام المديح ولكن ما لا يدرك كاه لا يترك كاه ثم ان سيف المذکور انفردت به في آخر سني حكمه أصفياؤه الذين كان جعلهم حوله لحفظه واصطفاهم لخدمته فاغتالوه بحراهم وقتلوه وهربوا في قلال الجبال فانتقموا بذلك لآخواتهم الذين فتك بهم سيف ولوطنهم الذي ذهب سلطانه وانقضى بذلك ملك حمير وخرنت على سيف قبائل اليمن وهفنوه في صنعاء بمقبرة لاجدادهم وكان جميل المنظر عظيم الهيئة عالي الهمة شديد البأس كريم الاخلاق حسن التدبير على وجه العموم وان اساءه في أنه أمن أعداءه وسلمهم نفسه ظناً منه أنه أحسن اليهم فلا يلحقه منهم أذى ولكن اكل شيء في قلبه سبب

ولما بلغ كسرى أنوشروان خبر قتله ارسل والياً على اليمن من طرفه وهكذا تغلبت عليها دولة الفرس الساسانية وبقيت تحت سلطتهم الى ان افتحها المسلمون كما سيجيء

مملكة العراق وملك الحيرة سنة ٢١٠ الى سنة ٣٦٤ هـ  
 مسيحية - لما ارسل الله سيل العرم وتمزق اهل اليمن تشتت كثير منهم خارج بلادهم ليجدوا لهم رزقا طيبا في غيرها كما أسلفنا القول فسارت جماعة منهم نحو خراسان فتجبروا في طريقهم ليلا في نقطة اقاموا بها واختطوا هناك مدينة سموها «الحيرة» صارت بعد ما قاموا لملوكهم من اللخمين نسبة الى لخم بن عدى والمناذرة وهي تقرب من نهر الفرات على نحو فرسخ واحد من الكوفة وأول ملوكهم بها مالك بن فهم وينتهي نسبه الى قحطان وكان استيلاؤه على سرير الملك من قبل الالكاسرة ملوك الفرس اذ ذاك ولذلك كان هو وعقبه عمالا للالكاسرة واتخذ منزله بالانبار فأقام بها الى ان مات ويقال ان ابن سايمة رماه بسهم فقتله فقال

جزاني لا جزاه الله خيرا      سايمة انه شرا جزاني

أعلمه الرماية كل يوم فلما استتد ساعده رماني  
وكان مالك هو الذي ربي سليمة وأحسن إليه فكوفي  
على الاحسان بالشر وما ذلك بعجيب! ولما توفي تمك بعدد عمرو  
بن فهم وقام بعد وفاة هذا ابن أخيه جذيمة ابن مالك سنة ٢٣٠  
مسيحية وكان مقامه بالجيرة وكان شديد الوطأة ظاهر الحرم  
وهو أول من أوقد الشموع ونصب المجانيق من ملوك العرب  
الاقدمين للحرب دانت اليه جميع القرى المجاورة لبلاده فكان  
يتولى أمورها وتجي اليه أموالها وتنفد اليه الوفود وكان جباراً  
ذاتفة مقداما شديد البأس وافق الحكمة طالت مدته وشاع  
ذكره في كل مكان وعظم شأنه وكان به برص فتبين له البرص  
وقيل له كذلك جزية الوضاح تلتظا في اللفظ لان الوضاح بمعنى  
البرص وكنيته أبو مالك. وكان في أيامه رجل من العمالة يقال له  
الريان كان ملكا على الجزيرة وأعمال الفرات ومشارف الشام فحرت  
بينه وبين جزية حروب انتصر هذا عليه فيها وكان للريان بنت  
تسمى نائلة وتلقب بالزباء كان لها من الفرات الى تدغر فلما  
استجمع أمرها واستحکم ملكها ارادت ان تغزو جذيمة بمن

معها من أهلها وجندها طالبا لثأر أبيها وكانت لها أخت اصغر  
منها تدعى زبيبة فاشارت عليها بترك الحرب وإعمال الحيلة  
فاجابتها الزباء الى ذلك وكتبت الى جزيمة تقول : انها لم تجد  
ملك النساء الا قبحا في السماع وضعفا في السلطان وانها لم تجد  
ملكها ولا لنفسها كفوا غيره . فلما انتهى اليه كتاب الزباء  
وكان بجهة يقال لها نقة استحسن ما دعته اليه واغتر يتمويهاتها  
غير عالم بمكرها فجمع ثقابه وعرض عليهم كتابها واستشارهم  
فيه فأجمعوا على إجابة دعوتها وأن يسيروا اليها ويستولوا على  
ملكها وكان بينهم رجل يقال له قصير من نخم أمه أمة كانت  
لجذيمة وكان عاقلا بصيرا يستشيره جذيمة في بعض أموره  
لما رأى عنده من سداد الرأي فلم تدخل عليه حيلة الزباء  
وخالف القوم فيما أشاروا عليه به وقال : رأى فأترو عدو  
هاضرا . وقال لجذيمة « اكتب اليها فان كانت صادقة فاقبل  
إليك وإلا فلا تمكنها من نفسك وقد وترتها وقتلت أباهما »  
فلم يوافق جذيمة على ما أشار به قصير وقال له : رأيك في  
الكس لا في الضم . ودعا ابن أخته عمرا بن عدي واستشاره

فشجعه على المسير فحين رأى قصير ذلك قال : لا يطاع لقصير رأى . ثم استخلف جذيمة ابن أخته المذكور على ملكه وسار في وجوه أصحابه فلما كان في منتصف الطريق قال لقصير ما الرأي قال : ببق تركت الرأي . واستقبله رسل الزبلاء بالهدايا والتحف فقال يا قصير كيف ترى فقال : خطر يسير وخطب كبير وستبأك الخيول فان سارت امامك فان المرأة صديقة وان اخذت جنبك واحاطت بك فتيقن انهم غادرون فان رأيت ذلك فاركب العصا - وكانت فرساً لجذيمة لا تجارى - فلما لقيته الكتاب حالت بينه وبين العصا فركبها قصير فنظر اليه جذيمة موليا على مشها فقال : أرى حزماً على متن العصا . وقال ايضاً : ما ضل من تجرى به العصا . وجرت به الى غروب الشمس ثم نفقت وقد قطعت ارضاً بعيداً فبنت العرب عليها برجاً وسموه برج العصا . وقالوا : فبر ما هابت به العصا . وقد احاطت بجذيمة الخيول حتى دخل على الزبلاء فلما رآته تكشفت له فاذا هي مضمفورة شعر الاست وقالت له يا جذيمة : آداب عروس ترى . فقال : ياغ المدبى وجف

اثرى وامر غدر ارى . ثم قالت له : أنبئت ان دماء الملوك  
 شفاء من الكلب ثم اجلسته على نطع وامرت بطست من  
 ذهب وسقته الحجر حتى أخذت منه مأخذها ثم امرت  
 براحتيه فقطعتا وقدمت اليه الطست لنزول الدم فيه وكانت  
 العرب تزعم أنه ان قطر من دم من قتل ولو قطرة في الارض  
 طاب بدمه وكانت الملوك في ذلك الزمان لا تقتل بضرب  
 الرقبة الا في قتال تكرمة للملك . فلما ضمنت يداه سقطتا  
 وقطر من دمه قطرة في غير الطست فقالت : لا تضيعوا دم  
 الملك . فأجاب جذية : دعوا دما ضيعه الله وهلك . وخرج  
 قصير من الحى الذى هلك فيه العضا حتى قدم على عمرو  
 بن عدى وهو بالحيرة فوجده قد اختلف مع عمرو بن عبد  
 الجن الذى كان استخلفه جذية عند خروجه للزباء على خيوله  
 فأصلح بينهما وابلغها الخبر واطاع الناس عمرا بن عدى فى  
 سنة ٢٦٨ مسيحية وقال له قصير تهباً واستعد ولا تطل دم  
 خالك فقال له كيف لى بها وهى امنع من عقاب الجو وكانت  
 الزباء سألت الكهنة عن أمرها وهلاكها فقالوا لها نرى

هلا كائ بسبب عمرو بن عدى وانكن حتفك بيدك فخذرت  
 عمرا واتخذت نفقا من مجلدتها الى حصن لها داخل مدينتها  
 وقالت ان فاجأني أحد دخات النفق الى حصني ودعت رجلا  
 مصورا حاذقا فأرسلته الى عمرو متنكرا وقالت له صوره لي تلي  
 كل حالته جالسا وواقفا ومنزدا ومتنكرا ومتساحجا بيته ولونه  
 فتغل المصور ما أمرته به وقد ارادت بذلك ان تعرف عمرا  
 فلا تراه على حال الا عرفته وخذرتة أما تصير فقال لعمرو :  
 اجدع انفي واضرب ظهري ودعني واياها. فقال عمرو: ما أنا  
 بفاعل. فأجابه قصير: قبل عنى ازا ونهرك زعم. فجدع قصير  
 أنه ودق بظهره وخرج كأنه نهارب وادعى ان عمرا فعل به  
 ذلك وسار حتى تدم على الزباء وأدخل عايبها فاذا أنه تدجدع  
 وظهره قد ضرب فقالت: لا صر ما قد هرع قصير أنهم. وسأته  
 الخبر فقال: زعم عمرو انى غدرت بخاله وزينت له المسير اليك  
 ومالئتك عليه ففعل بي ما ترىن فأقبلت اليك وعرفت انى لا أكون  
 مع واحد هو أثقل عليه منك. فاكرمته واصابت عنده بعض  
 ما ارادت من الحزم والرأى فالتذعت له وسلمته امور المملكة



فأصبح الآمر الناهي في البلاد حتى إذا ما عرف استرسالها إليه  
وشدة وثوقها به قال لها إن لي بالعراق أموالاً كثيرة فأذني لي  
لا حمل مالي واجمل اليك من طرائفها وصنوف ما يكون بها  
من التجارات فتبالي أرباحاً وبعضاً مما لا غنى للملوك عنه ففرضت  
لقوله ودفعت إليه أموالاً وجهزت معه غيرا حتى قدم العراق وأتى  
عمراً متخفياً وأخبره بالامر وقال جهزني بالبر والطرف وغير  
ذلك لعل الله يمكنك من الزباء فتصيب ثارك وتقتل عدوك.  
فأعطاه ما طلب ورجع به إليها فأعجبها وسرها وازدادت به  
ثقة ثم جهزته بعد ذلك مرة أخرى بأكثر مما جهزته به  
في المرة الأولى فحمل من عند عمرو حاجته ولم يدع طريقة  
ولا متاعاً قدر عليه إلا واستصجبه معه ثم لما رجع ثالث مرة  
أخبر عمراً بما أضمر عليه وقال اجمع لي ثقات اصحابك واقوامك  
وهي لهم غرائر واحمل كل رجائين علي بعير في غرارتين حتى  
إذا دخلت الأبل مدينة الزباء أقتك علي باب نفقها. وحينئذ  
تخرج الرجال من الغرائر فان اتاهم العدو قاتلوه وان اقبات  
الزباء تريد نفقها قتلها ففعل عمرو ذلك وساروا فلما كانوا

قريباً من الزباء تقدم قصير اليها وبشرها بكثرة ما جاء به  
من الثياب والطرائف وسألها أن تخرج وتنظر الابل وما عليها  
تخرجت الزباء وأبصرت الابل تهادى باحمالها فقالت :

ما للجمال وشيها وثيدا      أجنـد لا يحـملن أم حديدا  
أم صرفانا باردا شديدا      أم الرجال جثما قغودا

ودخل الابل المدينة فلما توسطتها انيخت وخرج الرجال  
من الغرائر وقام عمرو على باب النفق وثار رجاله على اهل  
المدينة ووضعوا فيهم السلاح وأقبلت الزباء تريد الخروج الى  
نفقها فوجدت عمرا قائما على بابه فعرفته بالصورة التي عملها  
المصور فضت سما كان في خاتمها وتالت: يدي لا يد عمرو  
فتلقاها عمرو وقصير بالسيف وقتلها. ولم يغن عنها حرصها  
ولا نفقها شيئا وأصابا ما أصابا من مدينتها وعادوا الى العراق  
وأنشأ عمرو يقول :

ألا ايها الفر المرجى      ألم تسمع بخطب الاولينا  
دعى بالبقة الوزراء يوما      جذيمة يستشير الناصحينا  
فطاوع أمرها وعصى قصيرا      وكان يقول لو نفع اليقيننا

لقد خطب التي غدرت وخانت  
 نطقت في صحيفتها اليه  
 فجاجأها وقد جمعت جموعا  
 وحكمت الجديد براحتيه  
 وخبرت العصا الانباء عنه  
 فبات نساؤه تكلى عليه  
 فولى أنه موسى قصير  
 محتالة ابنة الريان مكررا  
 وهن ذوات غدر يزدهينا  
 لملك بضعها اوان يدينه  
 على أبواب حصن معلمينا  
 فاضى قولها كذبا ومينا  
 ولم ار مثل فارسها هجينا  
 مع الابناء يعاين الانينا  
 ليخدعها وكان بها ضنينا  
 فاذهل عقلها الوافي الرصينا

وليت شعري كيف ساغ لعمر و أن يلوم الآن في شعره  
 نصحاء جذيمة وقد كان منهم ويعترف لقصير باصالة الرأي  
 وقد كان من الذين سفهوا توله ولكن ربما كان طمعه في  
 الملك من بعد جذيمة هو الذي حمله على ذلك التحريض وفي  
 هذا الخبر من الحكم والعبر مالا يخفى على اللبيب : فلو أطاع  
 جذيمة قصيرا ما حل به ما حل ولو كان اقتصر على ملكه ولم  
 يطمع في ما في يده غيره ما غار على الريان ولا أضغن عليه قلب  
 الله حتى عملت على مكيدته والتكليل به . ولو لم تغتر الزباء

بتمويهات قصير — وهو من اعدائها — ولم تتخذ عنه وتسلم اليه  
 مقاليد أمور بلادها ما وقعت في هذه الورطة وما اضاعت  
 البلاد ولكن لا راد لحكم الله وقضائه فيكما جعل الجور  
 والعسف والترف والفجور من أسباب تلاشي الأمم وانقراضها  
 جعل أيضاً الغفلة والطمع والانخداع للاجانب والدخلاء  
 وتسليمهم البلاد من اعظم العوامل القاضية على الوطن والبلاد  
 فليتدبر المتدبرون

ولما توفي عمرو بن عدى تولى الملك بعده امرؤ القيس  
 الاول وعند موت هذا خلفه عمرو بن امزى القيس المذكور  
 وكان عالي الهمة شديد البأس شاعراً فصيحاً وبوفاته انتقل الملك  
 الى اثنين من العمالة ثم رجع الى بني عمرو بن عدى فتولى  
 منهم امرؤ القيس الثاني — ويلقب بالحرزق لانه اول من عاقب  
 بالنار وصار هذا اللقب يطلق على اولاده من بعده — ثم بوفاته  
 تملك بعده النعمان بن امرئ القيس — وكان يلقب بالاعور —  
 بنى الخورنق والسدين وكردس الكراديس وكان أشد الملوك  
 نكايه في الاعداء : غزا الشام مراراً كثيرة واكثر من

المصائب في أهلها وسبي وغنم كثيرا من الاموال وكان صارما  
حازما ضابطا للملكه اجتمع له من الاموال والذخائر ما لم يجتمع  
لغيره من ملوك الحيرة . وبعد ان عمر ثلاثين عاما في الملك  
صعد على مجلسه في قصر الخورتق وتأمل في الملك وما لديه  
من الخيرات والاموال فلم يغتر بها ولم تفتنه بل قال : رغب  
في ملك آصره الى النقاد : ومن ثم زهد في الملك وأمر  
أصحابه ان يعتزلوا بابه حتى اذا جن الليل التحف بكسائه  
وسباح في الارض ولم يره احد بعد ذلك . وقيل ان هذا كان  
في سنة ٤٣٠ مسيحية . وتولى ابنه المنذر مدة ثم مات وتولى  
بعده ابنه الاسود وكان مغوارا فاتكا انتصر على الشام واسر  
عدة من ملوكها وأراد ان يعنو عنهم فاعترضه ابن عم له يدعى  
أبا أذينة كان احد ملوك الشام قتل اخاه وقال له محرصا :  
ما كل يوم ينال المرء ما طلبا . ولا يسوغه المتدار ما وهبا  
واحزم الناس ما ان فرصة عرضت . لم يجعل السبب الموصول منقضا  
وأ نصف الناس في كل الموطن من سقى المعادين بالكاس الذي شربا  
وايس يظلمهم من راح يضربهم بحد سيف به من قباهم ضربا

والعفو إلا عن الأكلاء مكرمة من قال غير الذي تد قلته كذباً  
 قتلت عمرا وتسبقني يزيد لقد رايت رأيا يجز الويل والحربا  
 لا تقطن ذنب الأفعى وترسلها ان كنت شهما فاتبع رأسها الذبا  
 هم جردوا السيف فاجعلهم له جزرا وأوقدوا النار فاجعلهم لها خطبا  
 إن تعف عنهم يقول الناس كلهم لم يعف حبا ولكن عذوه رهبا  
 هم أهلة غسان ومجدهم عال فان حاولوا ملكا فلا عجا  
 وعرضوا بفداء واصفين لنا خيلا وابلا تروق العجم والعربا  
 يحابون دما منا ونحلبهم رسلا لقد شرفونا في الوري حبا  
 علام تقبل منهم فدية وهم لا فضة قبلوا منا ولا ذهباً  
 فعفا عن بعضهم وتتل البعض الآخر ثم توفي بعد أن  
 حكم عشرين سنة فتولى أخوه المنذر بن المنذر بن النعمان الأعور  
 وبهوتة صار الملك في بني نخم حتى صار في امرئ القيس  
 الثالث وهو الذي بنى له سمار القصر المشهور وكافأه عايه بالقتل  
 مخافة ان يبني لغيره مثله كما هو معلوم وفي ذلك قال المتلمس الشاعر  
 جزاني ابو نخم على ذات بيننا جزاء سمار وما كان ذا ذنب  
 ويقال ان النصرانية كثرت في مملكة الأرس وظهرت

## بالعراق في زمنه

ولما مات ملك ابنه المنذر سنة ٥٢٠ وكان يلقب بماء السماء وفي أيامه اراد كسرى « قباذ » أن يتدين بدين الزندقة فلما أبى عليه ذلك ماء السماء عزله من ملك الحيرة وملك موضعه الحرث ابن عمرو بن حجر الكندي الذي وافقه على هذا الدين . وكان مذهب الحرث كاشتراكي زمننا يقول : نحن نقسم بين الناس ونورد على الفقراء حقوقهم من الاغنياء : ثم لما تمكن على ملك فارس كسرى أنوشروان بعد أبيه قباذ طرد الحرث وأعاد المنذر الذي لم يلبث ان مات مقتولا خلفه ثانيا الحرث سنة ٥٢٣ ولما مات سنة ٥٦٤ م استبد بالدولة عمرو بن المنذر المتقدم وكان يقال له عمرو بن هند — نسبة لأمه هند بنت الحرث بن عمرو الكندي — وكان مقداما شديد السلطان كثير المغازي تلقبه العرب بمضرب الحجارة لشدة بطشه وكان قتل له أخ عند زرارة بن عدس الدارمي في مكان اسمه أواره وكنتموا خبره عنه فابلقه اياه عمرو بن ملقط الطائي الذي كان بينه وبين زرارة شرفانتهز الفرصة وصار يحرض عمرا

بن هند على بنى دارم حتى ثارت به الحمية وجمع أهل مملكته وسار  
طالباً نار أخيه وفعلاً وقع القتال بينهم وقتل كثير من بنى دارم  
وفر منهم البعض وقتل عمرو وأولادهم وفجر بطون زوجاتهم  
وأقسم أن يحرق منهم مائة بشار أخيه ثم سار يلتمس من فر  
منهم ويلقى في النار من وقع في يده حتى أدرك تسعة  
وتسعين رجلاً وتعذر عليه اتمام المائة فلما كان ذات يوم في  
آخر النهار أقبل راكب يقال له عمار وكان من البراجمة — وهم  
قوم من تميم — واتفق أن عمراً كان ألقى رجلاً في النار فسطع  
الدخان وفاح القطار فظن ذلك مأدبة للطعام فأسرع إليها حتى  
انأخ إلى عمرو فسأله عمرو من أنت قال: من البراجمة. فذهبت  
مثلاً وأمر به فألقى في النار وصار ذلك عاراً لبني تميم بحب  
الطعام قال الشاعر

إذا مات ميت من تميم      وسرك أن يعيش فجي بزاد  
بخبز أو بلحم أو بتمر      أو الشيء الملقف في البجاد  
تراه ينقب البطحاء حولاً      لياً كل رأس لقمان بن عاد  
ثم ان عمراً لما انتقم من بنى تميم داخله النور حتى ظن



أنه لم يعاداه احد في الدنيا فصادف ان قال ذات يوم لجلسائه  
وكان دنا أجله : هل تعلمون أن أهدا من العرب من اهل  
مملكتي تأنف أمه من خدمة أمي قالوا : ما نعرفه الا أن  
يكون عمرو بن كلثوم . لانه من اشرافهم وهو سيد عظيم  
فأرسل اليه يستزيره ويسأله ان يزيره أمه فأجابه بن كلثوم  
الى ذلك واقبل من الجزيرة في جماعة من بني تغلب واقبلت أمه  
ليلي بنت المهمل بن ربيعة - اخي كليب وائل من أعز العرب -  
وكان زوجها كلثوم من فرسان العرب المشهورين ولما بلغ  
عمرو بن هند قدوم ابن كلثوم وأممه امر بسرادق فضرب  
بين الحيرة والفرات وأرسل الى وجوه أهل مملكته فصنع  
لهم طعاما ثم دعا الناس اليه ووضع لهم في باب السرادق وجلس  
هو وعمرو بن كلثوم وخواص اصحابه في الداخل ودخلت  
ليلي بنت المهمل على هند أم عمرو في قبها وكان ابنها قال لها  
اذا فرغ الناس من الطعام فنجي خدمتك عنك واستخدمني  
ليلي أن تناولك الشيء بعد الشيء ففعلت ما امرها به ابنها ولما  
فرغ الناس من الطعام قالت : يا ليلي تناوليني ذلك الطبق .

فمالت : لتقم صاحبة الحاجة الى حاجتها . فأعدت عليها فلما  
ألحت صاححت ليلى واذلاه يا آل تغلب فسمعها ولدها ابن  
كاثوم فثار الدم في وجهه وقام الى سيف لعمر وبن هنت كان  
معلقا في السرادق ولم يكن سيف غيره فأخذه وضرب به  
رأس عمرو وقتله ونادى في بني تغلب فأنهبوا جميع ما في  
السرادق واستاقوا نجايبه وسبوا النساء ولحقوا بالجزيرة وفي  
ذلك يقول بعضهم :

لعمر ك ما عمرو بن هند وقد دعا لتخدم ايلي أمه بموفق  
فقام ابن كاثوم الى السيف مصاتا وامسك من ندمانه بالمخنق  
فكان عمرو كالباحث عن حنثه بغالته وبذا أضحي ضحية

غروره وظلمه وتكبره وعتوه فسبحان مسبب الاسباب  
اذا ما الظنوم استحسن الظلم مذهبها ولج عتوا في قبيح اكتسابه  
فكاه الى صرف الزمان فانه سيبدى له مالم يكن في حسابه  
فكم قد رأينا ظالما متمردا يرى النجم تيهات تحت ظل ركابه  
فما قليل وهو في غفلاته أناخت صروف الحادثات ببابه  
فأصبح لامال ولا جاه يرتجى ولا حسنة سطرت في كتابه

وَقَابِلَهُ الْجَبَّارُ مِنْهُ بِفِعْلِهِ وَصَبَّ عَلَيْهِ اللَّهُ سَوْطَ عَذَابِهِ  
 وَبَعْدَ أَنْ مَاتَ عَمْرُو بْنُ هِنْدٍ تَمَلَّكَ إِخْوَهُ قَابُوسُ بْنُ الْمُنْذِرِ  
 وَأُمُّهُ هِنْدٌ أَيْضًا وَكَانَ ضَعِيفًا مَهِينًا مَوْلَعًا بِاللَّهْوِ وَالشَّرَابِ وَالصَّيْدِ  
 أَقَامَ ثَمَانِي سِنِينَ ثُمَّ مَاتَ مُقْتَبِلًا فَتَمَلَّكَ بَعْدَهُ الْمُنْذِرُ بْنُ الْمُنْذِرِ  
 بْنُ إِسْرَى الْقَيْسِيُّ إِخْوَهُ عَمْرُو بْنُ هِنْدٍ أَيْضًا وَكَانَ مُعْتَدِلَ الْقَامَةِ  
 صَبِيحَ الْوَجْهِ كَرِيمًا مَلِكًا أَرْبَعِ سِنِينَ ثُمَّ مَاتَ فَتَوَلَّى الْمَلِكُ مَكَانَهُ  
 ابْنُهُ النُّعْمَانُ بْنُ الْمُنْذِرِ بْنِ الْمُنْذِرِ بْنِ مَاءِ السَّمَاءِ الْمُتَقَدِّمُ ذَكَرَهُ  
 سَنَةَ ٥٨٨ وَكَانَ يَكْنَى بِأَبِي قَابُوسٍ وَكَانَ أَحْمَرَ أَبْرَشَ قَصِيرًا  
 دَمِيمًا سَيِّئَ الْخُلُقِ عَبْدَ الْاَوْثَانِ وَالْاَصْنَامِ ثُمَّ تَنَصَّرَ (١) وَضَادَفَ

(١) رَوَى أَنَّ النُّعْمَانَ بْنَ الْمُنْذِرِ خَرَجَ مُتَّصِدًا وَمَعَهُ عَدَى بْنُ  
 زَيْدٍ فَمَرَا بِشَجْرَةٍ فَقَالَ عَدَى: أَيُّهَا الْمَلِكُ أَتَدْرِي مَا تَقُولُ هَذِهِ الشَّجَرَةُ  
 قَالَتْ لَا، قَالَ فَانْهَى تَقُولُ:

من رأنا فليحدث نفسه	انه موف على قرب زوال
فصروف الدهر لا تبقى لها	ولما تأتي به صم الجبال
رب ركب قد أناخوا حولنا	يشربون الخمر بالماء الزلال
والأباريق عليها قدم	وجياد الخيل تجرى بالجلال
عمروا الدهر بعيش حسن	أهني دهرهم غير عجمال

أن حقد علي رجل من قومه يدعى عدى بن زيد فسجنه وأبى  
اطلاقه فجعل عدى يقول الشعر وهو في الحبس فمن قوله :

عضف الدهر بهم فانقرضوا      وكذاك الدهر حالا بعد حال  
ثم جاوز الشجرة فمرا بمقبرة فقال له عدى : أتدرى ما تقول  
هذه المقبرة . قال لا . قال فانها تقول :

أهبأ الركب المحبونا      ن على الارض المجدونا  
كما أتم ككنا كنا      وكما نحن تكونونا

فقال النعمان : قد عامت أن الشجرة والمقبرة لا تتكلمان وانك  
انما أردت عظي فجزاك الله عنى خيرا فما السبيل الذي تدرك به النجاة  
قال : تدع عبادة الاوثان وتعبد الله وخذه فتركها وتنصر وأخذ في  
العبادة والاجتهاد . وقيل أن سبب تنصره هو أنه كان نادمه وجلان  
من بنى أسد أحدهما خالد بن المضلل والآخر عمرو بن مسعود  
فأنغضباه في بعض المنطق فأمر بان يحفر لكل منهما حفيرة بظهر الحيرة  
ثم يجعلان في تابوتين ويدفنا في الحفرتين ففعل ذلك بهما حتى اذا  
أصبح سأل عنهما فأخبر بهلاكهما فقدم على ذلك وركب حتى نظر  
اليهما وأمر ببناء الغريين فينيا وجعل لنفسه يومين : يوم نعيم  
ويوم بؤس . فأول من يطلع عليه يوم نعيمه يعطيه مائة من الابل  
شؤما أى سوداء وأول من يطلع عليه يوم بؤسه يعطيه رأس طبريان  
أسود ثم يأمر به فيذبح ويقرى بدمه الغريان فلبث بذلك برهة من  
دهره حتى مر رجل من بطى اسمه حنظلة بن ابى عفراء كان أوى

ألا من مبلغ النعمان غنى وقد تهوى النصيحة بالمغيب  
أحظى كان سلسلة وقيدا وغلا والبيان لدى الطيب

النعمان في خبائه يوما خرج فيه الى الصيد وانفرد عنه أصحابه بسبب المطر  
فرحب به حنظلة وهو لا يعرفه وذبح له شاة فاطعمه من لحمها وسقام  
لينا . فلما نظر اليه النعمان ساءه ذلك وقال له : يا حنظلة هلا آيت  
في غير هذا اليوم . فقال : آيت اللعن لم يكن لي علم بما أنت فيه  
فقال له : ابشر بقتلك . فقال له : والله قد آيتك زائرا لاهلي من  
خيرك ماثرا فلا تكن ميرتهم قتلى . فقال : لا بد من ذلك فاسأل حاجة  
أقضيها لك فقال تؤجلني سنة أرجع فيها الى أهلي وأحكم من أمرهم  
ما أريد ثم أصير اليك فانفذ في حكمك فقال : ومن يكفل بك حتى  
تعود فنظر في وجوه جاسائه فعرف منهم شريك بن عمرو فانشد

يا شريك يا ابن عمرو يا أخا من لا أخا له

يا أخا شيبان فك اليوم رهنا قد أناله

يا أخا كل مصاب وحيناً من لا حيا له

أن شيبان قيل أكرم الله رجاله

وأبوك الخنير عمرو وشراحيل الخماله

رفياك اليوم في المجند وفي حسن المقاله

فوثب شريك وقال : آيت اللعن يدي بيده ودمي بدمه وأمر  
للطائي بخمسمائة ناقة وقد جعل الاجل جاما كاملا من ذلك اليوم الى  
هنا من القايل . فابا حال الخول وقد بقي من الاجل يوم واحد

أَتَاكَ بَأْتِي قَدْ طَالَ حَبْسِي      وَلَمْ تَسْأَمْ بِمَسْجُونٍ حَرِيبٍ  
 وَرَيْبِي مَقْفَرِ الْإِنْسَاءِ      أُرَامِلٌ قَدْ هَلَكْنَ مَعَ النَّجِيبِ  
 يَبَادِرُنِ الدَّمُوعَ عَلَى عَدِي      كَشَنَ خَانَهُ خَرَزَ الرَّيْبِ  
 فَهَلْ لَكَ أَنْ تَدَارِكَ مَا لَدِينَا      وَلَا تَغْلِبَ عَلَى الرَّأْيِ الْمَصِيبِ

قال النعمان لشريك : ما أراك إلا هالكا غدا فداء لحنظلة . فقال شريك : فان يك هذا اليوم ولي فان غدا لناظره قريب . فذهب قوله مثلا . ولما أصبح وقف النعمان وكان يشتهي أنه يقتله لينجى الطائي . فلما كادت الشمس تغيب قام شريك مجردا في ازاره على النطع والسياف الى جانبه وكان النعمان أمر بقتله فلم يشعر الا براكب قد ظهر فاذا هو حنظلة قد تكفن وتحنط وجاء يناديه . فلما رآه النعمان قال ما الذي جاء بك وقد أفلت من القتل؟ قال الوفاء . قال وما دعاك الى الوفاء؟ قال ان لي دينا يمنعني من الغدر . قال وما دينك . قال النصرانية؟ قال فاعرضها علي . فعرضها فتصر النعمان وترك تلك السنة من ذلك اليوم وعفا عن شريك والطائي وقال : ما ادرى أيكما أكرم وأوفى أهذا الذي نجا من السيف فعاد اليه أم هذا الذي ضمنه . وأنا لا اكون إلا الثلاثة . فليتأمل المتأملون ولينظروا كيف كان العرب في وقت جاهليتهم والى أي حال من الوفاء قد صرنا اليوم!! قال الميداني وتصر مع النعمان أهل الحيرة أجمعون وبني النعمان في حاضرة ملكة الكنائس العظيمة

فأنى قد وكلت اليوم امرى الى رب قريب مستجيب  
وكان عدى من اولاد نزار شاعرا فصيحاً يعرف  
الفرسية ونبغ فيها وكان أول من كتب بالعربية في ديوان  
كسرى فارتفع ذكره ولما تولى النعمان على الحيرة استدعاه  
من المدائن مع اخوين له اسمهما ابى وعامر فأكرمهم وأجزل  
صلاتهم وزوج عديا ابنته هنداً وولاه مملكته وكل شئ سوى  
اسم الملك ثم حسده وحبسه كما تقدم وكان أبى إذ ذاك في  
بلاد فارس فلما بلغه الخبر كلم كسرى في أمره وأرسل كسرى  
بإفاده فتظاهر النعمان بتلبية الطلب ولكنه أنفذ سرا اليه من  
قتله ليلا وفي الصباح أمر أعوانه بإطلاقه فأخبروه بأنه مات  
فأظهر الاسف والتحسر ولكن لم يخف ذلك على كسرى  
وأسرّها له كما أسرّها أهل عدى وما زالوا حائقين عليه حتى  
تمكنوا من الايقاع به بأن زينوا لكسرى أن يطلب من  
النعمان نساء من أهله ليصاهرهن وكانت هذه حيلة منهم  
لعلمهم علم اليقين أن العرب يضمنون بنسائهم على الاعاجم فلما  
رفض النعمان غضب كسرى وأضفن قلبه عليه أهل عدى

فاستدعاه عنده فخاف النعمان وهرب مستنجداً بأصحابه بجبل  
طبيء فأبوا نصرته خوفاً من بطش كسرى فأقبل وايس في  
الهرب من ينجده حتى نزل بذي قار— في بني شيبان بالقرب من  
البصرة— وقال أحد أصحابه ممن استجار بهم: عندي رأى لك  
لست أشير به عليك لا دفعك عما تريد من مجاورتي ولكنه  
الصواب . فقال هاته فقال: ان كل أمر يجمل بالرجل أن  
يكون عايبه إلا أن يكون بعد الملك سوقة والموت نازل بكل  
أحد . ولأن تموت كريماً خير من أن تتجرع الذل أو تبقى  
سوقة بعد الملك فامض الى صاحبك واحمل اليه هدايا ومالا  
وألقت نفسك بين يديه فاما أن يصفح عنك فتعود ماسكاً  
عزيزاً وأما ان يصيبك فالموت خير من أن يتلاعب بك  
صعاليك العرب ويخطئك ذئابها وتأكل مالك وتديش فقيراً  
أو تقتل مهزوراً . فاستحسن النعمان هذا الرأي وأودع هانيء  
ابن مسعود أهله وماله ودروده وذهب الى كسرى الذي لما  
بلغه تدومه أنفذ اليه من قيده وسجنه بخانقين ومات هناك .  
وقيل إنه ألقاه تحت ارجل القيلة فوطئته حتى مات . وتدنا



جزاءه الاوفى . وولى كسرى بعد النعمان اياس بن قبيصة الطائي على الحيرة سنة ٦١١ للمسيح وكان فصيحاً جواداً مشهوراً بالشجاعة عالماً بأيام العرب ووقائعهم وبعث اليه كسرى أن يرسل الى هانئ بن مسعود يأمره بتسليم ما استودعه النعمان فأبى هانئ أن يسلمه ما عنده فغضب كسرى لذلك وأرسل من يقابل هانئاً بذي قار وهناك حصلت حرب بين العرب والعجم انهزم فيها الاخيريون شر هزيمة وهو أول يوم انتصفت فيه العرب وتطاولت فيه اعناقهم وهو من أعظم ايامهم وقد أكثر شعراؤهم من ذكره وكان ذلك سنة ٦١١ للمسيح وبموت اياس بن قبيصة سنة ٦١٧ خلاه من يقال له زارديه ثم الاسود بن المنذر أخو النعمان ثم المنذر بن النعمان في سنة ٦٣٤ وهو المنذر الخامس الملقب بالغرور واستمر على ملك الحيرة الى أن قتل بالبحرين يوم جواشن وهو آخر الملوك اللخمية الذين كانوا عمالاً للاكاسرة على غرب العراق كما أسدنا القول ثم أتى بعد المنذر المذكور خالد بن الوليد فتحقق فوق رأسه راية الاسلام فتغيرت البلاد وتخلصت من ظلم

الظالمين وجور الجائرين وفساد المفسدين والأيام دول  
ملوك غسان من السنة ٢٠٠ تقريباً إلى السنة ٦٣٦ مسيحية  
ومن ملوك العرب أيضاً الغسانية ملوك الشام وأصلهم  
من اليمن من قبيلتي الازد والخزرج من ولد كهلان بن سبا  
بن قحطان هاجروا من بلادهم بسبب سيل العرم إلى الشمال  
الغربي وتماكروا أرض حوران والبلقاء ونزلوا على ماء بقرب  
دمشق يقال له غسان فاشتهروا به كما سبق القول حتى غاب  
اسمه عليهم فقبل لهم آل غسان وأخرجوا عرباً كانوا قبلهم  
من الشام يقال لهم الضجاعة ثم تغلبوا على الشام وملكوها  
ودام ملكهم نحو أربعين سنة وعدد ملوكهم ٣٢ ملكاً  
ويسمى مؤرخو الإسلام العرب المنتصرة ويعرفون أيضاً  
بملوك غسان ودانوا بالصرانية وكانوا عمالاً لقيصرة الروم  
في الشام ونسبتهم للقيصرة كنسبة ملوك الحيرة إلى ملوك  
الفرس وكانوا أشبه شيء بالولاة المستقلين تحت رعاية الرومانيين  
فيمتازون عن ولاة الروم باستقلالهم في حكومتهم الداخلية  
تحت شروط معلومة فيؤدون الجزية ويمدّون الرومانيين بالجند

من قبياتهم عند الحاجة وخصوصاً في حروبهم مع الفرس أو  
لعلهم كانوا من قبيل أصحاب الاقطاعات والمتعهدين

وكان العالم قبيل الاسلام تتنازعه دولتان عظيمتان: الفرس  
في الشرق والرومان في الغرب لا يكاد يفتر النزاع بينهما  
فيستعين الفرس بالمناذرة ملوك الحيرة وتستعين قيصر الروم  
بالغساسنة فتولد بين تينك القبيتين القريبتين المسيحيتين  
ضغائن توارثها الابناء عن الآباء وكثيرا ما كانت تضطرم  
الحرب بينهما حتى كاد يبيد أحدهما الآخر والنزاع بين الفرس  
والروم قديم وكأنه طبيعي بين المشرق والمغرب فقد كانت  
الحروب متواصلة قبلا بين الفرس واليونان ثم بين الفرس  
والرومان والآن بين أوربا وأهل الشرقيين الاقصى والادنى  
وكانت عاصمة الفرس المدائن وعاصمة الرومان القسطنطينية  
فقضوا أجيالا متوالية وهم بين حرب وصلاح

وكان بنو غسان تحت سيطرة الوالي الروماني المقيم  
بدمشق بأمر امبراطور الممانكة الرومانية الشرقية المقيم في  
القسطنطينية فترد الاوامر الامبراطورية من الامبراطور الى

والى دمشق وهو يبلغها الى ملك غسان وكان كرسي حكومة  
الغسانيين تارة فى عمان بالبلقاء وطورا فى تدمر وتارة فى  
بصرى عاصمة حوران فى ذلك العهد . وأول من ملك منهم  
جذنة بن عمرو بن ثعلبة دعا من كان قبله بالشام من الرومان  
والعرب الى طاعته فأجابوه وبني عدة مصانع ومن ملوكهم  
عمرو بن الحرث وكان شديد التكبر ذميا تبيح السيرة أنشأ فى  
دمشق وضواحيها عدة قصور شاهجة منها قصر القضاء وقصر  
منار وصور فى بعض هذه القصور مجالسه وجلساء دولته  
وأشكال صورته فكانت قصوره منزهات لا مثيل لها وكان  
رسم لنفسه فى كل ليلة جارية عذراء من السبايا التى تصيبها  
خيله المغيرة فى البلاد وكان ذلك دأبه حتى وقعت عنده فى السبي  
اخذت عمرو بن الصعق فلم يشعر إلا وأخوها قد وقف ببابه  
وهو يقول :

يا أيها الملك المهيب أما ترى      صبحا وليلا كيف يختلفان  
هل تستطيع الشمس أن يؤتى بها      ليلا وهلا بالصباح يدان  
فاعلم وأيقن ان ملكك زائل      وكما تدين تدان عقد رهان

فوقعت هذه الايات في قلبه وأثرت فيه وراجع نفسه  
فارتجعت عن غيرها وقال الله قد أمنك على من لك عندي وأمن  
كل الناس على من وقع لهم من السبايا وابطل تلك العادة من  
ذلك اليوم. وعندى أن رجوع هذا الملك للحق وتأثره بالنصيحة  
وتغلبه على نفسه من أعظم الصفات وأكرم الخصال والنضائل  
ومن ملوكهم جنة الاصغر بن المنذر الأكبر وكان  
يلقب بالمرقق لأنه احرق الحيرة لما أغار على أهلها ومنهم  
الحرث بن جبلة تملك من سنة ٥٢٩ لسنة ٥٧٢ ميلادية أوقع  
بنى كنانة وكان كثير المغازى والغارات على قبائل العرب  
كرما جوادا كثير المواهب حتى قيل إنه لم يجتمع من الشعراء  
بباب أحد من ملوك عصره ما كان يجتمع ببابه ويقال إن  
حسان بن ثابت الانصارى الشاعر المشهور—الذى عمرستين  
سنة في الجاهلية وستين في الاسلام— كان منقطعا اليه  
وله فيه مدائح كثيرة وكان ابتداء ملكه في زمن النعمان بن  
المنذر ملك الحيرة فكانت بينهما مغايرة في الشرف وروى  
أنه قال يوما لحسان على سبيل الاختبار بلغنى أنك نسبت الى

النعمان رفعة شأن وفضلته على فقال : وكيف أفضله عليك  
فوالله لقد لك أحسن من وجهه ولأمك أشرف من أبيه  
ولأبوك أشرف من جميع قومه ولشمالك أجود من يمينه  
ولحرمانك أنفع من نداء ولقليلك أكثر من كثيره ولثمادك  
أشرع من غديره ولكرسيك أرفع من سريره ولجدولك  
أغور من بحره وليومك أطول من شهره ولشهرك أمد من  
حوله ولحولك خير من حقه ولزندك أوردى من زنده ولجندك  
أعز من جنده وانك من غسان وانه من تخم فكيف أفضله  
عليك وأعدله بك؟ فقال: يا ابن الفريعة - وهو اسم أم حسان -  
هذا لا يسمع الا في شعر . فقال :

نبئت أن أبا منذر يساميك لالحرث الأصغر  
قد لك أحسن من وجهه وأمك خير من المنذر  
ويسرى يدك على عسرها كيمنى يديه على المعسر

وكان جوستانيان قيصر الروم وقتها يحبه ويكرمه حتى  
لقبه بلقب الملوك وكان في عصره من الشعراء النابغة وليد  
واصرؤ القيس ولما مات ملك بعده النعمان بن الحرث وكنيته

أبو كرب اجتهد أكثر من أجداده في نشر النصرانية في  
 بلاده وكان عادلاً شجاعاً فاضلاً كثير الخير قليل الشر حسن  
 الصورة والسيرة يحب العلماء ويقدمهم على أشرف الناس  
 وتوفي النعمان في بعض مغازيه قتيلاً سنة ٥٨١ ميلادية  
 وآخر ملوك غسان نجيلة بن الایهم تولى سنة ٦٣٦ كان  
 طويل القامة نحيف الجسم يلبس الثياب الفاخرة بنى مدينة  
 جبلة بين طرابلس واللاذقية وكان أسلم في أيام الخليفة الثاني  
 سيدنا عمر بن الخطاب رضی الله عنه حين افتتح الشام ثم  
 خرج الى مكة حاجاً بمائتين وخمسين رجلاً من قومه فلما قرب  
 من المدينة قلد أعناق خيله قلائد من الفضة والذهب ولبس  
 التاج ولما بلغ سيدنا عمر بن الخطاب رضی الله عنه قدومه  
 تلقاه ورحب به ورفع مقامه حتى اذا كان يوم الطواف بالبيت  
 والناس يطوفون وهو من جملتهم اذ وطئ أعرابي من بني  
 فزارة طرف ازاره فأنجل عنه الازار فغضب جبلة من ذلك  
 ولطم الفزارى لكمة هشم بها أنفه فتعلق به الرجل حتى قدما  
 الى عمر رضی الله عنه وشكا الفزارى حاله اليه فقال عمر لجبلة:

دعه يلطمك كما لطمته فقال جبة ألا يفضل ملك على سوقة؟  
قال عمر: كلا فان الاسلام سوّى بينكما، فغضب جبة من  
ذلك وصبر الى الليل حتى اجتمع بغلمانه وخرج بهم الى الشام  
ومنها سار الى قيصر ملك الروم حتى هلك وبذا انقرض ملوك  
غسان وأصبحت بلادهم عمالة اسلامية

**ملوك متفرقون بمجزيرة العرب** — جئنا على ذكر الدول  
الثلاث الكبرى التي كانت حاكمة على أطراف بلاد العرب أي  
مملكة اليمن ومملكة العراق ومملكة الشام. وما خلا هذه الدول  
الكبيرة كان في بلاد العرب عدة ممالك صغيرة مستقلة  
بأمرها ككندة ومعدّ وكلاب وغيرهم وقد وجد في بعض  
ملوك هذه الممالك من اشتهر بالحكمة والعدالة الا أنه لم يبق  
شيء يذكر من أخبارهم ولم يصلنا منها الا اشتغالهم بمحاربة  
بعضهم بعضاً وسنتكلم على بعضهم

**ملوك كندة** — تنسب قبيلة كندة لثور بن عفير من بني  
قطان — وقيل له كندة لانه كندأ بادأى حجد نعمته — أسست  
مملكة نجد من سنة ٤٥٠ ميلادية وأول من أسسها حجر بن



عمر والملقب بآكل المرار من ولد كندة المذكور وكانت  
 كندة قبل أن يملكها حبر بغير ملك فأكل قويتهم ضعيفهم  
 فلما تملك سدد أمورهم وساسهم أحسن سياسة وانتزع من  
 اللخمين ما كان بأيديهم من أرض بكر بن وائل واقب  
 بآكل المرار لأنه كان بلغه أمر أغضبه فاستشاط وصارياً كل  
 المرار وهو نبات مر الطعم إذا أكلته الأبل تقلصت مشاقرها  
 فتين له ذلك وقيل لأن أمه قالت عنه : كأنه جمل قد أكل  
 المرار . لبغضها له

وملك بعده ابنه عمر وتلاه ابنه الحارث وكان معاصراً  
 لملك الفرس كسرى قباد بن فيروز وظهر في أيام قباد رجل  
 يقال له مردك دعا الناس إلى الزندقة فوافق قباد وكان عمال  
 الفرس في الحيرة وفي الأنبار بنى لحم وهم ملوك الحيرة من  
 العرب المنتصرة وكان العامل منهم لقباد إذ ذاك المنذر ابن  
 ماء السماء فدعا قباد المنذر إلى الدخول معه في مذهب مردك  
 فأبى فدعا الحارث بن عمرو الكندي فأجاب فطرد المنذر  
 وولى الحارث كما مر ذكره عند الكلام على ملوك الحيرة

فلما أفضى الملك الى كسرى أنوشروان سنة ٥٢٦ م قتل مردك  
وكل اتباعه وولى المنذر قصر الحارث فجرد عليه كسرى فرسانا  
من بنى تغلب وبهراة وايد فنزل أرض كلب بين الحجاز والعراق  
فانتهبوا ماله وهجأته وساقوا معهم ٤٨ نفساً من أهله الى  
المنذر فضرب رقابهم . أما هو فنجبا بنفسه ورجأ الى بنى كلب  
الى ان مات ويقال انهم تتلوه وكان للحارث هذا خمسة بنين  
وهم حجر وشرحبيل ومعد يكرب وعبد الله وسلمة وانفق  
وهو عامل لقباذ في الحيرة ان القبائل في نجد وما والاها - وفيهم  
بنو أسد وغطفان وبكر وحنظلة ودارم وتغلب والنمر بن قاسط  
وغيرهم - اختلفوا فيما بينهم فجاء اشرافهم الى الحارث يحكمونه  
على أن يولى عليهم أبناءه فأجاب دعوتهم وولى كلا من ابنائيه  
على قبيلة أو أكثر من هذه القبائل فكان حجر على بنى أسد  
وغطفان فوضع غايبهم الاتاة الجزية في الهائلة فقبلوها في أول  
الامر ثم انتقضوا عليه وأبو دفعها وكان حجر اذ ذلك في تهامة  
فبعث اليهم الجابي فضربوه وجرحوه فجرد عليهم جندا من  
رجال اخوته فاعمل فيهم العصا وأباح أموالهم وقادهم الى تهامة

فصبروا على الضيم وتآمروا وقالوا: والله إن تهر كم هذا ليحكمنا  
عليكم حكم الصبي فما خير عيش يكون بعد قهز وأتم بحمد الله  
أشد العرب فموتوا كراما . وساروا حتى تمكنوا من حجر  
فقتلوه شر قتلة بنجر طويل لا محل له هنا وكان لحجر هذا  
غلام اسمه امرؤ القيس أمه فاطمة أخت كليب ومهلل ابني  
زهير التغلبيين وكليب هو الذي كانت تقول العرب فيه :  
أعز من كليب . وبمقتله هاجت حرب بكر وتغلب . وكان  
امرؤ القيس زكي النواد شاعرا مثملا وكان ملوك العرب في  
تلك الايام يأنفون من الشعر أن يقولوه هم أو يقوله أولادهم  
وكان امرؤ القيس كلفا به حتى ندى منصب والده ومنزله  
من السيادة والقوة فطرده والده وآلى على نفسه أن لا يقيم  
معه فكان امرؤ القيس يسير في احياء العرب ومعه جماعة  
من اقيف القبائل من طيء وكلب وغيرهم وفيهم المغنون والندماء  
والشعراء فيطوفون احياء العرب فاذا لقوا غديرا او روضة  
نزل وذبح الذبائح لرفاقه وخرج للصيد فتصيد وعاد فأكل  
وأكلوا معه وشرب الخمر وسستمهم فلا يزال كذلك أياما ثم

ينتقل الى مكان آخر ولما قتل أبوه كان في مكان يقال له دمون في ارض اليمن مع نديم له يسميه الحجر ويلعبه بالترد فجاءه الرسول بنخبر والده فلم يلتفت الى قوله بل أمسك نديمه وقال له : اضرب فضرب حتى اذا فرغ من غنائه قال له : لم أشأ أن أفسد عليك دستك. ثم سأل الرسول عن امر ابيه فأخبره فقال : الحجر على النساء حرام ولا أدهن بدهن ولا أغسل رأسي من جنابة حتى اقتل من بني اسد مائة وأجزع نواصي مائة. واعتم بالعمامة السوداء وكان امرؤ القيس اذ ذلك في نحو العشرين من عمره فارتحل الى بكر وتغلب في شرقي نجد — وبنو تغلب أخواله لان أمه منهم كما تقدم — واستنجدهم فبثوا له العيون والارصاد على بني اسد وكان بنو اسد مقيمين في بني كنانة فعلموا بذلك فارتحلوا في بعض الليالي وبنو كنانة لا يعلمون وكانت العيون قد انبأت امرؤ القيس بأن بني اسد في كنانة فحمل بنو بكر وتغلب حتى جاء الحى وهجم على أهله ووضع السلاح فيهم وهو يقول : يا لثارات الملك يا لثارات الهمام . فخرجت اليه عجوز من بني كنانة فقالت : أبيت اللعن

لسنا لك بشار: نحن من كنانة . فعلم أنهم فرّوا فتعقبهم ولم  
يدركهم ثم غادر بكرا وتغلب واستنصر ازد شنوءة فأبوا أن  
ينصروه وقالوا: بنو أسد اخواننا. فنزل بملك يقال له مرثد الخير  
من بني حمير وكانت بينهما قرابة فاستمده على بني أسد فأمدته  
بخمسةائة رجل من حمير ثم مات مرثد قبل رحيل امرئ  
القيس بالجيش وخافه رجل من حمير يقال له قرمل بن الحميم  
فأظفر رغبته عن نصرته فهم امرؤ القيس بالانصراف فحجبل  
قرمل وانفذ معه الرجال وتبعه اخلاط من العرب ومستأجرين  
منهم فسار بهم الى بني أسد ويقال انه صرفى طريقه بمكان يقال له تباله  
فيه صنم تعظمه العرب اسمه ذو الخصلة فاستقسم عنده بقداحه  
فأصاب أن لا يذهب فجمع القداح وكسرها وضرب بها وجهه  
الصنم وسار حتى اتى بني أسد فظفر بهم واخذ بشار ابيه فشكوا  
أمرهم الى المنذر فبعث جندا في طلبه من أياد وبهراء وتنوخ فلم  
يظفروا به فأمدهم كسرى بجيش من الاساوره فسر حهم المنذر  
في طلبه فخاف انصار امرئ القيس الحميريون وتفرقوا عنه فنجا  
هو وبعض أقاربه والتجأ الى الحارث ابن شهاب من بني يربوع

وكان مع امرئ القيس خمس أدرع كانت لبني آكل المرار  
 ملوك كندة يتوارثونها ملكاً عن ملك . فلم يكادوا يقيمون  
 عند الحرب حتى يبعث المنذر إليه أن يسلمهم أو يحاربهم فخرجهم  
 ونجا امرؤ القيس ومعه ابنته هند والأدرع والسلاح ومال  
 كان بقي معه بخرج على وجهه يستنصر القبائل فجاء سعد بن  
 الضباب سيد بني إياذ - وسعد هذا أخو امرئ القيس من  
 أبيه لأن أمه كانت تحت حجر أبي امرئ القيس فطلقها وهي  
 حامل فتزوجها الضباب فولدت سعداً على فرشه ومن عادة  
 العرب أن ينسبوا المولود إلى الفراش الذي يولد عليه - فأقام  
 امرؤ القيس عند أخيه هذا أياماً ثم تحول عنه إلى أرض طيء  
 في شمال نجد عند رجل من بني جديلة اسمه المعلى وأقام هناك  
 زمناً طويلاً ثم ارتحل إلى غيرهم وما زال يرحل من حى إلى  
 آخر بأدرعه وسلاحه وماله فراراً من المنذر حتى وصفوا له  
 السموأل ابن عدياء الأسرائيلي المشهور بالوفاء صاحب حصن  
 الأبلق بتياء والحصن بناه عدياء جد السموأل واحترق فيه  
 بئراً وكانت العرب تنزل فيه ضيوفاً يأكلون ويشربون أياماً

ويقيمون فيه سوقاً فوفد امرؤ القيس على السموأل بابتته هند  
وبضعة من أهله فضرب السموأل قبة انزل فيها هنداً وانزل  
الرجال في مجلس له براح فأقام عنده اعواماً على الرحب والسعة  
والمندر لا يزال يطلبه ويبحث عنه فأشار بعضهم على امرئ  
القيس ان يلتجئ الى قيصر الروم يستنصره على المنذر وكانت  
بين الروم والفرس عداوة كما لا يخفى وكان عامل الروم على  
الشام الحارث بن ابي شمر الفسائي الاكبر فتقدم امرؤ القيس  
الى السموأل ان يتوسط له عند الحارث ليوصله الى القيصر  
— امبراطور الرومانيين — ففعل وسار امرؤ القيس ومعه رجل  
يدله على الطريق واستودع السموأل ابنته هنداً وسائر بنيه وأدرعه  
وماله وكان قد باغ المنذر نزول امرئ القيس عند السموأل  
فوجه الحارث بن ظالم في خيل بالقبض عاينه ثم علم بخروجه  
الى القيصر فأمره ان يأتي بادرائه وماله فوصل الحارث بن  
ظالم الى حصن الابلق فمنعه السموأل من الدخول واقفل  
الحصن دونه فضرب الحارث اطنابه خارج الحصن وكان  
للسموأل ابن خرج للصيد في صباح ذلك اليوم فلما رجع قبض

الحارث عليه وقال للسموأل - وقد اطل من فوق السور -  
 اتعرف من هذا؟ قال نعم هذا انى: قال افتسلم ما عندك لا امرىء  
 التيس أم اقتله؟ قال شأنك به فليست اخفر ذمتى ولا اسلم مال  
 جارى! فنصح له ان يسلم الادرع اثلا يقتل الغلام فأبى فتناول  
 سيفاً و ضرب به وسط الغلام فقطعه قطعتين وانصرف عنه  
 وفي ذلك يقول السموأل

وفيت بادرع الكندى انى      اذا ما ذم اقوام وفيت  
 واوصى عاديا يوما بأن لا      تهيم ياسموأل ما بنيت  
 بنى لى عاديا حصنا حصينا      وماء كلما شئت استقيت

اما عمرو القيس فانه سار حتى انتهى الى القسطنطينية وفي  
 اثناء سيره مل رفيقه فقال عمرو القيس

تقطع اسباب الايانة والهوى      عشية جاوزنا حماة وشيزرا  
 بكي صاحبي لما رأى الدرب دونه      وأيقن انا لا خقان بقيضرا  
 فقلت له لا تبك عينك انما      نحاول ملكا ونوت فنعدرا

فلما وشد على القيسر استقبله واكرمه لما عرف من نسبه  
 وشرفه وأخبره عمرو القيس بخبره وما جاء من أجله فأجدهم



بجيش وقوة ولكن بنى اسد ما اتفكوا يراقبون حر كاته  
وسكناته فلما علموا بوفوده على القيصر بعثوا رجلا منهم اسمه  
الطماح ليفسد عليه امره - وكان امرؤ القيس قتل أخاه - فجاء  
التسطنطينية مستخفيا فلما علم بما لاقاه من النجدة وثى به  
لدى بعض رجال الدولة واتهمه أنه هوى بنت القيصر وقال  
فيها اشعارا الى غير ذلك فيقال ان القيصر لما بلغه ذلك بعث  
الى امرئ القيس بحلة منسوجة بالذهب جعل فيها سما يتصل  
منها الى بدنه وقال له انى بعثت اليك بحلتى التى كنت البسها  
تكرمة لك فاذا وصلت اليك البسها باليمن والبركة واكتب  
الى بنخبرك جيما نزلت فلما وصلت اليه لبسها فتقطر بدنه وصار  
يحمل فى محفة ولذلك قال :

لقد طمىح الطماح من بعد أرضه      ليلبسنى من رأيه ما تلبسا  
فبدلت قرحا داميا بعد صحة      فيالك من نعمى تحولت أبوسا

وما زال امرؤ القيس سائرا حتى وصل انقرا فى آسيا  
الصغرى فاشتد به المرض وعجز عن المسير فأقام هناك وقد  
أيقن بدنو الاجل ويقال إنه شاهد فى سفح جبل اسده عسيب

بأنقرا قبرا لامرأة من بنات الملوك ماتت هناك ودفنت فيه  
فأنشد :

اجارتنا ان الخطوب تنوب      واني مقيم ما اقام عسيب  
اجارتنا انا غريبان ههنا      وكل غريب للغريب نسيب  
فان تصلينا فالقراية بيننا      وان تصر مينا فالقريب غريب  
ثم مات ودفن هناك وعاد الجند الى القسطنطينية فلما  
بلغ السموأل خبر وفاته سلم الادرع والمال وكل ما خلقه  
امرؤ القيس الى عصبته وكانت وفاته سنة ٥٣٠ مسيحية وقيل  
سنة ٥٤٠ وبموته وبموت أبيه من قبل انهزمت بنو كنده وكان  
آخر العهد بهم

وكان امرؤ القيس حسن الصورة جميل الخلقة تزوج  
مرارا ولكنه كان شديد الغيرة على بناته فاذا ولدت له ابنة  
وأدها فلما رأى ذلك نساؤه غيبن بناتهن في أحياء العرب  
وبلغنه ذلك فتبعهن حتى قتلهن ولم يبق الا هند المتقدم ذكرها  
وأما شعره فانه جمع الى فصاحة الجاهلية وبلاغتها رقة أهل  
الحضر . ولما ظهر الاسلام كان حديث امرئ القيس متداولاً

في احياء العرب لقرب عهده منهم فلما سمع النبي صلى الله عليه وسلم بشعره قال : هو رجل مذکور في الدنيا شريف فيها منسى في الآخرة خامل فيها يجيئ يوم القيامة ومعه لواء الشعراء الى النار . وكان مبتكرا في الشعر له فيه الاختراعات الحسنة وقد مر ذكره عند التكلم على أصحاب المعلقة ومن شعره في معلقته

أفاطم مهلا بعض هذا البدل وان كنت قد ازمت صرعى فاجلى  
أغزك منى ان حبك قاتلى وانك مها تأمرى التلب يفعل  
وانك قسمت النواد فنصفه قتيل ونصف في حديد مكبل  
فانك قدساءك منى خلية فسلى ثيابى من ثيابك تنسل  
وما ذرفت عينك الا لتضربى بسهميك فى أجشاء قلب ممتل

ومن ملوك العرب المتفرقين أيضاً - عمرو بن لحي بن حارثة من ولد كهلان بن سبأ كان ملكا في الحجاز شائع الذكر في الجاهلية واليه تنسب خزائه فيقال انها من سلالة وكان جلوسه على سرير الملك سنة ٢٠٧ مسيحية وهو أول من أتى بالاصنام الى مكة من أرض الشام واقامها في البيت الحرام

ودعا الناس الى تعظيمها والتترب اليها والتوسل بها وكانت  
ينكر بعث الاجسام وهو القائل :

حياة ثم موت ثم حشر      حديث خرافة يا أم عمرو

ومنهم أيضاً زهير بن حباب بن هبل قيل له الكاهن  
لصحة رأيه وهو من اهل اليمن واحدمن اجتمعت عليه قضاة  
وأطاعته غزوات كثيرة وكان شجاعا سعيدا في غزواته  
وفد على أبرهة الاشرم الحبشى فأكرمه وفضله على من  
أتاه من العرب وقلده امارة بنى بكر وتغلب ابني وائل واستمر  
زهير اميرا عليهم حتى خرجوا عن طاعته فغزاهم وتتل فيهم  
وكانت جموع العرب تحارب معهم وجرى له مع المذكورين  
حروب يطول شرحها واخيرا انتصر عليهم وهزمهم وأسر  
كليبا ومهايلا ابني ربيعة وجماعة من فرسانهم ووجههم وغزا  
ايضاً بنى غطفان حينما جعلوا لهم حرما مثل حرم مكة وولوا  
سدانته بنى مرة بن عوف وانتصر عليهم واسرهم واخذ فارساً  
منهم في حرمهم فقتله وعطل ذلك الحرم

وقد عمر زهير عمرا طويلا فلما أسنّ استخلف ابن أخيه

عبدالله بن عليم لانه لم يكن له ولد فقال زهير يوما الا ان  
الحى ظاعن فقال عبد الله ألا إن الحى مقيم فقال زهير من  
هنا المخالف على فقالوا ابن أخيك فقال : اعدى المرء للمرء  
ابن أخيه وانشأ يقول :

الموت خير للفتى فليهلكن وفيه بقية  
من ان يرى الشيخ الكبير اذا تهادى فى العشية  
من كل ما نال الفتى قد نلته الا التحية  
وقال أيضا :

لقد عمرت حتى ما أبالى اختفى فى صباح ام مساء  
وحق لمن أتت مئتان عاما عاياه ان يحل من الثواء  
ثم شرب الخمر صرفا حتى مات

ومنهم كليب وائل بن ربيعة بن الحارث بن زهير كان  
سيد بنى ربيعة فكانوا لا ينزلون ولا يرحلون الا بأمره وكان  
عزيرا مهيبا بينهم لا توقد نار مع ناره ولا ترد ابل مع ابله  
ولا يجتبي فى مجلسه ولا يتكلم الا ان يسأل وكان يلقي كلبا  
صغيرا فى اطراف مراعيه فاذا اقبل الرعاة وسمعوا صوته

تأخروا عنها وقالوا هذا كليب وائل فكثرت استعمال ذلك حتى صار لقباله وكان مسكنه بتهامة ثم داخله زهو شديد وبني على قومه فصار يحمي عليهم مواقع السحاب فلا يرعى في جهاه أحد ويقول وحش ارض كذا في جوارى فلا يصاد وبقي كذلك الى أن رأى يوماً بجوار ابله ناقة لرجل من بني جرم اسمه سعد بن شمر فأنكرها ورماها بسهم أصاب ضرعها فوات حتى بركت بفناء صاحبها وضرعها يشخب دماً ولبنا فلما رآها صاحب فخرجت البسوس — بنت منقذ التميمية خالة جساس بن مرة وكانت جارة الجرمي — ونظرت الى الناقة فلما رأت ما بها ضربت يدها على رأسها ونادت واذلاه وانشأت تقول :

لعمرك لو أصبحت في دار منقذ لما ضيم سعد وهو جار لا ياتي  
ولكنني أصبحت في دار غريبة متى يعد فيها الذئب يعد على شاتي  
فيا سعد لا تغرر بنفسك وارتمل فانك في قوم عن الجار اموات  
فلما سمع جساس قولها اسكتها وصار يتربص لكليب  
حتى باغته يوماً وقتله ورجع الى قومه وفرسه يركض تحته

وقد بدت ركبته فلما نظره أبوه مرة قال لقومه قد اتاكم  
جساس بداهية: ما رأيته قط بادي الزكيتين الا اليوم ثم سأله  
عما فعل فقال طعنت طعنة يجتمع بنو وائل غدا لها رقصا. فسأله  
ومن طعنت لأمك الشكل؟ قال قتلت كليبيا. قال بئس والله  
ما جئت به قومك ثم ان مرة دعا قومه الى نصرته فأجابوه  
وكان همام ولده الثاني ومهمل اخو كليب في ذلك الوقت  
يشربان الخبز مع بعضهما فبعث مرة جارية من عنده تخبره  
الخبر سرا وتأمره بالحضور خوفا عليه من القتل فلما انتهت  
اليه الجارية أشارت اليه وأخبرته بما صار فسأله مهمل عما قالت له  
الجارية— وكان بينهما عهدان لا يكتم احدهما شيئا عن الآخر—  
فذكر له الخبر فقال له مهمل: إست اخيك اضيق من ذلك  
ولكن إشرب فالיום خمر وغدا أمر. واقبلا على شراهما  
فشربا فلما سكر مهمل خاف همام منه وانصرف الى أهله  
وساروا الى جماعة قومهم من بني بكر وظهر أمر كليب فشقت  
النساء عليه الجيوب وخرجت الا بكار وذوات الخدور من  
اليوت يندبنه وأخيرا اجتمع مهمل على قومه من تغلب وشمر

جساس وجرت بين الفريقين عدة وقائع قتل فيها من الفريقين خلق كثير واستمر الحال على ذلك الى أن كان المهلهل واجعاً من اليمن الى ديار قومه وكانت منفردا ليس معه أحد فلقبه عوف ابن مالك من البكرين وكان نازلاً بنواحي مدينة يثرب فأخذه فمكث في أسره ما شاء الله ومات . هكذا قيل :  
وقيل بل كان قد أسن وله عبدان يخدمانه فخرج بهما يريد سفراً حتى اذا نزل في بعض الثلوات نام تحت ظل شجرة وكان العبدان ملاً من خدمته ولطول بلائه لهما عزم على قتله وأحس بذلك مهلهل ولم يجد بداً من التخلص فقال لهما اذا أتيتما الحى فقولوا هذا البيت

من مبلغ الاقوام ان مهلهلا لله دركما ودر بيكما  
فقتلاه ورجعاً لحيه فسألها أهله أين سيدكما قالا مات  
بأرض كذا فدفناه بها واديا الشعر الذي قاله لهما فقالوا ما هذا  
شعر مهلهل لانه لا معنى له وفكرت فيه بنت له تسمى سلمى  
فقلت والله ما كان أبى ردى الشعر ولا سفساف الكلام  
وانما أراد به أن يخبركم ان العبدين قتلاه وهو يريد



من مبلغ الاقوام ان مهلهلا أضحي قتيلا في الفلاة مجندلا  
 لله دركما ودر بيكما لن يبرح العبدان حتى يقتلا  
 فضربوا العبدن فأقرا بقتله فقتلوهما فيه وبذا انتهت  
 الحرب بين بني تغاب وبني بكر المشهورة بحرب البسوس  
 نسبة الى من كانت السبب في اضطرامها بعد أن دامت بين  
 القوم اربعين سنة من سنة ٤٩٠ لسنة ٥٣٠ مسيحية فكم من  
 نفس بريئة قتلت ومن دماء سفكت ومن روح زهقت  
 وقيائل ضعفت!! وما منشأ كل ذلك سوى الظلم والاسترسال  
 في البغي والغلو في الانتقام واكن قدر فكان

ومن ملوك العرب قيس بن زهير بن خزيمه العبسي  
 كان من دهاة العرب وكان يقال له قيس الرأي لصحة رأيه  
 ووفور حكمته استولى على ملك بن زهير بعد قتله في بني عامر  
 حتى وقعت الحرب بين بني عبس وفزارة بسبب سباق الخيل  
 كما مر في غير هذا الفصل فاجتق بنو النمر بن قاسط وكان  
 قد افتقر وساءت حالته فاقام بينهم وتنصر وما زال عندهم الى  
 أن مات. والى هنا نتنصر في ذكر ملوك العرب فاننا لو

حاولنا ذكرهم جميعاً أو ذكر كل القبائل القحطانية التي سكنت  
جزيرة العرب لما استطعنا لذلك سبيلاً ويلزم لذلك مجلدات  
فالاقتصار أولى



### ﴿ الفصل الرابع ﴾

( طبقة العرب الباقية )



### العرب المستعربة

أسباب مجيء اسماعيل عليه السلام الى مكة — مصاهرته لبني جرهم بن  
قطان — عمارة البيت الحرام بمكة — أمراء الحجاز وولاية البيت وسدانة  
الكعبة — فضل قريش على من عداها واجتماع مناصب الشرف فيها —  
اغارة الحبشة على مكة — واقعة الفيل — ولادة النبي صلى الله عليه وسلم .  
رضاعه ونسبه ونشأته وتربيته وحالته وسيرته بين قومه حين بعثته — مجمل  
أحوال العالم في ذلك العهد

أسباب مجيء اسماعيل عليه السلام الى مكة ومصاهرته  
لبني جرهم — روى ان ابراهيم عليه السلام استمر دهرًا  
طويلاً لا يولد له ولد فوهبت له زوجته سارة جارية لها  
اسمها هاجر وهبها اياها عزيز مصر حين وفد عليه ابراهيم

وزوجته في خبر ليس هذا محل ذكره وقالت له حين وهبته  
 إياها: انى حرمت من الولد فلعل الله ان يرزقك منها ولد اتقر  
 به عينك. فأحبها ابراهيم لجمالها وعقلها ودينها فلما حانت باسماعيل  
 وولده أخذت سارة الغيرة وقالت لزوجها: ان الله تبارك وتعالى  
 جعل صداق عليك رضاي وطاعتي وأنا امرؤ ان تجمل هذه  
 الجارية وابنها الى بلد لا ماء فيه ولا زرع فتسكنهما فيه. قال  
 افعل ذلك فأمر الله تعالى ابراهيم بالمسير الى مكة فساروا  
 وانزلها هناك والبيت يومئذ ربوة حمراء مشرفة على مساواها  
 ولم ينزل ابراهيم عن مطيته فنادته هاجر: يا بني الله الى من  
 تكلنا؟ قال الى الله تعالى واستودعكما اياه. فقالت له: الله امرك  
 بهذا؟ قال نعم قالت: اذا لا يضيعنا. فرجع ابراهيم الى الشام ولما  
 ولى قال - كما ورد في القرآن الكريم - : «رب انى اسكنت من  
 ذريتي بواد غير ذى زرع عند بيتك المحرم ربنا ليقيموا الصلاة  
 فاجعل أفئدة من الناس تهوى اليهم وارزقهم من الثمرات  
 لعلهم يشكرون» ثم ان هاجر أقامت عريشة وكان معها وعاء فيه ماء  
 فخذ الماء وعطشت هي وولدها عطشا شديدا وأخذت تتردد بين

الصفى والمرورة مهرولة بين الميلىن الاخضرىن الموجدىن للآن  
 — والهرولة باقىة للآن فى السمى من مناسك الحج تذكاراً لما  
 حصل من هاجر فى ذلك الحىن — ثم تضرعت الى الله تعالى  
 فانفجرت لها عىن زمزم فأخذنا يشربان منها زمنا وكانت بنو  
 جرهم — وهو الذى كان ولاه أبوه قحطان على الحجاز كما قدمنا —  
 بواد قرىب من مكة فلما شاهدوا الطىر تحوم حول الوادى بعد  
 ان كانت لا تأوى الىه قالوا ما لزمته إلا وفيه ماء فجأوا الى  
 اسماعىل وأمه فأخبرتهم بنخبرها فقالوا لولا أن هذا الغلام كرىم  
 على الله تعالى ما نبع له الماء من هذا المكان واستأذنوا منها أن  
 ينتقلوا بأهالىهم فىقىموا معها وان هذا الغلام متى اراد اخراجهم  
 من هذا المحل خرجوا منه واشترطوا له علىهم المواساة فى  
 أموالهم ورثاسته علىهم عند ادراكه فانتقلوا جمىعا وابنتوا  
 المنازل والىوت ونشأ اسماعىل مع أولادهم وكانت لغتهم  
 العربىة الصعىحة — وهى لغة أولاد بنى معد التى نزل بها القرآن  
 الشرىف — فتعلمها منهم ثم لما بلغ الاربعىن بعث الى العمالىق  
 وجرهم وقبائل الهمى وكانوا يعبدون الاوثان فأمن بعضهم

وذهب كثير من العلماء الى أن اسماعيل عليه السلام هو الذبيح وان ذلك كان في شعب من مكة وأنه فدى بكبش. وذهب آخرون الى أن الذبيح كان اسحاق .

وقد صاهر اسماعيل بنى جرهم وولد له من رعدة بنت مضاض اثنا عشر ذكراً وبنت ومات بمكة ودفن ما بين الميزاب والحجر الى جنب قبر أمه هاجر

عمارة البيت الحرام بمكة — كان ابراهيم يزور ولده اسماعيل عليهما السلام من وقت لآخر ولما زاره آخر مرة أمره الله تعالى ببناء البيت الحرام وأرسل له السكينة — وهي ريح خجوج — فسار معها ابراهيم حتى انتهت الى موضع البيت فبنى ابراهيم وساعده اسماعيل وكانا كلما بنيا دعوا الله « ربنا تقبل منا انك أنت السميع العليم » فلما ارتفع البنيان وضعف ابراهيم عن رفع الحجارة قام على حجر وهو مقام ابراهيم ولما فرغ من بناء البيت أمره الله تعالى بالآذان كما ورد في قوله تعالى : وأذن في الناس بالحج يأتوك رجالا وعلى كل

ضامر يأتين من كل فج عميق . وانصرف ابراهيم الى الشام  
ومات هناك

أمراء الحجاز وولاية البيت وسدانة الكعبة وفضل قريشه  
على من عدلها واجتماع مناصب الشرف فيها — اختلف  
المؤرخون في أمر الملك على الحجاز بين جرهم وبنى اسماعيل  
فمن قائل ان الملك كان في جرهم ومفتاح الكعبة وسدانتها  
مع بنى اسماعيل ومن قائل ان قيذار — أحد اولاد اسماعيل  
الاثني عشر — توجهت اخواله جرهم وماكود عليهم بالحجاز. وقد  
كانت سدانة البيت الحرام ومفاتيحه في بنى اسماعيل بلا خلاف  
حتى انتهى ذلك الى نابت من ولد اسماعيل فتغلب عليه بنو  
جرهم وأخذوها منه وبقيت فيهم حتى بغوا واستحلوا حرمة  
البيت وظلموا من دخل مكة من الحجاج وغيرهم وظهر فيهم الزنا  
والفساد فسلط الله عليهم الرعاف وأضعفهم. ثم اجتمعت خزاعة  
لما خرجت من اليمن ونزلت بمكة وأخرجت جرهما من الحرم  
وبقيت ولاية البيت وسدانة الكعبة في خزاعة الى أن أخذها  
منها قصى — الجند الخامس للنبي صلى الله عليه وسلم — وبعد أن

صار في يد قصى ولاية البيت ومفتاح الكعبة جمع قبائل قريش وكانت متفرقة في البوادي وأسكنها الحرم وكانت تدعى قبل التجميع النضر بن كنانة وسماها قريشاً من التقريش وهو التجميع وقال بعضهم إنما سميت قريشاً لدابة في البحر هي أعظم دوابه خطراً لا تظفر بشيء من دواب البحر إلا أكلته فسميت قريش بهذا الاسم لأنها كانت أعظم العرب بمكة وقال بعضهم أيضاً إن هذا الاسم مأخوذ من التجارة لمعاطاة أهل قريش التجارة رمن الجاهلية .

وأول دار بنيت بمكة دار الندوة وتسمى دار المنتدى بناها قصى لتكون مجلس القوم نهاراً يجتمعون فيها للمشاورة في الأمور المهمة وهو الذي بنى المسجد الحرام بجبل المزدلفة وكان يسرج عليه أيام الحج فسماه الله مشعراً وأمر بالوقوف عنده وتنتهي قبائل قريش إلى فهر بن مالك . وكان قصى يعثر من دخل مكة من غير أهلها فاجتمع لقريش في ذلك الوقت الرئاسة على قومهم وأطاعتهم العرب واجتمع لهم ما لم يجتمع لغيرهم من مناصب الشرف في ذلك الوقت وهي الحجابة

والسقاية والرفادة والندوة واللواء والقيادة: فالحجابه هي سدانة البيت الشريف أى تولية مفتاح بيت الله . والسقاية اسقاء الحج كماهم الماء العذب وكان نادرا بمكة يجلب اليها من الخارج لسقاية الحاج . وأما الرفادة فهي اطعام سائر الحاج فكانت تمد لهم الاسمطة فى أيام الحج . وأما الندوة فهي الشورى فكان يجتمع فيها من قريش ومن غيرهم من العرب وأهل الرئاسة من بلغ من العمر أربعين سنة فما فوق ولا يعتمد عقد نكاح من قريش الا بها . أما اللواء فراية معقودة على رمح ينصبونه علامة على اجتماع الجيش لحرب الأعداء فيجتمعون تحت هذه الزاية ويقالون عندها . والقيادة امارة الجيش ورئاسة الحرب

فكانت هذه هى مناصب الشرف فى الجاهلية وانتهت الى عشرة أبطن من قريش وكلهم من أولاد قصي الذى أسس وحدثهم وجمعهم وأوجد لهم هذه الوظائف وبقيت لهم فى الاسلام كذلك والعشرة أبطن هم: هاشم وأمية ونوفل وعبد الدار وأسد وتيم ومخزوم وعدي وجميع وسهم



ولما كبر قصى وكان ابنه عبد مناف ساد قومه وانتهت  
اليه الرئاسة في حياة أبيه شكا اليه عبد الدار ولده الثاني ضعفه  
في قومه فاعطاه دار الندوة وحجابه الكعبة واللواء والسقاية  
والرفادة. أما اللواء فبني في بنيه إلى أن جاء الاسلام فأبطله  
وأما الرفادة والسقاية فان بني هاشم وبني عبد شمس وبني  
المطلب وبني نوفل أولاد عبد مناف أجمعوا على أخذها من  
بني عبد الدار لشرفهم عليهم ففرقت قريش مع الهريقين  
فكان بنو زهرة وبنو أسد وبنو تميم وبنو الحرث مع عبد  
مناف وكان بنو سهم وبنو جمح وبنو مخزوم وبنو عدى مع  
بني عبد الدار وتحالف كل فريق مع حزبه وتهيأوا للقتال ثم  
انتهوا إلى الصلح على أن يكون السقاية والرفادة لبني عبد مناف  
فكانت بعده في هاشم ابنه ثم للمطلب أخيه ثم لابن طالب  
ثم أعطاهما لأخيه العباس وأما دار الندوة فبقيت لعبد الدار  
وولده من بعده حتى جعلت دار الإمارة بمكة ثم دخلت الحرم  
فيما بعد وأما الحجابة فبقيت في بني عبد الدار إلى الآن وهم  
بنو شيبه بن عثمان بن أبي طلحة بن عبد العزيز بن عثمان بن

عبد الدار — ويقولون أن أول عداوة بين أمية بن عبد شمس وبين أخيه هاشم هو أنه لما كان لهاشم السقاية والرفادة حسده أخوه المذكور على سيادته واطعام الطعام ونافره فتحاكما إلى الكاهن الخزاعي بعسفان على خمسين ناقة والجللاء عن مكة عشر سنين فقتل الكاهن لهاشم فأخذ الأبل ونحرها وأطعمها الناس ورحل أمية إلى الشام عشر سنين فكانت أول عداوة بينهما

ولنقتصر هنا أيضاً على ما ذكرنا من قريش وبنطونها إذ لا يسعنا مهما طولنا أن نأتي على ذكر كل القبائل العدنانية فعددها يجمل عن الحصر والاقتصار على ما أوردنا أولى

اغارة الحبشة على مكة وواقعة الفيل — سبق لنا عند ذكر تغلب الحبشة على القوم بأن أبرهة الأشرم ملك الحبشة اندار على مكة المشرفة يريد هدم الكعبة وكان بنى كنيسة بصنعاء اليمن لما كان مستولياً عليها واران ان يصرف إليها الحاج فخرج رجل من بنى كنانة فقدم فيها ليلاً وقضى حاجته بها فأغازه ذلك وحلف ليهدم الكعبة فخرج ومعه جيش

عظيم وفيه المشهور وأثنا عشر فيلا غيره فلما قرب من مكة خرج لهم أبو رغال الماعون وهو من عرب قريش ليخون وطنه ويدل أعداءه على طريقة الدخول لمكة فكان هو أوّل من مات وأوّل من خان من العرب ولذلك رجعت العرب قبره كما يرجه للآن كل الحجاج حتى صار ذلك من مناسك الحج . فانظر بأى عين كان العرب ينظرون الى رذيلة الخيانة التي تأبأها طباعهم ! وفي رمى الجمار هذا اشارة خالدة الى الابد لهذه الخيانة عبرة لمن يعتبر! ثم ان أبرهة لما اشرف على مكة شن الغارة على اطرافها كما هي العادة فسأقت خيل له مائتين بعيرا لعبد المطالب - جد النبي صلى الله عليه وسلم - وكان هو الامير وقتها فهم اهل الحرم لقتاله ثم عرفوا انهم لا طاقة لهم به فتركوه وبعث أبرهة إلى أهل مكة يقول لهم: إني لم آت لحربكم وإنما جئت لهدم هذا البيت فان لم تعرضوا دونه بحرب فلا حاجة لي بدمائكم . فقال عبد المطالب لسفيره: والله لا نريد حربه وما لنا به من حاجة هذا بيت الله وبيت خيله ابراهيم صلى الله عليه وسلم فهو يحميه ممن يريد هدمه .

ثم خرج عبد المطاب الى ابرهة وكان عبد المطاب جسيما وسيما  
جليلا ما رآه أحد الا أحبه وكان مجاب الدعوة فقيل لا برهة  
هذا سيد قريش الذي يطعم الناس في السهل ويطعم الوحش  
والطير في رؤس الجبال فلما رآه أحبه واجلسه معه على سريره  
ثم قال لترجمانه قل له سل حاجتك فقال: حاجتي أن يرد الملك  
على ابي. قال له ابرهة: قد كنت اعجبتي حين رأيتك ثم زهدت  
فيك حين كلمتني! أتكلمني في مائتي بعير وتترك بيتا هودينك  
ودين آباءك قد جئت لخدمه فلم تكلمني فيه؟! فقال عبد المطاب  
إني انا رب الابل اما البيت فله رب يحميه. فرد ابرهة على  
عبد المطاب ابله ثم انصرف الى قريش فأخبرهم الخبر وامرهم  
بالخروج من مكة الى الجبال ثم قام فأخذ بجملة باب الكعبة  
ودعا الله تعالى قائلا:

لاهم ان العبد يمنع	رحله فامنع رحلاك
وانصر على آل الصليب	وعابديه اليوم آلك
لا يغابن صليبيهم	ومحالم ابدا محالك
ولئن فعلت فانه	أمر تتم به فعالك

أنت الذي ان جاء با غ نرتجيك له فذلك  
 لم أستمع يوما بأر جنس منهم يبغون قتالك  
 جروا جوع بلادهم والفييل كي يسبوا اعيالك  
 عمدوا حماك بكيدهم جهلا ومارقبوا اجلاك  
 ان كنت تاركهم وكم بتنا فأمر ما بدا لك

ثم ارسل حلة الباب وانطلق هو ومن معه من قريش  
 الى الجبال ينظرون ما أبرهة فاعل بمكة اذا دخلها . فحينئذ  
 جاء برهان الله سبحانه وتعالى وحتت كلمته وبينما شمر أبرهة  
 لدخول مكة وهدم البيت وقدم فيله محمود (١) امام جيشه  
 إذ فجأهم ما قص الله تعالى في سورة الفيل من ارساله الطير  
 الايايل عليهم ترميهم بحجارة من سجيل فجعلهم كعصف ما كول  
 وتساقطوا بكل طريق وهلكوا على كل نهل وأصيب أبرهة  
 حتى تساقط انامله انملة انملة وقدموا به صنعاء وهو مثل فرخ  
 الطائر فامات حتى انصدع قلبه عن صدره

(١) نوع من الفيلة عظيم الخلقه انقرض الآن اسمه بالافرنكية

Mamoth وحرقة العرب الى محمود

وفي هذه السنة—أى سنة الفيل—ولد النبي صلى الله عليه وسلم كما سيجيء ان شاء الله تعالى . قال بعض العلماء ان مرض الجدرى كان أول ظهوره بين العرب في جيش أبرهة هذا ولعل قول الله في التنزيل اشارة الى هذا المرض كما ظنه بعضهم والله أعلم

مولده صلى الله عليه وسلم ونسبه ورضاعه ونسأته وتربيته وهاله وسيرته حين بعثه — ولد عليه الصلاة والسلام حين طلوع فجر يوم الاثنين ٢٠ ابريل سنة ٥٧١ مسيحية وهو تاسع ربيع الاول من عام الفيل السالف ذكره من أبوين كريمي العنصر عظيمي الجاه: فهو محمد بن عبد الله بن عبد المطلب بن هاشم بن عبد مناف بن قصي بن حكيم الملقب بكلاب بن مرة بن كعب بن لؤي بن غالب بن فهر بن مالك بن النضر بن كنانة بن خزيمة بن مدركة بن الياس بن مضر بن نزار بن معد بن عدنان ونسبه الى عدنان متفق عليه بلا خلاف انما الخلاف في عدة الآباء الذين بين عدنان واسماعيل أما أمه فهي آمنة بنت وهب بن عبد مناف بن زهره بن حكيم

بن مرة تجتمع مع عبد الله أبيه في حكيم بن مرة . فعبد الله  
من قصي بن حكيم وأمنة من زهرة بن حكيم  
وكان مولده عليه الصلاة والسلام بمكان بمكة يسمى  
الشعب في الدار التي كانت لمحمد بن يوسف أخى الحجاج ولما  
ولد سمي محمدا رجاء ان يحمد ولم يكن هذا الاسم شائعاً بين  
العرب بل الهاميا

وقد اصطفاه الله من اطهر العشائر وأطيب الاعراق  
متنقلا من أصلاب اشرف الرجال الى ارحام شريقات النساء  
يعقد النكاح ولم يصبه شيء من سفاح الجاهلية وكان أبوه قد  
مات قبل مولده بشهور غير تارك له شيئاً يذكر من المال  
والغنى وبركة الحبشية المكنية بأبي أيمن ثم توفيت أمه وعمره  
ست سنوات فكفله جده عبد المطلب ثم مات عنده وعمره  
ثمانى سنوات من بعد أن أوصى به الى عمه أبي طالب فأحسن  
أبو طالب كفالاته وعزز وصايته واجبه حبا شديدا حتى كان  
لا ينام إلا إلى جانبه ولا يخرج الا معه اما رضاعه صلى الله  
عليه وسلم فكان على عادة العرب بان يرضعوا المولود من غير

أمه لا اعتادهم ان ذلك ادعى الى نجابة الرضيع— وهذه العادة باقية ولكن لا لهذا الغرض بل للرفاهة والراحة من عناء الرضاع — وقد عرض على كثير من نساء العرب في أول الامر لارضاعه فأبين قائلات: ماذا عسى أن يكون من أمه وجدته الينا: انما يكون الاحسان من الاب؟ فاخذته حليمة السعدية بنت أبي ذؤيب ومضت به الى بلادها عند سعد فأقامت به أربع سنوات ثم عادت به الى مكة وكان الرسول عليه السلام في مدة كفالة عمه مثل القناعة والبعد عن السفاسف التي تشتغل بها الاطفال عادة كما روت ذلك أم أيمن حاضنته فكان اذا اقبل وقت الاكل جاء الاولاد يخطفون وهو قانع بما يسره الله له. ولما بلغ اثنتي عشر سنة سافر به عمه الى الشام في تجارة فراه راهب من الاحبار يقال له بحيرا فتفرس فيه شأننا عظيما في المستقبل وقال لابي طالب: انه لنبي كريم واني لاظنه الذي بشر به عيسى عليه السلام في انجيله بلفظ « فارقايط أو يار قليطس » — التي معناها محمود لا المعزي كما يقولون —



فان زمانه قد قرب . كما انبأ عن ذلك دانيال في نبوته (١) وينبغي ان يتحفظ عليه خشية ان يقتله اليهود . فرده أبو طالب الى مكة . وكان النبي عليه السلام وهو صغير يرعى الغنم لاهلها على قزاريط كما ذكر ذلك البخاري في صحيحه ولعمر الحق ما في ذلك من عار عليه فانه إن يرع غنما فقد رعاها الانبياء من قبله وهذه من أبلغ الحكم لتربية النفس فان الانسان اذا استرعى الغنم وهي اضعف البهائم سكن قلبه الرأفة واللطف فاذا انتقل من ذلك الى رعاية الخلق كان قد هذب أولاً من

(١) جاء في الاصحاح الثاني عشر لدانيال « طوبى لمن ينتظر ويبلغ الى الالف والثمائة والخمسة وثلاثين يوماً » وقد أخبرني من يوثق بقوله ان في هذه الجملة غلطا في الترجمة اذ في الاصل العبراني ما يفيد « طوبى لمن ينتظر ويبلغ الى ايام الالف والثمائة والخمسة والثلاثين » أى الى ايام سنة ألف وثمانمائة وخمسة وثلاثين وهي المدة التي بين دانيال وظهور النبي عليه السلام وقد كان لهذا الامر مباحث طويلة بين من أخبرني والقسيس الشهير اسحق تيلر الذي لا يزال موجودا حيا وعرض هذه المسئلة على ما سمعت على جمعية تصحيح تراجم الكتب المقدسة بلوندره

الحدة الطبيعية والظلم الغزيرى فيكون في اعدل الاحوال  
ثم لما شب عليه الصلاة والسلام تعاطى التجارة ولم يتعلم علما  
ولا سجرا ولم يشتغل بشئ من ذلك ولا بشعر ولا اجتمع  
على أحد من الحكماء في صغره ليقال إنه تلقى عنه ما دعى  
الناس اليه من التوحيد كما يزعمه المكابرون من غير أهل  
الاسلام: فهو أمى ربي كما يربى غيره من أبناء قومه اليتيماء الفقراء  
يدلك على ذلك اطباق الاعمى على اختلاف اديانهم وأوطانهم  
ولغائبهم على انه امى وعدم اتهام قریش له بقراءة كتاب أو  
حفظ تاريخ ولم يسمع ذلك عنهم مع أنه تعرض لتسفيه احلامهم  
وتزييف عبادتهم وتقبیح عوائدهم ودفعهم عن معبوداتهم  
الباطلة بأشد ما يكون من التثريب والتوبيخ ولم يتجراً واحد  
منهم على نسبة ما يقوله اكتاب أو لعلم غاية ما قالوه بعد  
انتشار دعوته ان سلمان الفارسى يعلمه مع انه ما صحبه الا بعد  
الدعوة بكثير على انه كان فارسى العبارة لا يحسن العربية والنبي  
لم يتعلم الفارسية حتى يحسن الاخذ عنه قال الله تعالى: «لسان  
الذى يلحدون اليه اعجمى وهذا لسان عربى مبين» وما أخرهم عن

نسبته الى معلمين إلا علمهم بأنه تربي بين ايديهم لم يخط بقلم ولا قرأ في كتاب ولا صحب كاهنا ولا حيرا ولا عالما بالسير وال اخبار . وكان أكثر ما يقولون انه ساحر او كذاب وهذان وصفتان لا يستازمان سبق تعلم قراءة او كتابة ولطالما وقع لهم معه وقائع تستدعي الكتابة فكان يستدعي غيره ليكتب ولم يقل له احدهم اكتب بيدك فانك متعلم لست بأمي . وحينما بلغ العشرين من العمر وكنت اليه خديجة بنت خويلد الشخوص الى الشام في تجارة لها مع غلامها ميسرة وكانت من شريفات العرب موصوفة بالعقل والحزم والثروة فقبل وسافر ورجع ولما قدم مكة أخبرها ميسرة بما حققه فيه من الامانة وعين الطالع فعرضت عليه ان يتزوجها فاجابها صلى الله عليه وسلم وعرض امرها على اعمامه فقبلوا وذهب معه حمزة بن عبد المطلب عمه حتى دخل على عمها عمرو بن اسد وخطبها منه فقبل واجتمع اعمامه صلى الله عليه وسلم وسائر مضر وعقدوا له عليها وكان عمره اذ ذاك خمسا وعشرين سنة وهي في الاربعين من العمر ورزقه الله كل اولاده منها الا ولده ابراهيم فانه

من مارية القبطية التي بعث بها اليه المقوقس نائب مصر ثم  
توفيت خديجة قبل هجرته بثلاث سنين  
وقد شهد النبي صلى الله عليه وسلم حرباً يقال لها حرب  
الفجار وهي حرب كانت بين كنانة ومعها قريش وبين قيس  
ونيس هذا محل ذكر أسبابها ولا ذكر تفصيلاتها وكانت  
عمره أربع عشرة سنة وكان اذا حضر صلى الله عليه وسلم  
غلبت كنانة واذا لم يحضر انهزمت: قال صلى الله عليه وسلم في  
حرب الفجار « حضرته مع عمومتى ورميت فيه بأسهم وما  
أحب انى لم أكن فعالت »

وعند منصرف قريش من حرب الفجار في شوال عقد  
حلف الفضول وهو أشرف حلف في العرب وأحق بالفجار  
مما عداها من المحالفات التي كانت العرب تعقدتها فيما بينهم  
للتناصر ولتعضيد بعضهم ضد آخرين . وكان حلف الفضول  
لشرف . موضوعه ونيل الغرض المتصود منه يكاد أن يكون  
أساساً لسياسة وطنية وتمهيدا للمواد التمدنية وأول من دعا  
الى هذا الحلف في شهر ذى القعدة بعد الفجار الزبير بن عبد

المطلب - عم رسول الله صلى الله عليه وسلم شقيق أبيه - فاجتمع إليه بنو هاشم وزهرة وبنو أسد بن عبد العزى فى دار عبد الله بن جدعان التيمى من وجوه قريش وتحالفوا على أن يردوا الفضول إلى أهلها أى على أن يردوا الحقوق التى أخذت ظلماً إلى أربابها وان يكونوا يداً واحدة مع المظلوم على الظالم حتى يودى إليه حقه شريفاً كان أو ضعيفاً وكان معهم فى ذلك الحلف رسول الله صلى الله عليه وسلم ثم قال : « لقد شهدت فى دار عبد الله بن جدعان حانئاً ما أحب أن لى به حمر النعم ولو دعى به فى الإسلام لأجبت » أى لو قال قائل من المظلومين يا آل حلف الفضول لأجبت لأن نصر المظلوم حق والإسلام إنما جاء لإقامة الحق . فانظر هذه المكرمة التى اتخذها العرب أيام الجاهلية وهم سكان جبال وقفار ما قرؤا كتاباً ولا عرفوا مدينة ولا خالطوا أئمة مهتدة . وهل يوجد فى الجمعيات الانسانية التى تفتخر بها أوروبا الآن جمعية مثل هذه التى تأخذ للمظلوم من الظالم وتحفظ الحقوق لأهلها وتكف يد الاستبداد عن كل ذى روح ؟ ! كل جمعية انسانية بعد هذه لا تساويها فى

الدرجة كيفما علت مراتبها وشرفت مقاصدها ولو وجدت  
 جمعيات كهذه الآن لا يادت خلقتا كثيرا!!! وحدث أنه لما بلغ  
 صلى الله عليه وسلم نحو الخامسة والثلاثين من عمره جاء سيل  
 جارف صدع جدران الكعبة بعد توهينها من حريق كان  
 أصابها من قبل فارادت قريش هدمها ليرفعوها ويستقفوها  
 فاجتمعت قبائلهم لذلك ولكنهم هابوا هدمها لمكانها في  
 قلوبهم فقال لهم الوليد بن المغيرة: هل تريدون بهدمها الاصلاح  
 أم الاساءة؟ قالوا بل الاصلاح. قال ان الله لا يهلك المصلحين.  
 وابتدأ بالهدم فتبعوه وهدموا حتى وصلوا الى أساس اسماعيل  
 عليه السلام ثم ابتدؤا في البناء وأعدوا لذلك نفقة ليس فيها  
 مهر بنى ولا بيع ربا وجعل الأشراف من قريش يحداون  
 الحجارة على أعناقهم وكان العباس ورسول الله فيمن يحمل  
 ولما أرادوا وضع الحجر الأسود اختلفوا فيمن يضعه وتناقشوا  
 في ذلك حتى كادت تشب بينهم نار الحرب ودام بينهم هذا  
 الخصام أربع ايام وكان أسن رجل من قريش اذ ذاك أبو  
 أمية بن المغيرة فقال لهم: يا قوم لا تختلفوا وحكموا بينكم من

ترضون بحكمه. فقالوا نكل الامر لاول داخل. فكان هذا الداخل هو النبي صلى الله عليه وسلم فاطمان الجميع له لما يعهدونه فيه من الامانة وقالوا: هذا الامين رضينا. فلما اخبروه الخبر بسط ردائه وقال: لتأخذ كل قبيلة بناحية من الثوب. ثم وضع فيه الحجر وأمرهم برفعه حتى انتهوا الى موضعه فاخذوه ووضعوه فيه وهكذا انتهت هذه المشكاة التي كثيرا ما كان أمثالها سببا في انتشار حروب هائلة بين العرب. ولا يستغرب من قریش تنافسهم هذا لان البيت قبلة العرب وكعبتهم التي يحجون اليها وهو أول بيت وضع للناس بشهادة القرآن الكريم قال الله تعالى: « ان اول بيت وضع للناس للذي ببكة مباركاً وهدى للعالمين : فيه آيات بينات مقام ابراهيم ومن دخله كان آمناً »

سيرته في قومه قبل بعثته — كان عليه الصلاة والسلام أحسن قومه خلقاً وأصدقهم رأياً وحديثاً وأرجحهم عقلاً دائم البشر مديم الصمت لين الجانب قابل اللغو بعيدا عن الفحش والاخلاق التي تدنس الرجال عظيم الامانة حتى سموه

الامين وشهد له ألد أعدائه النضر بن الحارث حيث يقول—  
والفضل ما شهدت به الاعداء—: قد كان محمد فيكم غلاما حدثا  
أرضاكم فيكم وأصدقكم حديثاً وأعظمكم أمانة حتى إذا رأيتم  
في صدغيه الشيب وجاءكم بما جاءكم تلمم ساحر! لا والله ما هو  
بساحر. ولما سأل هرقل ملك الروم أبا سفيان قائلاً: هل  
كنتم تهمونه بالكذب قبل ان يقول ما قال؟ قال لا: فقال  
هرقل ما كان ليدع الكذب على الناس ويكذب على الله.  
وتد حفظه الله في صغره من كل أعمال الجاهلية التي جاء شره  
الشريف بضدها وبغضت اليه الاوثان بغضاً شديداً حتى ما  
كان يحضر لها احتفالاً أو عيداً مما يقوم به عبادها قال عليه  
السلام: «لما نشأت بغضت الى الاوثان وبغضت الى الشعرو لم  
أهم بشيء مما كانت الجاهلية تفعله إلا مرتين كل ذلك يحول  
الله بيني وبين ما أريد من ذلك ثم ما هممت بسوء بعدهما حتى  
أكرمني الله برسالته: قات اية لغلالم كان يرعى معي لو أبصرت  
لى غنى حتى أدخل مكة فاسمر كما يسمر الشباب فخرجت  
لذلك حتى جئت أول دار من مكة أسمع عزفا بالدفوف



والمز امير لعرس بعضهم فجلست لذلك فضرب الله على أذني  
فذهت فما أيقظني الامس الشمس ولم أقض شيئاً ثم عراني مرة  
أخرى مثل ذلك « وكان عليه السلام لا يأكل ما ذبح على  
النصب وحرّم شرب الخمر على نفسه مع شيوعه في قومه  
شيوعاً عظيماً وعاش في قومه أربعين سنة قبل ان يرسله الله  
تعالى ما ضبطوا عليه كذبة ولا رأوه وقع في مكروه ولا تلبس  
بمعصية ولا تمدى على أحد ولا تعرض لجار ولا طمع في مال  
ولا تطلع لجاه ولا زاحمهم في نادي لهو ولعب ولا شاركهم  
في شيء من عوائدهم ولا ينخل بعطاء ولا يحكم بغير حق ولا  
أثار فتنة ولا وثى بأحد ولا نم على أحد ولا أفسد بين اثنين  
وذلك كله من الصفات التي يحلى الله بها أنبياءه ليكونوا على  
تمام الاستعداد لتلقي وحيه فهم معصومون من الادناس قبل  
النبوة وبعدها: أما قبل النبوة فليتأهلوا الامر العظيم الذي  
سيسند اليهم. وأما بعدها فليكونوا قدوة لاممهم. وقبل ان يبلغ  
الأربعين من العمر كان يختلي بغار حراء في كل سنة شهراً  
فيتعبد فيه الليالي ذوات العدد فلما كمل له أربعون سنة أتاه

الله الوحي على رأسها كما سيحيى . وكان يعبد الله تعالى على دين آبائه وهو دين ابراهيم عليه السلام ولا يعترض على ذلك بما يأخذه بعض السندجة من ظاهر قوله تعالى: «ووجدك ضالاً فهدى» فإنه ليس المقصود من ذلك الضلال عن التوحيد أو في العبادة (١) ولم يكن ذنباً عبداً لشهواته كما يرميه بعض متعصبى الفرنج فمن الثابت أنه قضى جل عمره الى ما بعد بعثته بدون أن يتزوج بغير خديجة ولا يقال ان الرجل بعد أن يشيب ويسن يميل الى الشهوات والنساء أكثر مما كان شاباً قوياً بل لا بد لزواجه بغير خديجة بعد بعثته من حكم لا تفوت على كل منصف غير ذى غرض . كما انه كان يأكل من شمله ونتيجة عمله لا من مال زوجته اذ لم يرمه بذلك أحد مطلقاً من قومه وخصومه الذين ربي فيهم ونشأ بينهم ولو علم أهل مكة أن خديجة كانت تنفق عليه وتطعمه لعيروه بذلك وعدوه من دواعى احتقاره وعدم اعتباره

(١) انظر تفسير هذه الآية الشريفة في تفسير جزء عم الذى طبعه حديثاً فضيلة الشيخ محمد عبده مفتى الديار المصرية حالياً .

لان الركون الى ثروة المرأة لم يكن مألوفاً عند العرب كما هو  
 مألوف عند الاورباويين الآن ولم يسمع من أهل مكة قول  
 في هذه القضية فهو ولا شك زعم باطل اذ من المعلوم أنه بتي  
 امره على الزهد والاقتصاد وعدم التوسع في المعيشة فلذلك  
 كان يقنع بميسور العيش وما زاد عن نفقته ينفقه ولا يتركه  
 يبيت عنه ومن كانت هذه صفته كان أبعد الناس عن التطلع  
 لمال الغير والطمع فيما بأيدي الناس من النعمة وسيان عنده  
 أسرت زوجته أو أعسرت. الا ترى انه اخذ زوجات بعدها  
 كان ينفق عايناً وليس لاحداهن شيء يذكر من المال  
 والمتاع؟ فهو في نزاهة نفس وغنى قلب لا يذكر في جانبه احتياجه  
 لمثر او لمثرية. وفي ما تقدم من القول وما قال سفيان والنضر  
 بن الحارث ما فيه الكفاية

مجموع أهوال العالم في ذلك العهد - كانت الامة  
 العربية كما سبقت القول قبائل متخالفة في النزعات خاضعة  
 للشهوات فخر كل قبيلة في قتال أختها وسفك دماء أبطالها  
 وسبي نسائها وسلب اموالها تسوقها المطامع الى المعامع وتزين

لهم السيآت فساد الاعتقادات وكانت تمنعها انفتها وعزتها  
 من ان تطأطى لرئيس او تخضع لاحد وقد دخل جزيرة  
 العرب كل الاديان من نصرانية ويهودية ومجوسية وزندقة  
 وثنية فزادت في التفرقة والتنافر والوحشة بينهم. وبلغ العرب  
 من الجهالة حداً صنعوا اصنامهم من الحلوى ثم عبدوها فلما  
 جاعوا اكلوها. وبلغوا من تضعضع الاخلاق وهنا قتلوا فيه  
 بناتهم تخاصاً من عار حياتهن او تنصلاً من نفقات معيشتهن.  
 وبلغ النحش منهم مبلغاً لم يعد معه للعفاف قيمة وبالجملة كانت  
 ربط النظام الاجتماعى قد تراخت عقدها في كل أمة وانفصمت  
 عراها عند كل طائفة وعلت الشجناء بين كل فريق وآخر  
 وظهر الفساد بين العباد وزاد الشرك بالله الواحد القهار حتى  
 صار في الكعبة نحو الثمائة وستين صنماً يعبده العرب أفلم  
 يكن من رحمة الله بأولئك الاقوام أن يؤدبهم برجل منهم  
 يوحى اليه رسالته ويمنحه عنايته ويمده من القوة بما يتمكن معه  
 من كشف تلك الغم التي أظلت رؤس جميع الامم؟  
 ولم يكن احتياج العرب لذلك المؤدب والمهذب والهادى

بأعظم من احتياج باقي البلاد لنفس ذلك فقد كان العالم أجمع محتاجا للإصلاح وتقوم اعوجاجه وتعديل مزاجه إذ كانت دولتا العالم - دولة الفرس في الشرق ودولة الرومان في الغرب - في تنازع وتجادل مستمر : دماء بين العالمين مسنوكة وقوى منهوكة واموال هالكة وكانت همّة الاهالى قد سئمت من كثرة جور كل من الدولتين على الرعايا وعسفهم الفاحش الذى لم تقف عند حد فزادت الضرائب زيادة لا تطاق حتى أثقلت الظهور وكلت همّة الاهالى منها وانحصر سلطان القوى فى اختطاف ما بيد الضعيف وفكر العاقل فى الاحتياى لسلب العاقل وتبع ذلك انه استولى على تلك الشعوب ضروب من الفقر والذلة والاستكانة والخوف والاضطراب لفقد الامن على الارواح والاموال بينما زاد رؤسائهم انهما كما على اللذات والشهوات والنسق والعصيان . نمرت مشيئة الرؤساء ارادة من دونهم فعاد هؤلاء كاشباح اللاب يدبرها من وراء حجاب فتقد بذلك الاستقلال الشخصى وظن افراد الرعايا انهم لم يخلقوا الا لخدمة ساداتهم وتوفير لذاتهم هو كما الشأن فى

العجاوات مع من يقتنيها . ضلت السادات في عقائدها  
وغلبتها على الحق والعدل شهواتها وساد الجهل وعميت البصائر  
وبعد الكل عن الصراط المستقيم وزاد العيث وعم الفساد  
وبالجملة فقد كانوا جميعاً

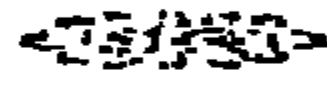
عموا عن الخير واعتادت نفوسهم فعل القبيح وظنوا أنه حسن  
وأضف الى ذلك ما كانت عليه إذ ذاك دولة الروم من  
الاختلاف في الدين وتشعب الملة العيسوية الى الفرق المختلفة  
في العقيدة المتعادية أشد العداوة حتى كان كل فريق يحاول أن  
يسود مذهبه على ماعداه فزادت الفتن واشتدت الاحن وعم  
الاضطراب والاضطهاد وسالت الدماء باسم الدين المتبرء مما  
يعملون : هذه حالة الاقوام كانت في معارفهم ومعتقداتهم  
وذلك كان شأنهم في معاشهم : عبيد أذلاء حيارى في جهالة  
عمياء . أفلم يكن من رحمة الله وعدالته بأوائك الاقوام كذلك  
ان يهديهم الى الصراط المستقيم ويخرجهم من الظلمات الى النور  
وينقذهم من الذل والاستعباد وينجي العالم اجمع من الشر الذي  
تولاه نبي يرسله هدى ورحمة للعالمين ؟

نعم كان ذلك له الحمد وله الشكر على ما أنعم وتفضل  
وأرسل محمدا نبيا للعالم كافة لا كما يزعمه الجاهل بنص الكتاب  
من أنه لم يرسل الا للعرب خاصة



## ﴿ الباب الثاني ﴾

( في العرب بعد الاسلام )



### الفصل الاول

الوحي — ابتداء النبوة والرسالة والدعوة للاسلام — أذى قريش  
للنبي ولأصحابه — الهجرة للحبشة — اشتداد الأذى به صلى الله عليه وسلم  
وأصحابه — الهجرة للمدينة — الانصار والمهاجرون — غزواته عليه الصلاة  
والسلام — دعوته الملوك والأمراء للاسلام — حجة الوداع — خطبته  
الآخيرة — وفاته صلى الله عليه وسلم — سيرته بعد الرسالة

### الوحي وابتداء النبوة والرسالة والدعوة للاسلام

قلنا في الباب السابق ان النبي صلى الله عليه وسلم كان  
قبل ان يبلغ الأربعين من العمر يمتلي بغار حراء في كل سنة  
شهرًا فلما كمل له أربعون سنة أتاه الوحي على رأسها وأول

ما بدى به الرؤيا الصادقة في النوم فكان لا يرى رؤيا إلا جاءت مثل فلق الصبح في الوضوح لا برموز وكنيات كالرؤيا التي كان يراها النبي دانيال وغيره من الانبياء. ولما مضى عليه ستة شهور وافاه جبريل بالغار في شهر رمضان وقال له: اقرأ. فقال: ما أنا بقارئ فكررها عليه جبريل مرتين وفي الثالثة قال له: « اقرأ باسم ربك الذي خلق . خلق الانسان من علق وربك الاكرم الذي علم بالقلم . علم الانسان ما لم يعلم » فقال بسم الله الرحمن الرحيم وعندها كشف عن بصيرته وحق قول الله فعلم ما لم يكن يعلم . ولما رجع الى خديجة أخبرها الخبر فقالت له: والله لا يخزيك الله ابداً انك لتصل الرحم وتقرى الضيف وتحمل الكل وتعين على نوائب الدهر . ثم انطلقت به الى ابن عمها - ورقة بن نوفل وكان ممن لهم اطلاع على كتب الاقدمين وكان شيخاً كبيراً قد عمى - فأخبرته خبر ما رأى فقال له ورقة: « هذا الناموس الذي أنزله الله على موسى يا ليتني اكون حياً اذ يخرجك قومك » فقال صلى الله عليه وسلم: او مخرجي هم؟ قال: نعم لم يأت رجل



بمثل ما جئت به الا عودى وإن يدركنى يومك أنصر لك نصرا  
مؤزراً. ثم لم يلبث ورقة أن توفي وقت الوحي عن النبي صلى  
الله عليه وسلم مدة اختلف في مقدارها لينذهب روعه ولتشتاق  
نفسه ثم نزل عليه قوله تعالى: يا أيها المدثر قم فأندر. ثم تتابع الوحي  
بعد ذلك فكانت نبوته في سورة النلق ورسالته في سورة المدثر.  
وأول ما فرض عليه من أحكام الاسلام الانذار والدعاء الى الله  
بالتوحيد والتبرء من الاوثان ثم فرضت عليه الصلاة فأناذ جبريل  
وعلمه الوضوء والصلاة ركعتين. وأقام صلى الله عليه وسلم يدعو  
الله سرا قبل أن يؤمر بالاعلان فكان لا يظهر الدعوة إلا لمن  
يثق به فتبعه أناس من النساء والرجال منهم خديجة زوجته  
وعلى بن أبى طالب وهو صبي لم يبلغ الحلم وأبو بكر وزيد بن  
حارثة مولاه رضوان الله عليهم أجمعين وجميعهم كما هو واضح  
من أهله واخص اصدقائه اى ممن وقفوا بأجمعهم — كما كان  
لا بد منه — على أسرار حياته فلم يكن بينهم مانع من أن يظهر وا  
تلك الاختلاقات التى لم تزل تغترى عنه ويذيعها فى العالم بلا  
انقطاع بعض الجبهة المتعصبين لو كان ايايختلقونه اثر من الصيحة.

وكان صلى الله عليه وسلم قبل الاعلان يخرج ومعه علي بن أبي طالب مستخفين من الناس الى شعاب مكة ويصليان فاذا أمسيا رجعا فكثر عليهما أبو طالب يوما وهما في صلاتهما فقال للنبي صلى الله عليه وسلم: يا ابن أخي ما هذا الدين الذي أراك تدين به؟ فقال: أي عم هذا دين الله ودين ملائكته ودين رسله ودين أبينا ابراهيم بعثني الله رسولا الى العباد وأنت أي عم أحق من بذات له النصيح ودعوته الى الهدى وأحق من اجابني اليه وأعاتني. فأجابه أبو طالب أنه لا يستطيع ان يفارق دين آباءه ولكنه وعده بان لا يخذله ما بقي. ثم أخذ العملاء من العرب يتسابقون الى الاسلام نأسلم عثمان بن عفان وطاحه والزبير وعبد الرحمن بن عوف وسعد بن أبي وقاص وكان قد دعاهم أبو بكر رضى الله عنه بعد اسلامه ثم أسلم أبو عبيدة عامر بن الجراح وعبيدة بن الحارث وسعيد بن زيد بن عمير بن الخطاب وعبد الله بن مسعود وعمار بن ياسر وكثير غيرهم ثم أمر عليه الصلاة والسلام بالبلاغ واظهار الدعوة في قوله: فاصدع بما تؤمر واعرض عن المشركين.

فقام يدعو الله جهوراً ويقوم الصلاة علانية وترتب على ذلك معاداة قومه له واشتدادهم عليه بالأذى فنزل عليه قوله تعالى: وَأَنْذِرْ عَشِيرَتَكَ الْأَقْرَبِينَ. فجمع النبي صلى الله عليه وسلم بنى هاشم وبنى المطلب وبنى نوفل وبنى عبد شمس وأولاد عبد مناف وقال لهم: «ان الرائد لا يكذب أهله والله لو كذبت الناس جميعاً ما كذبتكم ولو غررت الناس جميعاً ما غررتكم والله الذي لا إله إلا هو أنى لرسول الله اليكم خاصة وإلى الناس كافة والله لتموتن كما تنامون ولتبعثن كما تستيقظون ولتحاسبن بما تعملون ولتجزون بالاحسان احساناً وبالسوء سوءاً وانها لجنة ابدأً أو لنار ابدأً» فتكلم القوم كلاماً لناً إلا عمه ابي لهب وكان خصماً لدوداً له فانه قال: خذوا على يديه قبل ان تجتمع عليه العرب. فقال ابو طالب: لنمنعنه ما بقينا ثم انصرف الجمع وكان فعله هذا عايه الصلاة والسلام نفاذاً لنا أمر به من ربه في الآية السابقة وحرصاً على اسلام أهله بيته ثم قام عايه الصلاة والسلام مجاهراً غير مكترث بما يلاقه من الأذى والمعاداة مرتباً دعوته على ما أمر به في قوله تعالى

« ادع الى سبيل ربك بالحكمة والموعظة الحسنة وجادلهم  
بالتى هي أحسن » فكانت دعوته لا تخرج عن البلاغ الحسن  
ولا يمكن ان يتصور فيه غير ذلك لانه عاين الصلاة  
والسلام جبل على الكلمات وأدب بأحسن الآداب  
ولا عجب فؤدبه مولاه وحق له ان يفتخر بقوله: أدبى ربي  
فأحسن تأديى .

أذى قريشى للنبي ولا صحابه والهجرة للمجتهد — ومع هذا  
فقد استهزأ به كثيرون اذا مر بهم ومعه أصحابه يقولون: هذا  
محمد وملوك الارض الذين يرثون ملك كسرى وقيصر !  
ويصفرون خائفه مصنفين ومنهم من يقول: أما وجد الله من  
يبعثه غيرك ان ههنا من هو أسن منك وايسر ؟! ومنهم من  
يقول له: أما كلمت اليوم من السماء؟! ومن يقول: هذا ساحر. ومن  
يقول: هذا كاهن. ومن يقول: هذا مجنون. ومن يقول: كذاب  
ومن أخذه الخنق والغیظ الى ايدائه بالقاء القاذورات والنجاسات  
على بابه ولم يفهم أذى أصحابه السابقين الى الاسلام: فانهم  
أذوهم واهانوهم بكل اصناف الالهانة ولقد عبدوا المستضعفين

منهم بعد ان حاولوا مثل ذلك مع من اسلم من العشائر العظيمة  
ومن له قوة تمنعه منهم فتركوهم ومالوا على المستضعفين من  
كل القبائل فكانوا يعذبونهم بالحبس والضرب والجوع  
والعطش ورمضاء مكة المحرقة والنايركى يفتنهم عن دين الله  
الحق فمنهم من يفتن لشدة البلاء وقلبه يطمئن بالايان ومنهم  
من ينجو بعد العذاب الشديد ومنهم من يموت شهيداً وكلوا  
مراراً عمه أبا طالب - الذى أخذ على نفسه حمايته - وطلبوا منه  
ان يخلي بينهم وبينه او يكفه عما يقول فحاول ابو طالب ان يرجع  
النبي عن خطته فظن الرسول ان عمه خاذله فقال : والله يا عم  
لو وضعوا الشمس فى يمينى والقمر فى يسارى على أن أترك  
هذا الامر ما فعلت حتى يظهره الله او اهلك دونه . فقال له  
أبو طالب : اذهب يا ابن أخي وقل ما احببت والله لا أسلمك .  
ورأى رسول الله من المشركين كثير الأذى وعظيم الشدة  
كما أذى اصحابه بما لا يمكن تصويره من انواع الأذى  
والتعذيب حتى اشفق النبي صلى الله عليه وسلم عليهم وأمرهم  
بالهجرة الى الحبشة بقوله لهم : لو خرجتم الى ارض الحبشة فان

فيها ما كالا يظلم عنده احد حتى يجعل الله لكم فرجا مما  
اتم فيه فخرجوا الى الحبشة مخافة وفرارا الى الله بدينهم وكان  
فيمن خرج عثمان بن عفان وزوجته رقية ابنة النبي صلى الله  
عليه وسلم في السنة الثانية من اظهار الدعوة ثم عادوا بعد  
شهرين لما لم تحمل لهم العيشة في الغربة ولما بلغهم من اسلام  
اهل مكة كذبا ولكنهم لما حضروا لم يستطيعوا دخول مكة  
الا في جوار او اختفاء واقاموا بها على الأذى حتى هاجروا  
ثانية الى الحبشة وكانوا أكثر منهم قبل

استراد الازدي بالرسول وأصحابه — ولقد استعمل

المشركون جميع طرق التهديد والوعيد والتحايل والاقناع فلم  
يجدهم نفعاً بل كلما زادوا المسلمين أذى ازداد يقينهم وزاد النبي  
ثباتاً وانحاما لهم . ولكم ارسلوا له عليه الصلاة والسلام وفودا  
بقصد إرجاعه فباؤا بما يبغى المشركين ويزيدهم حنقا فيرمون  
وفودهم بأنهم خدعوا او سحرهم محمد . ثم عرضوا عليه بعد  
ذلك ان يشاركهم في عباداتهم ويشاركونه في عبادته فأنزل  
الله تعالى في ذلك « قل يا أيها الكافرون لا أعبد ما تعبدون

ولا أنتم عابدون ما أعبد ولا أنا عابد ما عبدتم ولا أنتم عابدون  
 ما أعبدكم دينكم ولي دين» فأيسوا منه وطالبوا بعد ذلك ان ينزع  
 من القرآن ما يغيظهم من ذم الاوثان والوعيد الشديد فيأتي  
 بقرآن غيره او يبدله فأنزل الله جوابا لهم « قل ما يكون لي  
 أن أبدله من تلقاء نفسي إن أتبع إلا ما يوحى اليّ ». ولما  
 رأى المشركون أن هذه المطالب التي يعرضونها لا تقبل منهم  
 وضائق بهم الحيل ورأوا عزة النبي صلى الله عليه وسلم بمن  
 معه وعزة اصحابه بالحبشة واسلام عمر بن الخطاب واسلام  
 عمه حمزة رضى الله عنهم أجمعوا أمرهم على منابذة بني هاشم  
 وبني المطلب ان لا يناكحهم ولا يبائعهم ويقطعوا عنهم  
 الاسواق ولا يقبلوا منهم صاحباً ولا تأخذهم بهم رافة حتى  
 يسلموا رسول الله صلى الله عليه وسلم للقتل وكتبوا بذلك  
 صحيفة علقوها في جوف الكعبة هلال المحرم سنة سبعة من  
 مبعثه فأنحاز بنو هاشم الى أبي طالب وخرج من بني هاشم  
 أبو لهب فانه انحاز لقريش وكانت امرأته على رأيه في عداوة  
 النبي صلى الله عليه وسلم فكانت تم عليه وتفسد القلوب من

جانبه فسيماها الله تعالى : جمالة الخطب . وانخذل عنهم بنو عميه  
عبد شمس ونوفل بن عبد مناف وكان بنو هاشم محصورين  
في الشعب لا يخرجون إلا من موسم الى موسم حتى جهدوا  
وكان لا يصل اليهم أحد إلا سرّاً وكان اعداؤهم يمنعون التجار  
من مبايعتهم . وبعد دخول الرسول وقومه الشعب أمر جميع  
المسلمين أن يهاجروا للحبشة حتى يساعدوا بعضهم على الانتزاع  
فهاجر معظمهم ولما رأت قريش ذلك أرسلت في أثرهم عمراً  
بن العاص وعمار بن الوليد بهدايا الى النجاشي لیسلمهم المسلمين  
فرجعوا شر رجعة ولم ينالا من النجاشي الا إهانة لما خاطبوا  
به من خفر ذمته في قوم لا ذوا به . أما بنو هاشم فكثروا في  
الشعب قريباً من ثلاث سنوات في شدة الجرد والبلاء لا  
يصلهم شيء من الطعام الا خفية حتى قام خمسة من أشرف  
قريش يطالبون بنقض الصحيفة الظالمة وانفتوا على ذلك ليلا  
فلما اصبخوا غداً أحدهم فطاف بالبيت ثم أقبل على الناس فقال :  
«يا أهل مكة أنا كل الطعام ونلبس الثياب وبنو هاشم والمطاب  
هلكي لا يبيعون ولا يتبعون ؟ والله لا أقعد حتى تشق هذه



الصحيفة.» ثم أن النبي أخبر عمه أبا طالب أن الله ساط الأَرْضة على الصحيفة فلم تدع فيها غير اسم الله تعالى الذي كانت قريش تستفتح بها كتابها— وهو لفظ اللهم باسمك— فانطلق أبو طالب في غصابة حتى اتوا المسجد فلما رأتهم قريش ظنوا أنهم خرجوا من شدة البلاء ليساموا النبي فقال أبو طالب: إنما أتيت في أمر هو نصف فيما بيننا وبينكم: ان ابن أخي أخبرني بأمر فان كان الحديث كما يقول فلا والله لا نسلمه حتى نموت عن آخرنا. وان كان الذي يقول باطلاً دفعنا لكم صاحبنا فقتلتم أو استجببتم. واخبرهم الخبر فارتضوا به وفتحوا الصحيفة فوجدوها كما قال فقالوا هذا سحر من ابن اخيك وزادهم ذلك بغياً ثم مشى في نقض الصحيفة قوم من قريش واخرجوا بني هاشم وبني المطلب من الشعب وذلك في السنة العاشرة من مبعثه صلى الله عليه وسلم

وبعد ما خرج بنو هاشم من الحصار بالشعب بقليل توفيت خديجة فزن عايتها رسول الله صلى الله عليه وسلم حزناً شديداً واقد زاد حزنه ان توفي بعدها بقليل أبو طالب عمه

حتى سمي هذا العام بسنة الحزن وكانوا يؤرخون به ولما حضرت أبا طالب الوفاة جمع اليه وجوه قريش فأوصاهم وقال يا معشر قريش « أتم صنوة الله من خلقه وقلب العرب وفيكم السيد المطاع وفيكم المقدم الشجاع والواسع البال واعلموا أنكم لم تتركوا للعرب في المأثر نصيباً إلا احرزتموه ولا شرفاً إلا ادركتتموه فلكم بذلك على الناس الفضيلة ولهم اليكم الوسيلة والناس لكم حرب وعلى حربكم ألد واني اوصيكم بتعظيم هذه البيعة فان فيها سر ضاة للرب وقواما للمعاش ونبأة للوطأة صلوا ارحامكم ولا تقطعوها فان في صلة الرحم منسأة للاجل وزيادة للعلم واتركوا البنى والعقوق فهما هلكت القرون قبلكم وأجيبوا السائل واعطوا الداعي فان فهما شرف الحياة والممات وعايكم بالصدق في الحديث وادوا الامانة فان فهما محبة للخاص ومكرمة في العام . واني اوصيكم بمحمد خيراً فانه الامين في قريش والصديق في العرب وهو الجامع لكل ما اوصيتكم به وقد جاء بأمر قبله الجنان وأنكره اللسان مخافة الشنان وایم الله كأنی انظر الى صعالیک العرب واهل الوبر في

الاطراف والمستضعفين من الناس قد اجابوا دعوته وصدقوا  
كلمته وعظموا أمره فخاض بهم غمرات الموت فصارت رؤساء  
قريش وصناديدها اذناناً ودورها خراباً وضعتاؤها ارباباً  
واعظمتهم عليه احوجهم اليه وانفرم منه احظامه عنده قد  
محضته العرب ودادها واصنت له فؤادها واعظمت له قيادها.  
دونكم يا معشر قريش وكونوا له ولاة ولحزبه حماة والله لا  
يسلك أحدكم سبيله الارشد ولا يأخذ احد بهديه إلا سعد  
ولو كان لنفسى مدة أو لاجلى تأخير الكففت عنه الهزاهز  
واندفت عنه الدواهي « ثم توفي وبوفاته نالت قريش من النبي  
صلى الله عليه وسلم ما لم تكن نالته في حياته فهاجر الى الطائف  
في شوال سنة عشر من البعثة وهو مكروب مشوش الخاطر  
مما لتي من قريش ومن قرابته وعترته خصوصاً من ابى لهب  
وزوجته من الهجو والسب والتكذيب نخرج الى الطائف  
مع مولاه زيد بن حارثة يلتمس من ثقيف الاسلام  
أو ان يناصروه ويقوموا معه على من خالفوه من قومه  
لانهم كانوا اخواله فلم يجد منهم ذلك . ومع استدامة اهل

مكة على أذاه كان صلى الله عليه وسلم يعرض نفسه على القبائل في مواسم الحج ويدعو الناس الى دين الله وقبل الهجرة بسنة أسرى الله به من المسجد الحرام الى المسجد الاقصى (١) ولما أصبح قص علي قریش ذلك ووصف لهم البيت المقدس وأعطاهم علامات وأمارات تحققوا من صدقتها ولكنهم طمسوا على بصائرهم فلم يجدوا طريقة الا أن يرموه بالسحر وكذبوه

(١) اختلف في الاسراء هل كان بالجسد والروح أو بالروح فقط. على أن لا شيء يمنع من قبول أن الاسراء كان بالجسد والروح نعم ان الطبيعيين ينكرون صعود الاجسام الثقيلة الى الجو واختراقتها الافلاك لو قوفهم عند المحسوسات ونحن لا ننكر على الله تعالى الذي رفع مثل سيدنا عيسى عليه السلام أن يسرى بمحمد خصوصاً بعد علمنا أن الكواكب أجرام متحيزة في مراكزها غير مرتكزة على شيء ولا معلقة بشيء فالذي رفعها وسيرها مع فرط نفاستها لا يعجزه رفع جسم صغير جداً بالنسبة اليها كيف ونحن نرى الاجرام الثقيلة ترتفع الى الجو بالبخار المخلوق لله تعالى فاذا وقع الشيء بأثر من آثار الله تعالى كيف يمتنع وقوعه بأمره ومشيئته. لا يقف في ذلك الا من أضله الله تعالى وسلبه نور الهداية فبقى متخبطاً في ظلمات الغواية ومن يضلل الله فما له من هاد

وازداد بعض خصومه تمردا عليه وطغيانا ولكن الاسلام  
 كان قد فشا في قريش وفي التبائل . وبينما كان الرسول عليه  
 السلام في بعض المواسم عند عتبة الجحرة سنة احدى عشرة  
 من النبوة إذ لقي رهطا من الخزرج وكانوا ستة وقيل ثمانية  
 أراد الله بهم خيرا فجلسوا معه فدعاهم الى الاسلام ورأوا  
 امارات الصديق عليه لائحة فأجابوه وصدقوه واسلموا وقالوا  
 انا تركنا قومنا - الاوس والخزرج - بينهم من العداوة والشرا  
 بينهم فان يجمعهم الله عليك فلا رجل أعز منك ووعدوه  
 المتبالة في الموسم المقبل فرضى بذلك - وهذا ابتداء اسلام  
 الانصار - وفي السنة التالية جاء اثنا عشر رجلا منهم عشر من  
 الخزرج واثان من الأوس فاجتمعوا عند العقبة فبايعهم  
 وعاهدوه على ان يمنعوه بما يمنعون به نساءهم ولما انصرفوا  
 راجعين أرسل معهم ابن أم مكتوم - وهو ابن خال خديجة -  
 ومصعب بن عمير الى المدينة ليتلوا على أهلها القرآن ويفقههم  
 في الدين فكان يسلم بسمع القرآن أناس كثيرون حتى أسامت  
 كل بيوت الانصار إلا بيت أمية بن زيد . وفي السنة الثالثة

عشر من البعثة قدم اليه صلى الله عليه وسلم ثلاثة وسبعون رجلا من الانصار وامرأتان في أيام التشريق بالعقبة ويايعوه بيعة العقبة الثانية وجاءهم النبي صلى الله عليه وسلم ومعه العباس بن عبد المطلب فقال العباس لهم : « يا معشر الخزرج ان محمدا منا حيث علمتم وقد منعناه من قومنا فمن هو على مثل ما رأينا فهو في عنز من قومه ومنعة في بلده وانه قد أجي إلا انحيازاً اليكم والحق بكم فان كنتم ترون انكم وافون له بما دعوتوه اليه ومانعوه ممن خالنه فأنتم وما تحملتم من ذلك. وان كنتم ترون انكم مسلموه وخاذلوه بعد الخروج به اليكم فمن الآن دعوه في بني عشيرته فانه منهم لم يكن عظيم. » فقالوا: قد سمعنا ما قلت والله لو كان لنا في انفسنا غير ما نطقنا به لقلنا واكلنا نريد الوفاء والصدق وبذل مهجنا دون رسول الله. وعند ذلك قالوا للنبي عليه الصلاة والسلام: خذ انفسك ولربك ما أحببت. فتلا رسول الله صلى الله عليه وسلم القرآن ودعا الى الله ورغب في الاسلام ثم قال: أبايكم على ان تمنعوني مما تمنعون به انفسكم ونساءكم وابناءكم متى قدمت عليكم. فأخذ

البراء بن معرور - كبيرهم والمتكلم عنهم - يمدد وقال: والذي بعثك بالحق لنمتعنك مما تمنع به أزرنا. فبايعوا رسول الله صلى الله عليه. وقال بعضهم: يا رسول الله ان بيننا وبين الرجال عهداً وأنا قاطعوها فهل عسيت ان نحن فعلنا ذلك ثم أظهرك الله ان ترجع الى قومك وتدعنا؟! فتبسم رسول الله صلى الله عليه وسلم ثم قال: « بل الدم الدم والهدم الهدم أنا منكم وأنتم مني أحارب من حاربتم وأسلم من سالمتم »

الهجرة للمدينة وانصار والمهاجرون - ولما تم أمر البيعة بين النبي وبين أهل المدينة على الصورة المتقدمة وبقي أصحابه في ضنك من ايداء المشركين شكوا الى رسول الله صلى الله عليه وسلم ثم استأذنوه في الهجرة فمكث أياماً وخرج الى أصحابه يوماً مسروراً وأخبرهم ان الله اختار له يثرب دار هجرة وأمر من يريد من أصحابه الخروج بأن يخرج اليها فصار القوم يتجهزون ويرحلون من مكة سراً إلا عمر بن الخطاب فإنه أعلن بالهجرة ولم يمنعه أحد من المشركين. ولما قدموا المدينة أنزلهم الانصار في دورهم وواسوهم ولم يبق بمكة

إلا رسول الله صلى الله عليه وسلم وأبو بكر وعلى رضى الله  
 عنهما. ثم لما رأت قريش ان رسول الله صارت له شيع  
 واصحاب من غيرهم بغير بلدهم ورأوا خروج شيعة أصحابه من  
 المهاجرين اليهم تحذروا خروجهم واجتمعوا في دار الندوة  
 واجمعوا على قتله واختاروا لذلك نفرا من كل القبائل كي يتفرق  
 دمه في القبائل كلها فيأمنون قتال قومه. فاجتمع القوم على  
 بابه يرصدونه حتى ينام فيثبوا عليه مرة واحدة ويقتلوه  
 ولكن الله أوحى اليه بالهجرة وبأن لا يبيت تلك الليلة في  
 فراشه فأخبر رسول الله صلى الله عليه وسلم عليا بذلك وأمره  
 ان ينام محله وغطاه ببرده كي لا يقع الشك في وجوده اثناء الليل  
 فانهم كانوا يردّون النظر من شقوق الباب ليعلموا وجوده  
 فامتثل على - وكان أوّل من شرى نفسه ونزل فيه قوله تعالى  
 «ومن الناس من يشرى نفسه ابتغاء مرضاة الله» - وخرج رسول  
 الله وقد أخذ الله على ابصار القوم فلم يره احد وثر على رؤسهم  
 ترابا في يده وهو يتلو « وجعلنا من بين ايديهم سداً ومن  
 خلفهم سداً فأغشىناهم فهم لا يبصرون » ثم انصرف حتى



ووصل الى دار أبي بكر وأخبره الخبر فرافقه الى غار ثور  
 واختفيا فيه. أما الذين يرصدون الباب لما استيقظوا من نومتهم  
 هجموا على النائم ولكنهم زادوا تعجباً واستغراباً حينما  
 وجدوا امامهم علياً بدل النبي فسألوه عن محمد صلى الله عليه  
 وسلم فقال: لا أدري ولست عليه خارساً! فشق على المشركين  
 خلاصه من أيديهم وجدوا في طلبه من الاودية والجبال  
 وبعثوا في أثره من يقتله أو يأتهم به. وهنا يستغرب الانسان  
 من صدق اصحاب محمد صلى الله عليه وسلم واخلاصهم له فما  
 بايعه أحد وخذله أو هم بخيانة ضده بل جميعهم تحملوا الأذى  
 والمكروه الشديد من أجله وكانوا كلما ازداد القوم تعذيباً  
 لهم ازدادوا هم تعلقاً به صلى الله عليه وسلم!! فرضوان الله على  
 هؤلاء الاصحاب الذين لم يسبق لوفائهم في التاريخ مثل: وأين  
 من وفائهم وفاء الحواريين مثلاً وهم اصحاب عيسى عليه السلام  
 ومنهم من انكره ومن دل عليه اعداءه ومن خذله؟! فلم نسمع  
 ان أحد اصحاب عيسى استمر معه كما استمر مع رسول الله صلى  
 الله عليه وسلم اصحابه بل ولا ان من بينهم من قدم نفسه فداء

له كما عمل على رضى الله عنه . وبالجملة فان كل شئ للنبي صلى الله عليه وسلم حتى أصحابه ووفائهم له وصدقهم في محبته وعهده كان خوارق عادات ومعجزات بينات يحار فيها عقل كل لبيب ولا ينكرها إلا كل مكابر . واننا لو تدبرنا ذلك لعلمنا ان أولئك الاصحاب الكرام كانوا على يقين تام من صدقه ومن ان ما أتى به حق لا مصرية فيه ومن ان وعده اياهم بالنجاة مقطوع بصحته وإلا فلا معنى لهذا الاستسلام الاعمى والطاعة لهذا الحد مع ما يعلمه الكل في حالة العرب !! ولترجع لما كنا عليه من هجرة المصطفى عليه الصلاة والسلام فلقد أسلفنا انه أخذ ابا بكر واختفيا بغار بجبل ثور وان المشركين لما علموا بفساد مكرهم وانهم انما باتوا يجرسون علياً بن ابي طالب لا محمداً بن عبد الله هاجت عواطفهم وأرسلوا في طلبه من كل جهة وجعلوا الجوائز لمن يأتي بمحمد او يدل عليه وقد وصلوا في طلبهم إلى ذلك الغار الذى فيه طلبتهم بحيث لو نظر احدهم تحت قدميه لنظر من فيه فبكى أبو بكر فقال له عليه السلام: لا تحزن ان الله معنا . فأعمى الله أبصار

المشركين عنهما و اراد الله ان ينسج العنكبوت على باب الغار فزاد القوم خيرة واستبهدوا أن يكونا دخلاه والعنكبوت ناسج عليه وفاتوا الغار وظلوا في طريقهم مجدين البحث على غيرتهم . فأقام النبي صلى الله عليه وسلم . و ابو بكر في الغار ثلاث ليال ولما انقطع الطلب خرجا وسارا متبينين طريق الساحل وفي الطريق لحقهم سراقة بن جهم فنادنا من الرسول و اراد الايقاع به فساخت قوائم فرسه وانتهى الامر به ان انقلب من عدو عتيد الى طالب امان من خصمه الذي كان يطارده وينوى قتله فنجاه الله من كيدته وكيد المشركين . ثم سار النبي صلى الله عليه وسلم الى ان وصل بلدة قباء وذلك يوم الاثنين الثامن من شهر ربيع الأول . وهذا أول تاريخ جديد لظهور الاسلام بعد ان مضى عليه ثلاث عشرة سنة وهو مضيق عليه من مشركي قريش (١)

(١) أجمع الكل على أن الهجرة كانت يوم اثنين واختلفوا في أي الاثنين كانت فزعم بعضهم انها في اليوم الثاني من ربيع الاول و زعم آخرون انها في اليوم الثامن منه كما قال غيرهم انها في اليوم

وأقام رسول الله عليه الصلاة والسلام بقباء بضعة عشرة ليلة أسس فيها مسجد قباء وصلى فيه بمن معه من الانصار والمهاجرين الذين وفدوا عليه بمجرد سماعهم بخبر قدومه وهم آمنون مطمئنون ثم تحول عليه السلام الى المدينة والانصار محيطون به متقدين سيوفهم فكان على أهل المدينة يوما سعيدا لم يره ثم أخذ فرحين بشئ فرحهم برسول الله وخرج النساء والولائد يضربن بالدفوف ويقان

أشرق البدر علينا من ثنيات الوداع  
 ونجب الشكر علينا ما دعا لله داع  
 ايها المبعوث فينا جئت بالامر المطاع

وكان الناس يسرون وراء رسول الله ما بين ماش وراكب يتنازعون زمام ناقته كلُّ يريد أن يكون نزله فيقول دعوها فانها مأمورة وأدر كته عليه السلام صلاة الجمعة في بني

الثاني عشر منه والمتفق عليه الثامن ولا يجوز أن يكون الثاني ولا الثاني عشر لانها ليسا بيوم اثنين من أجل أن أول ربيع الأول في تلك السنة كان يوم الاثنين. وذلك نقلا عن رسالة للمرحوم محمود باشا الفلكي

سالم بن عوف فنزل وصلاتها وهذه أول جمعة له صلى الله عليه وسلم. ولم تنزل الناقة سائرة حتى أتت بفناء بني عدي بن النجار — وهم أخواله الذين تزوج منهم هاشم جدّه — فبركت بمحلة من محلاتهم أمام دار أبي أيوب الأنصاري وذلك محل مسجده الشريف. فقال عليه السلام: « ههنا المنزل إن شاء الله: رب أنزلي منزلاً مباركاً وأنت خير المنزلين » فاحتمل أبو أيوب رحله ووضعها في منزله وتنافس الأنصار في إكرامه عليه الصلاة والسلام وضار كل يود لو أن يكون عليه السلام في داره أو أن يضيف مهاجراً! وبلغ التنافس عندهم في ذلك حد أن حكموا القرعة بينهم فما نزل مهاجري على أنصاري إلا يقرعة! ومن يتأمل إلى هذه المحبة التي يستحيل أن تكون إلا بفضل من الله ورحمته يعلم كيف انتصر هؤلاء الأقوام على معانديهم من المشركين وأهل الكتاب مع قلة العدد والعدة! وكان الأنصار يؤثرون أخوانهم المهاجرين على أنفسهم وهذا أعلى درجات الأخوة فإن رسول الله عليه السلام — لم يكن بينهم الإخاء — آخى بين المهاجرين والأنصار فكان كل أنصاري ونزيلة

أخوين في الله. ومن العيب ان تكلف التلم بأن يوضح ان هذه  
 الاخوة كانت ارقى بكثير من الاخوة العصبية بل نكل ذلك  
 للاحساس الاسلامي فانه افصح منطقاً من القلم! وبالجملة فتلك  
 قلوب ألف الله بينها حتى صارت شيئاً واحداً من اجسام  
 متفرقة وعسى ان يوفق الله مسلمي عصرنا هذا إلى هذا الاخاء  
 أو إلى بعضه حتى يسودوا كما ساد المتحدون من قبل او كان هناك  
 الاخاء على المواساة والحق وان يتوارثوا بعد الموت دون ذوى  
 الارحام وكان عليه السلام يقول لكل اثنين: «تأخوفاً في الله  
 أخوين أخوين.» ودام هذا الميراث الى ان نسخه الله بقوله:  
 «وأولو الارحام بعضهم أولى ببعض في كتاب الله»  
 ولما استقر عليه السلام بالمدينة أرسل زيداً بن حارثة  
 وأبا رافع الى مكة ليأتيا بمن تخاف من أهله فقدا بفاطمة وأم  
 كاثوم — بنتيه عليه السلام — وسودة زوجة وأم أيمن زوج زيد  
 وابنها أسامة. أما زينب فمنها زوجها ابو العاص بن الربيع وخرج  
 مع الجميع عبد الله بن أبي بكر بأم رومان زوج أبيه وعائشة  
 لبخته وأسماء زوج الزبير بن العوام وكانت حاملاً بابنها عبد الله

وهو أول مولود للمهاجرين بالمدينة . ولم يكن هواء المدينة في البدء موافقاً للمهاجرين من أهل مكة فأصاب كثيراً منهم الحمى فقال عليه السلام : « اللهم حبب إلينا المدينة كما حبيت إلينا مكة واشد وبارك في مدها وصاعها وانقل وبائها إلى الجحفة » فاستجاب الله جل وعلا دعوته وعاش المهاجرون في المدينة بسلام . ومنع مشركو مكة بعضاً من المساهمين عن الهجرة وحبسوهم وعذبوهم فكان عليه الصلاة والسلام يدعو لهم في صلاته وهذا أصل القنوت . ثم شرع عليه السلام في بناء مسجده في مبرك ناقته أمام محلة بني النجار وكان محله مربداً للتمر لغلामين يتيمين فاشتراه منهما وكانا أرادا أن يهباه إياه فأبى عليه السلام إلا أخذه شراء وقد عمل فيه رسول الله بنفسه ليرغب المسلمين في العمل وبني بجانبه حجرتين إحداهما لسوده والأخرى لعائشة زوجته — ولم يكن عليه السلام متزوجاً غيرها إذ ذاك بعد وفاة خديجة — وصارت الحجرات تبنى بجوار المسجد كلما جاءت زوجة . ثم سنَّ الله الآذان لتثنيه الغافل وتذكير الساهي للصلاة حتى يكون الاجتماع عاماً وكان بلال

أول مؤذن في الإسلام.

هذا وكما ابتلى الله المسلمين في مكة بمشركي قريش ابتلاهم في المدينة بيهودها وهم بنو قينقاع وقريظة والنضير فانهم اظهروا العداوة والبغضاء حسداً من بعد ما تبين لهم انه الحق وكانوا قبل مجيء الرسول يستثنجون على المشركين من العرب اذا شبت الحرب بين الفريقين بنبي يبعث قد قرب زمانه فلما جاءهم ما عرفوا استعظم رؤسائهم ان تكون النبوة في ولد اسماعيل فكفروا بما انزل الله بغيا مع أنهم يرون ان رسول الله محمداً لم يأت الا مصداقاً لما بين يديه من كتب الله التي انزلها على من سبقه من المرسلين مبيناً ما افسده التأويل منها ولكنهم نبذوه وراء ظهورهم كأنهم لا يعلمون !! وتدين بين الهدى لا حدر رؤساء قينقاع — وهو عبد الله بن سلام — فترك هواه واسلم بغداً ان سمع القرآن . وبعد ان كان اليهود يعدونه من اعظم رؤسائهم عدوه من سفهائهم حينما بلغهم اسلامه !! ولما استحكمت في قلوبهم عداوة الاسلام صاروا يجهدون أنفسهم في اطفاء نوره وكان يساعدهم على مقاصدهم هذه جماعة من



عرب المدينة اعمى الله بصائرهم فأخفوا كفرهم خوفاً على حياتهم ولا يخفى ان ضرر المنافقين أشد على المسلمين من ضرر الكفار لان أولئك يدخلون بين المسلمين فيعلمون أسرارهم ويشيعونها بين الاعداء من اليهود وغيرهم كما حصل ذلك مراراً. والاساس الذي كان عليه عليه السلام ان يقبل ما ظهر ويترك لله ما بطن ولكنه مع ذلك كان لا يأمنهم في عمل ما فكثيراً ما كان يتغيب عن المدينة ويولي عليها بعض الانصار ولكن لم يعهد انه ولي رجلاً ممن عهد عليه النفاق لانه عليه السلام يعلم ما يكون منهم لو ولوا عملاً فانهم بلا شك يتخذون ذلك فرصة لاضرار المسلمين. وهذا مثال لامراء الاسلام يدطم على انهم لو عهدوا بمهم الاعمال الى أصحاب النفاق لعاد عليهم وعلى الاسلام بالضرر الذي لا يخفى عواقبه على أحد كما حصل مراراً مما يئن منه المسلمون حالاً في كل البلاد؛ وبالجملة فقد قبل الرسول من المنافقين ظواهرهم وعقد مع اليهود عهداً مقتضاه ترك الحرب والأذى فلا يحاربهم ولا يؤذيهم ولا يعينون عليه أحداً وان دهمه بالمدينة عدو ينصرونه

وأقرهم على دينهم. ومن ذلك يعلم أنه عليه الصلاة والسلام لم يكن يقاتل لحد ذلك الوقت أحداً على الدخول في الدين. وبعد الهجرة اذن الله للمهاجرين بقتال مشركي قريش بقوله: «أذن الذين يقانلون بأنهم ظلموا وإن الله على نصرهم لقدير الذين أخرجوا من ديارهم إلا أن يقولوا ربنا الله» ثم أمرهم بذلك أيضاً في قوله: «وقاتلوا في سبيل الله الذين يقاتلونكم ولا تعتدوا إن الله لا يحب المعتدين. واقتلوهم حيث ثقتموهم وأخرجوهم من حيث أخرجوكم والفتنة أشد من القتل. ولا تقاتلوهم عند المسجد الحرام حتى يقاتلوكم فيه. فإن قاتلوكم فاقتلوهم كذلك جزاء الكافرين. فإن انتهوا فإن الله غفور رحيم وقاتلوهم حتى لا تكون فتنة ويكون الدين كله لله فإن انتهوا فلا عدوان إلا على الظالمين» ولما تملاً على المسلمين يوم من غير أهل مكة أمر الله بقتال المشركين كافة

ولما نقض اليهود العهد وساعدوا المشركين في حروبهم مع المسلمين أمر الله بقتالهم بقوله « وإما تخافن من قوم خيانة فانبذ إليهم على سواء إن الله لا يحب الخائنين ». فبناء

على ذلك قد ابتدأ القتال على المبادئ الآتية :

١ - اغتبار مشركي قريش محاربين لانهم بدأوا بالعدوان.

فصار للمسلمين قتالهم ومصادرة تجارتهم حتى يأذن

الله بفتح مكة أو تعقد هدنة وقتية بين الطرفين

٢ - متى رؤى من اليهود خيانه وتميز للمشركين قوتلوا

حتى يؤمن جانبهم .

٣ - متى تمدت قبيلة من العرب على المسلمين أو ساعدت

قريشاً قوتلت حتى تدين بالاسلام

٤ - من بدأ بعداوة من أهل الكتاب قوتل حتى يدعن

بالاسلام أو يعطى الجزية

٥ - كل من أسلم فقد عصم دمه وماله إلا بحسابه والاسلام

يقطع ما قبله

غزواته عليه السلام - وعملاً بهذه المبادئ رأى النبي

صلى الله عليه وسلم ان يبدأ بمصادرة تجارة قريش وهي مترددة

بين مكة والشام وغيرها ليكون في ذلك إضعاف لقوتهم المالية.

فيكون ادعى للخذلان في ميدان القتال فأرسل عمه حمزة في

ثلاثين رجلاً من المهاجرين وعقد له لواء أبيض حملة أبو  
 مرثد حليف حمزة ليعترض عيرا لقريش آية من الشام فيها  
 أبو جهل وثلثمائة من كبار المشركين ولما التقى بهم كاد أن  
 يكون قتال بين الطرفين لولا أن حجز بينهما مجدي بن عمرو  
 الذي شكره النبي عليه الصلاة والسلام على عمله لما كان من  
 قلة عدد المسلمين وكثرة عدوهم. ثم أرسل أيضاً بعد ذلك  
 عبيدة بن الحارث ابن عم حمزة في ثمانين فارساً من المهاجرين  
 ليعترض عيرا لقريش فيها مائتا رجل فوافوا العير ببطان والبع  
 فكان بينهم الرمي بالنبال ثم خاف المشركون أن يكون  
 للمسلمين كمين فانهزموا ولم يتبعهم المسلمون وفر من المشركين  
 إلى المسلمين المقداد بن الأسود وعتبة بن غزوان وكانا  
 أسلما وخرجا ليلحقا بالمسلمين

وممن توفي من المهاجرين في بحر هذه السنة—وهي الأولى  
 من الهجرة—عثمان بن مظعون أخو رسول الله صلى الله عليه  
 وسلم من الرضاع أسلم قديماً وهاجر الهجرتين ولما دُفن أمر  
 عليه السلام بأن يرش قبره بالماء ويوضع على قبره حجراً

قال : أتعلم به قبر أخي وأدفن إليه من مات من أهلي . وهذا  
كان القصد من وضع الأحجار على المقابر . ولأنتى عشرة  
ليلة خلت من صفر السنة الثانية خرج رسول الله صلى الله  
عليه وسلم من المدينة بعد أن استخلف عليها سعد ابن عبادة  
ليعترض عيرا لقريش في طريق مكة ولكنه رجع بدون أن يلقى  
حرباً لأن العير كانت قد سبقته وفي هذه الغزوة صالح بن حمزة  
على أنهم آمنون على أنفسهم ولهم النصر على من رامهم وإن عليهم  
فصرة المسلمين إذا دعوا ثم رجع إلى المدينة بعد مضي خمس  
عشرة ليلة . ولم يمض على رجوعه غير قليل حتى بلغه أن عيرا  
لقريش آية من الشام فيها أمية بن خلف ومائة من قريش  
وآلفان وخمسمائة بعير فسار إليها في مائتين من المهاجرين  
وذلك في ربيع الأول وكان يحمل لواءه سعد بن أبي  
وقاص فلما بلغ بواط وهو جبل ينبع وجد العير قد فاتته فرجع  
كذلك ولم يلق كيداً وذلك كله لما كان يأخذ المشركون من  
الحذر على أنفسهم والاجتهاد في إخفاء أخبارهم عن أهل المدينة  
وأعقب رجوعه عليه السلام خروج قريش بأعظم عير لها

— فقد جمعوا فيها أموالهم حتى لم يبق بمكة قرشي أو قرشية طرفة  
 مثقال فصاعدا الا بعثت به في تلك العير — وكان يرأسها أبو  
 سفيان بن حرب فخرج لها الرسول في جمادى الأولى ومعه  
 مائة وخمسون من المهاجرين واستخاف على المدينة أباسلوة  
 بن عبد الأسد وحمل لواءه عمه حمزة ولم يزل سائرا حتى بلغ  
 العشيرة وهي موضع بطريق ينبع فوجد العير قد مضت  
 وحالف في هذه الغزوة بني مدلج وحلفاءهم ثم رجع عليه السلام  
 الى المدينة ينتظر هذه العير حينما ترجع وبعد رجوعه بتقليل  
 جاء كرز بن جابر النهري وأغار على سرح المدينة وهرب  
 فخرج الرسول في طلبه واستخاف على المدينة زيادا بن حارثة  
 الانصاري وحمل لواءه علي بن أبي طالب فسار حتى بلغ  
 سفوان — وهو واد من ناحية بدر — وفات كرز فلم يلق  
 حرباً . وفي رجب من هذه السنة أرسل سرية عدتها  
 ثمانى رجال عليها عبد الله بن جحش وأمره باكتشاف خبر  
 عير لقريش ستمر من نخلة فصار عبد الله الى ان وصل  
 نخلة وهناك مرّت بهم عير قرشية تريد مكة فحمل المسلمون

عليهم في أول يوم من رجب فقتلوا عمراً بن الحضيرمى واسروا  
عثمان بن عبد الله بن المغيرة والحكم بن كيسان واستاقوا  
العيرو وهي أول غنيمة غنمها المسلمون من أعدائهم قريش ثم رجعوا  
ولم يتمكن المشركون من اللحاق بهم فلما قدموا المدينة وشاع  
أنهم قاتلوا في الأشهر الحرم وعاتبهم قريش واليهود بذلك  
عنهم المسلمون وقال لهم عليه السلام ما أمرتكم بقتال في  
الأشهر الحرم فندموا فأنزل الله : « ويسألونك عن الشهر  
الحرام قتال فيه؛ قل قتال فيه كبير وصدّ عن سبيل الله وكفر  
به والمسجد الحرام وإخراج أهله منه أكبر عند الله والفتنة  
أكبر من القتال » وقد طلب المشركون فداء أسيرهم فقال  
عليه السلام حتى يرجع سعد وعتبة فلما رجعا قبل عليه السلام  
الفدية في الأسيرين فأما الحكم بن كيسان فأسلم وحسن  
إسلامه وبقي مع المسلمين وأما عثمان فلحق مكة كافراً  
وفي هذه السنة أمر عليه السلام بتحويل القبلة إلى  
الكعبة بعد أن مكث مدة يستقبل بيت المقدس وقد أكثر  
اليهود من التنديد على الإسلام لهذا التحويل وما دروا أن

ﷲ المشرق والمغرب يهدي من يشاء الى صراط مستقيم. وفي  
 شعبان من هذه السنة أوجب الله صوم رمضان على المسلمين  
 وكان عاينه الصلاة والسلام قبل ذلك يصوم ثلاثة أيام من كل  
 شهر. ولا تفوت الليب حكمة الصوم فانها تلين النفس وتهذب  
 الاخلاق فتسهل على الانسان بذل الصدقات ولذلك أوجب  
 الله عقب الصيام زكاة الفطر فترى الانسان يبذلها بسخاء نفس  
 ونية خالصة. وفي هذا العام فرضت زكاة الاموال وهذه هي  
 النظام الوحيد الذي به يأكل الفقراء والمساكين من اخوانهم  
 الاغنياء بلا ضرر على هؤلاء. والليب العاقل البعيد عن التعصب  
 يحكم لاول نظرة ان هذا النظام مع عدم إضراره بالاغنياء  
 مقلل لمصائب الفقر التي اجأت كثيرين من الفقراء بالبلاد  
 الاجنبية ان يخالفوا نظام دولهم ويؤسسوا مبادئ غاية في  
 القبح لتقويض دعائم العمران وأركان المدينة كما يفعله  
 الاشرار كيون والنهيلست وغيرهم من الفرق الكثيرة التي  
 نسمع لها كل يوم اسماً جديداً

وفي رمضان من السنة الثانية للهجرة غزا غزوة بدر



فكانت الدائرة فيها على أبي جهل وقومه وهم تسعمائة وخمسون رجلا والنبي وأصحابه ثلاثمائة وثلاثة عشر رجلا وفيها نزل قوله تعالى : اذ تستغيثون ربكم فاستجاب لكم انى ممدكم بألف من الملائكة .... الآية. وقد قتل من المشركين كثيرون منهم عقبة وشيبة ابنا ربيعة والوايد بن عقبة وعقبة بن أبي معيط والنضر بن الحارث الذين كانوا بككة من أشد المستهزئين بالمسلمين. وقد استشار عليه السلام أصحابه بشأن الأسرى فأشار عمر بقتلهم حتى يعلم أنه ليس في قلوب المسلمين مودة للمشركين ووافقوه على ذلك سعد بن معاذ وعبدالله بن رواحة وقال أبو بكر : يا رسول الله هؤلاء أهلك وقومك قد أعطاك الله الظفر والنصر عليهم أرى ان تستبقيهم وتأخذ الفداء منهم فيكون ما أخذنا منهم قوة لنا على الكفار وعسى ان الله يهديهم بك فيكونوا لله عضداً. فقال عليه السلام: إن الله ليلين قلوب أقوام حتى تكون ألين من اللين وان الله ليشدد قلوب أقوام حتى تكون أشد من الحجارة وان مثلك يا أبا بكر مثل ابراهيم قال : فمن اتبعنى فانه منى ومن عصانى

فإنك غفور رحيم . وإن مثلك يا عمر مثل نوح قال : رب لا تذر على الأرض من الكافرين دياراً . ورأى عليه السلام رأى أبي بكر بعد أن مدح كلا من الصاحبين لأن الوجهة واحدة وهي اعزاز الذين وخذلان المشركين . ثم قال لأصحابه : أتستم اليوم عائلة فلا يفلتن أحد من أسراكم إلا بفداء وقد بلغ قریشاً ما عزم عليه الرسول في أمر الأسرى فناحت على القتلى شهراً ثم أشير عليهم من كبارهم أن لا يفعلوا كي لا يبلغ محمداً وأصحابه جزعهم فيشتمتوا بهم فسيكتوا وصنموا أن لا يبكوا قتلاهم حتى يأخذوا بثأرهم وتراضوا فيما بينهم أن لا يعجلوا في طلب الفداء إلا يتغالى المسلمون فيه فلم يلتفت بعضهم إلى ذلك وبعثوا في فداء أسراهم — وكان من أربعة آلاف إلى ألف درهم ومن لم يكن معه فداء وهو يحسن القراءة والكتابة أعطوه عشرة من غلمان المدينة يعلمهم وكان ذلك فداؤه — وهذه النزوة هي التي أعز الله بها الإسلام وقوى أهله مع قلة المسلمين وكثرة عدوهم فهي آية ظاهرة على عناية الله تعالى بالإسلام ولذلك قال الله متمنياً على عباده بهذا النصر : « ولقد نصركم الله ببدر

وَأَتَمَّ أَذْلَةً . فِيهِ أَعْظَمُ الْغَزَوَاتِ إِذْ قَدْ قُتِلَ فِيهَا مِنْ صِنَادِيدِ قُرَيْشٍ مَنْ كَانُوا الْإِعْدَاءَ الْإِلْدَاءَ لِلْإِسْلَامِ وَدَخَلَ الرَّعْبُ فِي قُلُوبِ بَاقِي الْعَرَبِ فَكَانَتْ لِلْمُسْلِمِينَ هَيْبَةٌ بِهَا يَكْسِرُونَ الْجَيْوشَ وَيَهْزِمُونَ الرِّجَالَ فَلَا جُرْمَ أَنْ شَكَرْنَا اللَّهَ تَعَالَى عَلَى هَذِهِ الْعِنَايَةِ وَمَا أَحْرَى الْمُسْلِمِينَ أَنْ يَتَّخِذُوا هَذَا الْيَوْمَ عِيدًا يَشْكُرُونَ فِيهِ اللَّهَ عَلَى مَا أَوْلَاهُمْ مِنْ نِعْمَةِ النِّصْرِ . وَوَلَقَدْ أَظْهَرَ يَهُودَ بَنِي قَنْتَاعِ التَّغْيِظَ وَالْحَنَقَ مِنْ هَذَا النِّصْرِ الْمُبِينِ وَأَبْدُوا مَكْنُونَ ضَائِرَهُمْ فَبَدَّتِ الْبَغْضَاءُ مِنْ أَفْوَاهِهِمْ وَانْتَهَكُوا حُرْمَةَ سَيِّدَةٍ مِنْ نِسَاءِ الْإِنصَارِ فَدَعَا عَلَيْهِ السَّلَامُ رُؤْسَاءَهُمْ وَحَذَرَهُمْ جَاعِقَةُ الْبَنِي وَنَكَثَ الْعَهْدَ فَمَالُوا : يَا مُحَمَّدُ لَا يَغْرَتُكَ مَا لَقِيتَ مِنْ قَوْمِكَ فَانْهَمِمْ لَا عِلْمَ لَهُمْ بِالْحَرْبِ وَلَوْ لَقِيتُنَا لَتَعْلَمِينَ أَنَا نَحْنُ النَّاسُ ! وَكَانُوا أَشْجَعُ الْيَهُودِ فَأَنْزَلَ اللَّهُ « قُلْ لِلَّذِينَ كَفَرُوا سِتْغَلِبُونَ وَتَحْشَرُونَ إِلَى جَهَنَّمَ وَبُنُسِ الْمَهَادِ قَدْ كَانَ لَكُمْ آيَةٌ فِي تَحْتِينِ التَّمْتَا : فَمَنْ تَقَاتَلَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَأُخْرَى كَافِرَةٌ يَرُونَهُمْ مِثْلَهُمْ رَأَى الْعَيْنِ وَاللَّهُ يُؤَيِّدُ بِنَصْرِهِ مَنْ يَشَاءُ أَنْ فِي ذَلِكَ لَعِبْرَةٌ لَأُولِي الْأَبْصَارِ » . وَعِنْدَ مَا تَظَاهَرَ الْيَهُودَ بِالْعِدَاوَةِ

وتحصنوا بحصونهم سار اليهم عليه السلام وقتلهم حتى  
انهزموا شر هزيمة وطلبوا منه الأمان على أن يخرجوا من  
المدينة ولهم النساء والذرية وللمسلمين الاموال . فقبل ذلك  
عليه السلام . ثم كانت غزوة السويق وسببها ان ابا سفيان  
ذكر قتلاه ببدر وآلى على نفسه انه لا يمس الطيب والنساء  
حتى يأخذ بشارهم فبعث رجالاً الى المدينة قتلوا بعض الانصار  
وخرج هو في مائتي رجل فجدى النبي صلى الله عليه وسلم في  
طلبهم فلما أحسوا به هرب أبو سفيان وتبعه قومه وألقوا  
جرب السويق فأخذه المسلمون ولذا سميت غزوة السويق .  
وفي هذه السنة سن الله للعالم الاسلامي سنة عظيمة بها يمكن  
أبناء البادية الواحدة من المسلمين أن يجددوا عهود الأخاء  
ويقروا عروة الدين الوثقى وهي الاجتماع في يومى عيد الفطر  
وعيد الاضحى وكان عليه السلام يجمع المسلمين في صعيد واحد  
ويلبى بهم ركعتين تضرعاً الى الله أن لا يفصم عروبتهم وأن  
ينصرهم على عدوهم ثم ينحطب فيهم حاضراً على الائتلاف ثم  
يصافح المسلمون بعضهم بعضاً . ثم غزا غزوة أحد في شهر

شوال للسنة الثالثة من الهجرة وكان عدد المشركين ثلاثة آلاف وخلفهم هند امرأة أبي سفيان في نسوة يضربن الدفوف وينحن على قتلى بدر ويحرضن القوم على الاخذ بالثار وكان عدد المساميين ألف رجل فقتل من المشركين اثنان وعشرون ومن المساميين سبعون فيهم حمزة وفي هذه الغزوة شج وجه النبي صلى الله عليه وسلم وكلمت شفثاه وجرح علي وأبو بكر وكانت هند وصواحبها يمشان بالشهداء فجد عن الانوف والآذان وتخذن منها قلائد وبقرت هند بطن حمزة ولاكت كبده ونزل في هذه الغزوة قوله تعالى: ليس لك من الأمر شيء أو يتوب عليهم أو يعذبهم فانهم ظالمون . وقد كان يقاتل مع قريش بنو المصطلق وبنو الهون بن خزيمه ومعهم ابو عامر الراهب الاوسى وكان فارق المدينة كراهية في الرسول عليه السلام ومعه عدد ممن هم على شاكلته وخرج معهم جماعات من أعراب كنانة ونهامة وقد لحق بالمسلمين في هذه الغزوة خسائر جمة ومات منهم كثيرون وذلك لما خالف الرماة وصايا النبي صلى الله عليه وسلم إذا وقفهم خلف

الجيش على ظهر الجبل وقال : لا تبرحوا : إن رأيتونا ظهرنا عليهم فلا تبرحوا وإن رأيتوهم ظهروا علينا فلا تبرحوا. ولما دارت رحى الحرب بين الفريقين كانت الدائرة على المشركين فانطلق الرماة يتهبون اسلابهم ناسين ان ما قاله لهم الرسول لا بد وان يكون لحكمة عرفوها فيما بعد. فلما رأى الاعداء تفرق المسلمين انطلق أحد رؤسائهم ببعض الجيش وأتى المسلمين من ورائهم وهم مشتغلون بدنياهم فلما رأوا ذلك البلاء دهشوا وتركوا ما بأيديهم وانتقضت صفوفهم واختلطوا من غير شعور حتى صار يضرب بعضهم بعضاً وأشاع أحد المشركين أن محمداً قد قتل فدخل الفشل بالمسلمين وانهمزم جماعة منهم وتوجهوا المدينة ولكنهم استحووا أن يدخلوها فرجعوا وثبت رسول الله ومعه جماعة كانوا يتلقون عنه رمى النبال—وقد أصابه عليه السلام في هذه الغزوة شدة عظيمة تحملها بما أعطاه الله من الثبات—وكان أبو عامر الراهب قد حفر حفراً وغطاها ليقع فيها المسلمون فوق الرسول في حفرة فيها فأغمى عليه وخذشت ركبته فأخذه على يده ورفعته

طلحة بن عبيد الله - وهما ممن ثبت معه - حتى استوى قائماً فرماد  
عتبة بن أبي وقاص بحجر كسر رباعيته فتبعه حاطب بن أبي  
بلتعة فقتله وشج وجهه عليه السلام كما أسلفنا وجرحت  
وجنتاه ثم سار إلى الشعب فجاءت له فاطمة وغسأت  
دمه . ولقد أصاب المسلمين الذين كانوا يخطون به كثيراً  
من الجراحات لأن الشخص منهم كان يتلقى السهم خوفاً  
أن يصل للرسول فوجد بطلحة ست وسبعون جراحة وشلت  
يده وأصاب كعب بن مالك سبع عشرة جراحة . وقد  
فرح المشركون بذلك ورجعوا إلى مكة . وفي هذه الحادثة  
عبرة لمن يعتبر : فسبب هذا الابتلاء عصيان أمر الرسول  
والتنازع قال الله تعالى في ذلك : « ولقد صدقكم الله وعده إذا  
تحسبتم بأذنه حتى إذا فشلتم وتنازعتم في الأمر وعصيتهم  
من بعد ما أراكم ما تحبون : منكم من يريد الدنيا ومنكم من  
يريد الآخرة ثم صرفكم عنهم ليبتليكم ولقد عفا عنكم والله ذو  
فضل على المؤمنين » ولما رجع الرسول المدينة نادى في أصحابه  
بأنخرج خلف العدو وأن لا يخرج إلا من كان معه بالأمن

مخافة أن يشن المشركون الغارة على المدينة ويتوا إبتصارهم فكان ذاك وخرجوا واللواء معقود لم يحل بأعطاه لى بن أبي طالب وولى على المدينة ابن أم مكتوم ثم سار الجيش حتى وصلوا مكاناً يدعى حمراء وهو على ثمانية أميال من المدينة في طريق مكة . وقد كانت ما ضنه الرسول حقاً فان المشركين تلبوا بموا على ترك المساهين من غير شن الغارة على المدينة حتى تم لهم النصر فأصروا على الرجوع ولكن لما بانهم خروج الرسول في أثرهم ظنوا أنه قد حضر معه من لم يحضر بالأه من وألقى الله الرعب في قلوبهم فتهادوا من سيرهم الى مكة ودفن عليه السلام وهم في حمراء الأسد بأبي عزة الشاعر الذي كان يمرض المشركين على قتال النبي - وكان أسير في بدر وأطلته الرسول بعد أن عاهده على أن لا يساعد ولا يهين على قتاله - فأمر بقتله فقال : يا محمد أقانى وامنن على ودعنى لبناتى وأعدك عهداً أن لا أعود امثل ما فعلت فقال عليه السلام : لا والله لا تمسح عارضيك بمكة تقول خدمت محمداً مرتين : لا يلدغ المؤمن من حجر مرتين . وضرب عنقه . وفي هذه السنة



حرم الله الخمر والميسر فكان من وراء ذلك أن نجت الامم  
الاسلامية من مرض المسكرات وهي الداهية التي تفجع  
اليوم أمماً كثيرة من المسيحيين وغيرهم وكانت احدى  
الأسباب فى اضطراب المجتمع الانسانى وظهور مذهب  
الفوضويين مما تجهل الامم الاسلامية واكن ربما لا يمر زمن  
إلا وتعرفه هى أيضاً لا بتعادها عن الدين وانهماك كثير من  
أفرادها وشبانها على الذات والمسكرات بفضل المدنية والحرية  
التي هادتنا بهما أوروبا المتمدنة وتمن علينا بهما !! وفى السنة  
الرابعة غزا بنى النضير من اليهود الذين تجمعوا على قتاله صلى  
الله عليه وسلم وشدد عليهم الحصار حتى طلبوا الخروج  
فأخرجهم بأمتعتهم إلا السلاح فأم بعضهم خيبر وأم البعض  
الشام . وفى السنة نفسها كانت غزوة ذات الرقاع مع جموع  
عطفان وغزوة بدر الثانية مع أبى سفيان ولم يكن فيها حرب  
ثم جاءت السنة الخامسة وفيها غزا غزوة الخندق المسماة بغزوة  
الأحزاب لتحزب قبائل العرب كقريش وكنانة وعطفان  
وقبائل نجد وبنى قريظة فدارت الدائرة على آلافهم المجتمعمة

وفيهما نزل قوله تعالى : يا أيها الذين آمنوا اذكروا نعمة الله عليكم إذ جاءكم جنود فأرسلنا عليهم ريحاً و جنوداً لم تروها .  
وفيهما أشار سلمان الفارسي رضي الله عنه على النبي صلى الله عليه وسلم بأن عادة النرس أن يطوقوا مدنهم بخندق حين يحاصرها العدو إلقاء هجومه وأخذ النبي صلى الله عليه وسلم برأيه وحفر خندقاً حول المدينة وعمل فيه بنفسه ترغيباً للمسلمين . وفي هذه السنة غزا بني قريظة وحاصروهم خمسا وعشرين ليلة في شهر ذي القعدة وسبأ منهم سبعمائة رجل يزيدون أو ينقصون . وفي السنة عينها أو في سنة ست غزا بني المصطلق وقتلهم على ماء لهم يسمى الريمي و قتل وسبأ وغنم . وسببها أن الحارث بن ضرار - سيد بني المصطلق الذين ساعدوا قريشاً على المسلمين في أحد - كان أخذ يجمع الجموع لحرب النبي فسمع الرسول بذلك فخرج له وتقاتلوا بعد أن عرض النبي عليهم الاسلام فلم يقبلوا وحمل عليهم المسلمون حملة رجل واحد كانت الدائرة فيها على بني المصطلق وأسر المسلمون كثيراً منهم ومن نساءهم ففرقهم النبي على المسلمين ومن ذلك

يظهر حسن السياسة ومنتهى الكرم فإن بنى المصطلق من أعز العزب داراً فأسر نسائهم بهذه الحال صعب جداً فأراد عليه السلام أن يجعل المسامين يبنون على النساء بالحرية من تلقاء أنفسهم فتزوج برة بنت الحارث التي سماها جويرة فقالت المسلمون: أضحار رسول الله لا ينبغي أسرهم في أيدينا. فمنا عايرهم بالعتق وتسبب عن هذا الكرم العظيم وهذه المعاملة الجليلة أن أسلم بنو المصطلق عن بكرة أبيهم وكانوا للمسلمين بعد أن كانوا عايرهم. وقد حصل في هذه الغزوة نادران لولا أن صاحبتهما حكمة رسول الله لعادتا بالتمريق على المسلمين (١)

(١) فأولاهما أن أجيراً لعمر بن الخطاب اختصم مع حليف للخزرج فضرب الاجير الحليف حتى سال دمه فاستصرخ بقومه الخزرج واستصرخ الاجير بالمهاجرين فعلت الشخفاء وكادوا يقتلون لولا أن خرج عليهم رسول الله فأخبروه الخبر ثم كلم المضروب حتى أسقط حقه وبذلك سكنت الفتنة فلما بلغ عبد الله بن أبي هذا الخصام غضب وكان عنده رهط من الخزرج فقال: ما رأيت كالיום مذلة أو قد فعلوها نافرنا في ديارنا والله ما نحن والمهاجرون الا كما قال الاول سمن كلبك يا كلك اما والله لئن رجعتا الى المدينة

وهما من مضار المنافقين الذين يدخلون بين الأمم مظهرين  
الحجة لهم وقلوبهم مملوءة حقداً يتربصون الفتن فتى رأوا باباً

ليخرجن الاعز منها الاذل ثم التفت الى من معه وقال : هذا ما  
فعلتم بأنفسكم. أحللتوهم بلادكم وقاسمتوهم أموالكم أما والله لو  
أمسكتم عنهم بأيديكم لتحولوا الى غير داركم ثم لم ترضوا بما فعلتم  
حتى جعلتم أنفسكم غرضاً للعنايا دون محمد فأيتهم أطفالكم وقتلتم وكثروا فلا  
تتفقوا عليهم حتى ينفضوا من عنده. وكان في مجلسه شاب حديث  
السن قوى الاسلام اسمه زيد بن أرقم فأخبر رسول الله الخبر فتغير  
وجهه وقال : يا غلام لعلمك غضبت عليه فقلت ما قلت؟ فقال : والله  
يا رسول الله لقد سمعته . قال : لعلمه أخطأ سمعك ؟ فاستأذن عمر  
الرسول في قتل ابن أبي أو أن يأمر أحداً غيره بقتله فنهاه عن  
ذلك. وقال : كيف يا عمر اذا تحدث الناس أن محمداً يقتل أصحابه؟!  
ثم أذن بالرجيل في وقت لم يكن يرتحل فيه حين اشتد الحر يقصد  
بذلك عليه السلام اشغال الناس عن التكلم في هذا الموضوع فجاءه  
أسيد بن حضير وسأله عن سبب الارتحال في هذا الوقت فقال :  
أو ما بلغك ما قال صاحبكم: زعم انه ان رجع الى المدينة ليخرجن  
الاعز منها الاذل. قال: أنت والله يا رسول الله تخرجه ان شئت هو  
والله الذليل وأنت العزيز . ثم سار عليه السلام بالناس سبيراً حيثما  
حتى آذتهم الشمس فنزل بالناس فلم يلبثوا أن وجدوا مس الارض  
حتى وقعوا نياماً وكلم رجال من الانصار عبد الله بن أبي في أن

لها ولجوه فنعوذ بالله منهم . وفي هذا العام — على ما عليه  
الاكثرون — فرض الله على المسلمين حجب البيت الحرام من

يطلب من الرسول الاستغفار فلوى رأسه واستكبر وهنا نزل على  
الرسول سورة المنافقين التي فضحت عبد الله بن أبي واخوانه وصدقت  
زيد بن أرقم ولما بلغ ذلك عبد الله بن عبد الله بن أبي استأذن  
رسول الله في قتل أبيه حذراً من أن يكلف بذلك غيره فيكون  
عنده من ذلك أضغان وأحقاد فأمره عليه السلام بالاحسان الى أبيه  
(النادرة الثانية) وهي أفضع من الاولى وأجلب منها للمصائب  
وهي رمى عائشة الصديقة — زوج رسول الله — بالافك فاتهموها بصفوان  
بن المعطل السلمي وذلك انهم لما دنوا من المدينة آذن عليه السلام  
ليلة بالرحيل وكانت السيدة قد مضت لقضاء حاجتها حتى جاوزت  
الجيش فلما قضت شأنها أقبلت الى رحلها فلمست صدرها فاذا عقد  
لها من جزع ظفار قد انقطع فرجعت تلتمس عتمدها فحسبها ابتغاؤه  
فأقبل الرهط الذين كانوا يرحلون فاحتملوا هودجها ظانين انها فيه  
فاما جاءت منزل الجيش بعد ان وجدت عقدها لم تجد به أحداً فغابتها  
عينها فقامت وكان صفوان بن المعطل يسير وراء الجيش يفقد  
ضائعه فأصبح عند منزلها فعرفها لانه كان رآها قبل الحجاب فاسترجع  
فاستيقظت باسترجاعه وسرت وجهها بجلبابها فأناخ راحلته وأركبها  
من غير أن يتكلمها بكلمة ثم انطلق يقودها الراحلة حتى وصل  
الجيش وهو نازل للراحة فقامت قيامة أهل الافك وقالوا ما قالوا في

استطاع إليه سبيلاً وفي ذلك من تقوية الرابطة واتحاد القلوب ما فيه للمسامين القائدة العظمى. وفي السنة السادسة خرج

عائشة وصفوان والذي تولى كبر الافك عبد الله بن أبي ولما قدموا المدينة مرضت عائشة شهراً والناس يفيضون في قول أهل الافك وهي لا تشعر بشيء. وكانت تعرف في رسول الله رقة اذا مرضت فلم يعطها نصيباً منها في هذا المرض بل كان يمر على باب الحجرة لا يزيد على قوله كيف حالكم مما جعلها في ريب عظيم فلما نقرت خرجت هي وأم مسطح بن أثانة — أحد أهل الافك — للتبرز خارج البيوت فبعثت أم مسطح في مرطها فقالت: تعس مسطح. فقالت عائشة: بئس ما قلت أتسيين رجلاً شهد بدرأ فقالت: يا بنتاه أو لم تسمعي ما قالوا؟ فسألتها عائشة عن ذلك فأخبرتها الخبر فازدادت مرضاً على مرضها ولما جاءها عليه السلام كعادته استأذنته أن تمرض في بيت أبيها فأذن لها فسألت أمها عما يقول الناس فقالت يا بنية: هوني عليك فوالله لقلما كانت امرأة قط وضيئة عند رجل يحبها لها ضرائر الا أكثرن عليها. فقالت: سبحان الله أو لقد تحدث الناس بهذا؟ وبكت تلك الليلة حتى أصبحت لا يرقأ لها دمع ولا تكتحل بنوم وفي خلال ذلك كان عليه السلام يستشير كبار أهل بيته فيما يفعل. فقال له أسامة بن زيد لما يعلمه من براءة عائشة: أهالك أهلك ولا نعلم عايمهم الا خيراً. وقال علي بن أبي طالب: لم يضيق الله عليك والنساء سواها كثير. ولسن الجارية تصدقك. فدعا عليه السلام بريرة جارية عائشة

صلى الله عليه وسلم وأصحابه من المهاجرين والانصار وكانوا  
ألفاً وربعمائة وساق الهدى قاصداً مكة وبلغ ذلك قريناً فبعثت

وقال لها : هل رأيت من شيء يربيك ؟ فقالت : والذي بعثك بالحق  
ما رأيت عليها أمراً قط أغمضه غير أنها جارية حديثة السن تنام عن  
عجبتها فتأتي الداخن فتأكله. فقام عليه السلام وصعد المنبر والمسلمون  
مجمعون. وقال : من يعذرنى من رجل قد بلغنى أذاه فى أهلى ؟ والله  
ما علمت على أهلى الا خيراً ولقد ذكروا رجلاً ما علمت عليه الا  
خيراً وما يدخل على أهلى الا محي. فقال : سعد بن معاذ : أنا يا رسول  
الله أعذرك منه فان كان من الاوس ضربت عنقه وان كان من  
اخواننا من الخزرج أمرتنا ففعلنا أمرك. فقام سعد بن عبادة الخزرجى  
وقال : كذبت لعمر الله لا تقتله ولا تقدر على قتله ولو كان من  
من وهطك ما أحببت أنه يقتل. فقام أسيد بن حضير وقال لسعد بن  
عبادة : كذبت لعمر الله لنقتله فانك منافق تجادل عن المنافقين  
وكادت تكون فتنة بين الاوس والخزرج لولا أن رسول الله نزل  
من فوق المنبر وخفضهم حتى سكتوا أما عائشة فبقيت حزينة كئيبه  
لا يهنا لها عيش ولا يهدأ لها بال. وبينما هى مع أبويها اذ دخل عليه  
السلام فلم يتم جلس فقال : أما بعد يا عائشة انه بلغنى عنك كذا  
وكذا فان كنت بريئة فسيبرئك الله وان كنت ألمت بذنب فاستغفرى  
الله وتوبى اليه فان العبد اذا اعترف وتاب تاب الله عليه فتخلص دمع  
عائشة وقالت لابويها : أجيبا رسول الله. فقالا : والله ما ندرى ما

إليه عروة بن مسعود الثقفي سيد أهل الطائف فقال له : أن  
قريشاً عاهدوا الله أن لا تدخل عليهم مكة عنوة ورجع لهم  
فقال : جئت كسرى وقيصر في ماكما فوالله ما رأيت ملكاً

تقول . فقالت : انى والله لقد علمت أنكم سمعتم هذا الحديث حتى  
استقر في أنفسكم وصدقتم به . فلئن قلت لكم انى بريئة لا تصدقونى  
ولئن اعترفت لكم بأمر والله يعلم انى منه بريئة لا تصدقونى فوالله لا  
باجد لى ولكم مثلاً الا ابا يوسف قال : « فصر جميل والله المستعان  
على ما تصفون » . ثم تحولت واضطجعت على فراشها ولم يزاول  
رسول الله صلى الله عليه وسلم مجلسه حتى نزلت عليه الآيات من  
سورة النور ببراءة السيدة المطهرة عائشة الصديقة وأولها « ان الذين  
جاؤا بالافك عصبه منكم لا تحسبوه شراً لكم بل هو خير لكل امرئ  
منهم ما اكتسبت من الاثم والذي تولى كبره منهم له عذاب عظيم »  
فسرى من رسول الله وهو يضحك وبشر عائشة بالبراءة فقالت لها  
أمها : قومى فاشكرى رسول الله . فقالت : لا والله لا أشكر الا الله  
الذى برأنى . وبعد ذلك أمر عليه السلام بأن يجلد من صرح بالافك  
ثمانين جلدة وهى حد القاذف وكانوا ثلاثة خنثة بنت جحش ومسطح  
بن أثانة وحسان بن ثابت . وكان ابو بكر ينفق على مسطح بن أثانة  
لقربته منه فلما تكلم بالافك قطع منه النفقة فأنزل الله « ولا يأتل  
أولو الفضل منكم والسعة أن يؤتوا أولى القربى واليتامى والمساكين



في قومه مثل محمد في أصحابه . وبعث صلى الله عليه وسلم  
 عثمان بن عفان ليخبر أبا سفيان وأشرف مكة أن الرسول لم  
 يأت محاربا وإنما أتى زائراً معظماً البيت فقالوا له : ان أحببت  
 أن تطوف بالبيت فطف فقال لا إلا أن يطوف رسول  
 الله . فحبسوه وبلغ الرسول صلى الله عليه وسلم أنهم قتلوه  
 فدعا من معه إلى البيعة فبايعوه بيعة الرضوان تحت الشجرة  
 قال الله تعالى : لقد رضى الله عن المؤمنين إذ يبايعونك تحت  
 الشجرة . ولما علمت قريش بهذه البيعة خافوا وأشار أهل الرأي  
 منهم بالصلح فبعثوا إلى النبي صلى الله عليه وسلم سهل ابن  
 عمرو فأجابته إلى ما طلبت قريش من وضع الحرب على  
 شروط<sup>(١)</sup> ونحر هديه وحلق رأسه وفعل مثله صحبه وعادوا

والمهاجرين في سبيل الله وليعفوا وليصفحوا إلا تجون أن يغفر الله  
 لكم والله غفور رحيم » فقال : أبو بكر بنى نحب ذلك يا رسول  
 الله وأعاد النفقة على مسطح

(١) وهذه هي الشروط وتسمى بصلح الحديبية نسبة إلى

المكان الذي عقدت فيه

١ - وضع الحرب بين المسلمين وقريش أربع سنوات

وفي شهر المحرم من السنة السابعة غزا خيبر وصالحه أهلها على  
أن يساق بهم بنصف الثمار ويخرجهم متى شاء ففعل وفيها كل صلى

٢ — من جاء المسلمين من قريش يردونه ومن جاء قريشاً من  
المسلمين لا يلزمون برده

٣ — أن يرجع النبي من غير عمرة هذا العام ثم يأتي العام المقبل  
فيدخلها بأصحابه بعد أن تخرج منها قريش فيقيم فيها ثلاثة  
أيام ليس مع أصحابه من السلاح إلا السيف في القراب والقوس

٤ — من أراد أن يدخل في عهد محمد من غير قريش دخل  
فيه ومن أراد أن يدخل في عهد قريش دخل فيه

ولما قبل النبي هذا الشرط داخل المسلمين منه أمر عظيم  
وقالوا : سبحان الله كيف نرد إليهم من جاءنا مسلماً ولا يردونه  
من جاءهم مرتداً؟ فقال عليه السلام : ان من ذهب منا إليهم فأبعده  
الله ومن جاءنا منهم فردناه إليهم فسيجعل الله له فرجاً ومخرجاً. أملاً  
الامر الثالث وهو صد المسلمين عن الطواف بالبيت فكان أشد تأثيراً  
على قلوبهم لان الرسول أخبرهم أنه رأى في منامه أنهم دخلوا البيت  
آمنين وقد سأل عمر أبا بكر في ذلك فقال رضى الله عنه : وهل  
ذكر أنه في هذا العام؟. وكتب شروط الصلح بين الطرفين وكان  
الكاتب على بن أبي طالب فأملأه عليه السلام بسم الله الرحمن الرحيم  
فقال سفير قريش : اكتب باسمك اللهم فأمر الرسول أن يكتب  
ذلك ثم قال هذا ما صالح عليه محمد رسول الله فقال السفير : لو نعلم

الله عليه وسلم من الشاة المسمومة التي اهدتها اليه زينب بنت  
الحرث اليهودية اذ لم تزل تعاوده الى وفاته وتفل في عين

بانك رسول الله ما خالفناك ا كتب محمد بن عبد الله فامر عليه السلام  
عائياً بمجود ذلك وكتابة محمد بن عبد الله فامتنع على وتوقف فيحاهها  
النبي بيده وكتبت نسختان لكل من الطرفين نسخة وهذه هي اول  
معاهدة دواية ظهرت في العالم وبعد كتابها قال النبي صلى الله عليه  
وسلم لعلي: سيكون لك مثل هذه الواقعة. وقد حصل بالفعل له مثل  
ذلك حين كتابة الشروط التحكيم بينه وبين معاوية

وبعد كتابة الشروط جاءهم ابو جندل بن سهيل يحجل في قيوده  
وكان من المسلمين المنوعين من الهجرة فهرب للمسلمين هذه المرة  
ليحموه فقال له الرسول: اصبر واحتسب فان الله جاعل لك ولمن  
معك من المستضعفين فرجاً ومخرجاً انا قد عقدنا بين القوم صلحاً  
واعطيناهم واعطونا على ذلك عهداً فلا نعدر بهم. وكذلك رد الى  
قريش ابو بصير رضى الله عنه حين فر وأرسلت في طلبه اثنين  
ولكن أراد الله تعالى أن أهل قريش طلبوا نفسهم ابطال هذه  
الشروط واعطوا للنبي الحق في امسك من جاءه بأن اجتمع المسلمون  
الذين بمكة وفروا لجهة الشام واتحدوا مع جمع من الاعراب وقطعوا  
الطريق على تجارة قريش كما قطعوا عنهم الامداد فاستغاثت قريش لمنع  
ذلك برسول الله فقبل منهم ابطال هذا الشرط وأزاح الله عن المسلمين  
هذه الغمة التي صعب عليهم تحملها في الحديدية حينما أمرهم عليه

على وكانت رمداً فبرئ واعطاه الراية فقاتل اهل الحصن حتى فتح الله عليه بقلع يابه ثم انصرف صلى الله عليه وسلم الى وادى القرى فحاصره وفتحته عنوة وفي هذه السنة كانت عمرة القضاء التي خرج لاجلها صلى الله عليه وسلم في ألفين من أصحابه وأدوها وفي السنة الثامنة أسلم خالد بن الوليد وعمر بن العاص وعثمان بن طلحة بن عبد الدار وفيها كانت غزوة مؤتة بين الروم والمسلمين ونال المسلمون الفتح فيها على يد

الصلاة والسلام برد أبي جنيد وعلموا أن رأى الرسول أفضل وأحسن من رأيهم حيث كان في أمر تنسب عنه اختلاط الكفار بالمسلمين فخالطت بشاشة الاسلام قلوبهم حتى قال أبو بكر: ما كان فتح في الاسلام أعظم من فتح الحديدية ولكن الناس قصر رأيهم عما كان بين محمد وربه والعباد يعجلون والله لا يعجل لعجاة العباد حتى تبلغ الامور ما أراد . وفي رجوعه عليه الصلاة والسلام من الحديدية نزلت عليه سورة الفتح وقال سبحانه وتعالى في أولها ( ان فتحنا لك فتحاً مبيناً ) وفي الحقيقة انه ترتب على هذه المهادنة — التي لم تعجب المسلمين في مبدأ الامر — دخول كثيرين في الاسلام اذ لما كانت الهدنة ووضعت الحرب أوزارها وأمن الناس بعضهم بعضاً التقوا وتفاوضوا في الحديث والمنازعة فلم يكلم أحد بالاسلام أحداً الا دخل فيه

خالد بن الوليد بعد أن استشهد من قواد المسلمين ثلاثة هم  
 زيد بن حارثة وجعفر بن أبي طالب وعبد الله بن رواحة. وفي  
 هذه السنة خرج صلى الله عليه وسلم بأثنى عشر الفا من  
 المهاجرين والانصار وطوائف غيرها الى قرب مكة قاصداً  
 فتحيا لنتض قريش العهد ولله مقربة من مكة ركب العباس  
 عمه الى مكة ليخبر أشرافها فيأتوا الى النبي صلى الله عليه وسلم  
 ويستأمنوه فوجد أبا سفيان فأثني به وإسلم ثم امر النبي الجنود  
 لتدخل مكة فدخلوها يوم الجمعة لعشر بقين من رمضان واطمان  
 الناس وطاف صلى الله عليه وسلم بالبيت وصلى فيه وكسر  
 الأصنام قائلاً : قل جاء الحق وزهق الباطل ان الباطل كان  
 زهوقاً. ثم ارسل سرايا لتدعو من هم حول مكة الى الاسلام  
 وكانت منها سرية خالد بن الوليد التي نزل بها على ماء بني  
 جذيمة ولكونهم أبوا الاسلام قاتلهم وقتل منهم ولما بلغ  
 ذلك النبي صلى الله عليه وسلم ولم يكن امر بالقتال. قال :  
 اللهم انى أبرأ اليك مما صنع خالد ثم أرسل علياً بمال أدى به  
 دية القتلى وبقي معه مال دفعه اليهم تطيباً لخواطرها وفي هذه

لسنة كانت غزوة حنين وكان النبي في اثني عشر ألفاً من أصحابه فنالوا النصر المبين وأعجب المؤمنون فيها بكثرتهم حتى قال أحدهم: لن تغاب اليوم عن قلة! فنزل قوله تعالى: ويوم حنين إذ أعجبتكم كثرتكم. وتجمع المشركون من ثقيف بالطائف بعد هزيمتهم في حنين فسار إليهم النبي وحاصرهم أياماً وقاتلهم بالمنجنيق وظهر عليهم وغنم شيئاً كثيراً بلغ على ما يقولون أربعة وعشرين ألف بعير وأكثر من أربعين ألف شاة وأربعة آلاف أوقية من الفضة ففرقها صلى الله عليه وسلم على مسلمي الفتح فقط من أهل مكة فوجد الانصار في نفوسهم فدعاهم فقال صلى الله عليه وسلم: اوجدتم يا معشر الانصار على لعانة من الدنيا ألفت بها قوماً ليسلموا ووكالتكم الى اسلامكم أما ترضون ان يذهب الناس بالخير والشاه وترجعون برسول الله الى رحالكم؟ أما والذي نفس محمد بيده لولا الهجرة لكنت امرأ من الانصار ولو سلك الناس شعباً لسكنت شعب الانصار اللهم ارحم الانصار وابناء الانصار. واطلق النبي صلى الله عليه وسلم السبي وكانت عدته ثمانية آلاف وفي هذه

الغزوة اسلم مقدم هوازن مالك بن عوف واشتعمله النبي صلى  
الله عليه وسلم على قومه ومن اسلم من تلك القبائل. ثم جاءت  
السنة التاسعة وفيها كاتب النبي صلى الله عليه وسلم الملوك  
والقيصرة ودعاهم الى الاسلام فبعث الى النجاشي ملك الحبشة  
عمر بن أمية بكتاب فقبله ولى المقوقس - عامل الروم على  
مصر - حاطب بن ابي بلتعة بكتاب فأكرم المقوقس حاطباً  
ورده بلطف واهدى الى النبي صلى الله عليه وسلم بغلة وحملاً  
وجاريتين احداها مارية القبطية - والدة ابراهيم بن النبي صلى  
الله عليه وسلم - والى قيصر الروم دحية بكتاب فاحترمه  
واعتذر عن الاسلام لهييج شعبه ونفرتهم منه والى كسرى -  
ملك الفرس - عبدالله بن حدانة بكتاب فزقه كسرى وكتب  
الى عامله باليمن ان يرسل النبي اليه وبلغ النبي ذلك فدعا غايه  
فساط الله على كسرى ابنه شيرويه فقتله. وكتب شيرويه الى  
عامل اليمن وكان اسمه باذان بأن لا يتعرض الى النبي صلى الله  
عليه وسلم في شيء فأسلم باذان وجمع من فارس. وبعث الى  
الحارث بن أبي شمر الغساني شجاع بن وهب الأسدي

بكتاب. نقرأه وقال : أنا سائر إليه ندعا عليه النبي صلى الله عليه وسلم فأباد الله ملكة . والى هوذة ملك اليمامة سليط بن عمرو فقال : ان جعل الامر لي بعده سررت إليه وأسلمت وانصرتة وإلا حاربته. فقال النبي صلى الله عليه وسلم : اللهم اكفنيه . فمات بعد قليل والى المنذر ملك البحرين العلاء بن الحضرمي فأسلم وأسلمت معه عرب البحرين . وفي آخر هذه السنة غزا النبي صلى الله عليه وسلم الروم في تبوك وكانت جيوش الاسلام ثلاثين ألفاً وفتت هذه الغزوة بالصالح وصالح المسامون أهل أذربخ ودومة الجندل . وبعد عودته صلى الله عليه وسلم وفدت عليه الوفود الاسلام من بلاد الرب تماماً ونزل قوله تعالى : اذا جاء نصر الله والفتح ورأت الناس يدخلون في دين الله أفواجا... الآية . ثم بعث النبي صلى الله عليه وسلم علياً بكتاب الى اليمن فأسلمت همدان كماي بعد سماءه في يوم واحد ثم تابعت سكان الاطراف والشواطىء لتدين بالاسلام حتى طبق الدين الانحاء وملاً تلك الارحاء كل ذلك في تمام السنة العاشرة من الهجرة . ثم حج النبي صلى



اللهُ عليه وسلم — بعد ان عمم بغزواته انتشار المسلمين في البلاد  
 العربية — حجته المشهورة بحجة البلاغ لتبليغه المناسك للمسلمين  
 فيها وهي حجة الاسلام المنزل فيها قوله تعالى: اليوم اكملت  
 لكم دينكم واتممت عايمكم نعمتي ورضيت لكم الاسلام ديناً.  
 ويقال لها حجة الوداع اتوديع النبي صلى الله عليه وسلم فيها  
 للمسلمين وكان صلى الله عليه وسلم في تسعين ألفاً أو مائة  
 واربعة عشر ألفاً من المؤمنين وبعد ان علم الناس مناسكهم  
 وارشدهم الى سنن حجهم خطب فيهم خطبته الشهيرة على  
 عرفات وهو على ناقته القصواء فقال فيها: ان الحمد لله نحمده  
 ونستغفره ونتوب اليه ونعوذ بالله من شرور انفسنا ومن  
 سيئات اعمالنا من يهد الله فلا مضل له ومن يضلل الله فلا  
 هادي له واشهد ان لا اله الا الله وحده لا شريك له واشهد  
 ان محمداً عبده ورسوله. اوصيكم عباد الله بتقوى الله واحشمكم  
 على طاعة الله واستفتح بالذي هو خير. اما بعد ايها الناس  
 اسمعوا مني ايين لكم فاني لا ادري لعالي لا القاكم بعد عاى  
 هذا في موقفي هذا. ايها الناس ان دماءكم واموالكم عليكم

حرام الى ان تأتوا ربيكم كحرمة يومكم هذا في شهركم هذا في  
يادكم هذا ألا هل بلغت اللهم اشهد . فمن كانت عنده امانة  
فليؤدها الى الذي أئتمنه عليها . وان ربا الجاهلية موضوع وان  
اول ربا أبدأ به ربا عمى العباس بن عبد المطلب . وان دماء  
الجاهلية موضوعة وان اول دم أبدأ به دم عاصم بن ربيعة  
بن الحارث بن عبد المطلب . وان ماثر الجاهلية موضوعة غير  
السدانة والسقاية . والعمد قود وشبه العمد ماقتل بالعصا والحجر  
ففيه مائة بعير فمن زاد فهو من اهل الجاهلية . ايها الناس ان  
الشیطان قد يئس ان يعبد في ارضكم هذا ولكنه رضى ان  
يطاع فيما سوى ذلك مما تحمرون من اعمالكم . ايها الناس انما  
النسيء زياده في الكفر يضل به الذين كفروا يحلونهُ عاماً  
ويحرمونه عاماً ليواطؤوا عدة ما حرم الله وان الزمان قد استدار  
كهيئته يوم خلق الله السموات والارض وان عدة الشهور  
عند الله اثنا عشر شهراً في كتاب الله يوم خلق السموات  
والارض منها أربعة حرم ثلاثة متواليات وواحد فرد ذو  
القعدة وذو الحجة والمحرم ورجب الذي بين جمادى وشعبان .

ألا هل بلغت اللهم أشهد . أيها الناس إن لنسائكم عليكم حقاً  
وإن لكم عليهن حقاً: لكم عليهن أن لا يوطئن فرشكم ذنيركم  
ولا يدخلن أحداً تكرهونه بيوتكم إلا بإذنكم ولا يأتين  
بفاحشة فإن فعلن فإن الله أذن لكم أن تعضوهن وتهجروهن  
في المضاجع وتضربوهن ضرباً غير مبرح فإن انتهين وأطعنكم  
فعلينكم رزقهن وكسوتهن بالمعروف . وإنما النساء عندكم حوار  
لا يمكن شيئاً أخذتموهن بأمانة الله واستحللتم فروجهن  
بكتاب الله فاتقوا الله في النساء واستوصوا بهن خيراً . أيها  
الناس إنما المؤمنون أخوة فلا يحل لامرئٍ مال أخيه إلا عن  
طيب نفس ألا هل بلغت اللهم أشهد . فلا ترجعوا بعدي  
كفاراً يضرب بعضكم أعناق بعض فاني قد تركت فيكم  
ما إن أخذتم به لن تضلوا : كتاب الله وأهل بيتي ألا هل  
بلغت اللهم أشهد . أيها الناس إن ربكم واحد وإن أباكم واحد  
كلكم لآدم من تراب أكرمكم عند الله اتقاكم ليس  
لعربي على عجمي فضل إلا بالتقوى ألا هل بلغت . قالوا : نعم  
قال : فليبلغ الشاهد منكم الغائب . أيها الناس إن الله قسم

لكل وارث نصيبه من الميراث ولا يجوز لوارث وصية في أكثر من الثلث والولد للأرثش وللغاهن الحجج من دعى الى غير أبيه او تولى الى غير مواليه فعليه لعنة الله والملائكة والناس اجمعين لا يقبل الله منه صرفاً ولا عدلاً والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته

هذه هي خطبة الوداع ولو اردنا شرح ما حوته من الحكم والتشريع لازم لذلك مجلدات وايس هنا موضعه وفاته عليه السلام - وبعد ان فرغ صلى الله عليه وسلم من حجه عاد الى المدينة فأقام بها الى أواخر شهر صفر من السنة الحادية عشرة ثم اعتراه مرضه الذي توفي به. ولم تفارقه عليه الصلاة والسلام عنيته وشفقته على المسكين حتى في مرضه. من ذلك أنه خرج في حال مرضه يوماً مسنداً بين الفضل بن العباس وعلي بن أبي طالب قاصداً المسجد فصعد المنبر فحمد الله. ثم قال: أيها الناس من كنت بجلدت له ظهراً فهذا ظهري فاستبقد منه ومن أخذت له مالاً فهذا مالي فليأخذ منه ولا يخشى الشحناء من قبلي فانها ليست من شأني.

ونزل فصلي الظهر ورجع إلى المنبر فعاد إلى مقالته فادعى عليه رجل ثلاثة دراهم فأعطاه بدلها. ولما اشتد عليه مرضه استأذن أزواجه أن يمرض في بيت عائشة أم المؤمنين فأذن له. وتأخر عن الصلاة بالناس ثلاثة أيام قال في أول يوم منها مروا أبا بكر فليصل بالناس. فقالت عائشة: إنه رجل رقيق وأنه متى يتم مقامك لا يطيق ذلك فقال: مروا أبا بكر فليصل بالناس. فقالت: مثل ذلك فقال صلى الله عليه وسلم إنكن صواحبات يوسف مروا أبا بكر فليصل بالناس فصلى أبو بكر بالناس ثلاثة أيام بعدها توفي رسول الله صلى الله عليه وسلم ليلة اثنتي عشر ليلة خلت من شهر ربيع الأول ٨ يونيو سنة ٦٣٢ ميلادية فغسل وكفن في ثلاثة أثواب وحضر له تحت فراشه صلى الله عليه وسلم ودفن في قبره ليلة الأربعاء وله ثلاثة وستون سنة قمرية وثلاثة أيام وتوفي عليه الصلاة والسلام مستريح البال والضمير إذ أتم العمل الذي كان دائماً يفكر فيه وقام بالمهمة التي عهد لها إليه وبه سبحانه وتعالى خير قيام فألف بين قلوب مختلفة وأهواء

متشقة وأمم متفرقة وقبائل متباعدة بحيث أصبحوا بعد  
النفرة بنعمة الله اخوانا وأوجد وحدة قومية وجامعة دينية  
بين اقوام لم يعهدوها بل ولم يتخيلوها من قبل وأسس حكومة  
يصح ان تقول فيها إنها دستورية شوروية ملكية جمهورية  
امبراطورية في آن واحد وما احراها ان تدعى بالحكومة  
الابوية كما لا يخفى على كل منصف وأسس ديناً هو خاتمة  
الأديان لأنه يأمر المتدين به ان يعمل لدنياه كأنه لا يموت  
أبدًا ولا آخرته كأنه يموت غدًا فهو دين جمع بين حاجيات  
الدنيا وحاجيات الآخرة وهذا هو السبب الذي ساعد  
بالاكثر على انتشاره بالسرعة والسهولة التي عجب لها كل  
إنسان وادهشت كل مناظر . لان الأديان المنزلة من قبله  
كانت إما اليهودية وهي دين دنيوي محض يقضى بأن يعامل  
كل انسان الآخر بمثل ما يعامله به السن بالسن والعين بالعين  
وإما النصرانية وهي دين أخروي محض يوجب على صاحبه  
ان يتحمل كل شيء ويصبر على كل مكروه ويأمر من يضرب  
على خده اليسار ان يدير لضاربه خده اليمين وان يترك الدنيا

ويزهد فيها كل الزهد الخ .

ولا يخفى ان عاقبة السير على مقتضى كل من الدينين لا  
تؤدي الى تأسيس حكومة نظامية ثابتة الاساس قوية الاركان  
ولقد عرف سيدنا عيسى عليه السلام كل ذلك فقال: لا تظنوا  
انى جئت لالقي بينكم سُلماً كلاً بل سيفاً . ولا يمكن في الحقيقة  
ونفس الامر ان يكون إلا ما تنبأ به . فأوجد الله الاسلام  
جامعاً بين الدينين يأمر بالتصاوص والعفو ويكاف الناس  
بالعمل للدنيا والآخرة وجعل المسلمين أمة وسطاً فهو دين  
يطابق كل زمان وكل مكان يقبله العقل ويوافق كل ذوق سليم  
ولذلك قباه عقلاء العرب وتبعهم في ذلك جم غفير من الاقوام  
الآخريين وما زال ولن يزال ينتشر بسرعة غريبة بدون  
مبشرين ولا مرسلين مما جعل القرنج يتخوفون من نتيجة  
ذلك الانتشار ويحثون عن السر فيه ويجهدون في ايقاف  
تياره ولكنهم عبثاً يحاولون ذلك اذا نى لهم ان يقفوا في سبيله  
وهو ما صادف قلباً إلا تمكن منه ولا يسع أحداً ان ينزعه  
منه بشهادة كثيرين من الباحثين في هذا الموضوع وافاضل

علماء الفرنج قلاً جزم اذا كان الاسلام خاتمة الاديان وحسبنا  
دليلاً على أن مرجع العالم كله اليه والى مبادئه ما نراه من  
افتقار العالم أو بعبارة أخرى افتقار الدول العريقة في التمدن  
كما تسمى نفسها الي الرجوع الي بعض أحكامه من حين  
لآخر وإلا أليس في محاولة إدخال الطلاق والخدمة العسكرية  
الجبرية في القوانين الأوروبية الحديثة رجوع الي مبادئ  
الدين الاسلامي الذي طالما رماه بعض المتعصبين الجاهلين  
بالهمجية والتوحش؟ وأليس في تلك الحقوق والامتيازات التي  
تطلبها نساء الفرنج ويسمى في تقريرها لمن بعض متشرعي  
أوروبا رجوع كذلك لما منحه ذلك الدين منذ ثلاثة عشر  
قرناً لزميلاتهن المسلمات؟ وأليس ما نراه الآن بين دول أوروبا  
المسيحية التي يأمرها دينها بتحمل الضير والصبر على الذل  
والمكروه وعدم المقاتلة حتى مع أعدائهم من تلك الحروب  
التي تشبها استحسان لنا ورد في الدين الاسلامي ورجوع  
اليه مع أنهم يستبجون ذلك من المسلمين لو جاء منهم  
ويعدونه توحشاً وهمجية؟ ولو تدبروا الامر لوجدوا الاسلام



لم يفرض الجهاد إلا لإعلاء كلمة الله والحق التي هي أساس كل مدينة ومصدر الانسانية وشتان بين هذا المقصد ومقصد حشد الجيوش وازهاق النفوس لاغتصاب البلاد واستعباد الانسان للأغراض الدنيوية المحضة كما هو شأن تلك الدول المتعدنة ولكنهم لغايات في النفس ممن ينظرون للتدي الذي في عين غيرهم ولا ينظرون للخشبة التي في أعينهم !!!

سيرته عليه السلام بعد بعثته لحين وفاته - كان صلى الله عليه وسلم بشهادة ربه جل وعلا على خالق عظيم ولا يدفع السيئة بالسيئة وكان شديد الرأي وافر الحلم لباسه السكينة وشعاره البر والتقوى ومعقوله الحكمة وطبيعته الصدق والوفاء وخاتمه العفو والمعروف وسيرته العدل وشريعته الحق وامامه المهدي وملته الاسلام استكمل الاوصاف الجبابة والكسبية من كمال خلته وقوة عقله وصحة فهمه وفصاحة لسانه وقوة حواسه وشرف نسبه وعزرة قومه وكرم أرضه وقوة جأشه وتخلته بالاخلاق العلية وكان راجح الرأي يعلم

ذلك من تدييره أمر بواطن الخلق وظواهرهم وسياسته العامة والخاصة وما أفاضه على العالم من العلوم وقرره من الشرع من غير سبق تعلم. فأعجب به من أمي بلغ في العلم الغاية التصوي كما يعلم من جوامع كليم وحكم حديثه وقضايا أحكامه وأخباره عما في التوراة والإنجيل والكتب المنزلة وحكم الحكماء وسير الأمم الخالية وأيامها وضرب الأمثال وسياسة الأنام وذلك فضل الله كما قال: «وعلمك ما لم تكن تعلم وكان فضل الله عليك عظيماً» وكان قليل النوم قليل الغذاء لم يمتلئ بطنه شبعاً قط لا يسأل أهله طعاماً ولا يشتهي إن أطعموه أكل وما سقوه شرب يجلس للأكل مستوفزاً بمقياً ويقول: «انما أنا عبد آكل كما يأكل العبد وأجلس كما يجلس العبد» لم يبق جوده في يده شيئاً من المال فقد فتح عليه في حياته بلاد الحجاز واليمن وكل جزيرة العرب وما تأخها من أطراف الشام والعراق وجابت إليه أخماسها وجزيتها وصدقها وسيقت إليه الغنائم وهداه بعض الملوك بالتحف وما استأثر بشيء من هذا ولا أمسك منه درهما ولا ديناراً بل صرفه في جهته

وأغنى به غيره وقوى به المسلمين . وقال : ما يسرنى أن لى  
أحداً ذهباً بيت عندي منه دينار الا ديناراً أرصده لدينى .  
وكان يلبس ما وجده ويلبس فى الغالب الشملة والكساء الخشن  
والبرد الغليظ ويقسم على من حضره أقبية الديباج المخصوصة  
بالذهب ويرفع منها لمن لم يحضره . قد جبل على مكارم  
الأخلاق بمجود إلهى وفضل ربانى . وكان يؤلف بين الناس  
ولا ينفرهم ولو كان فظاً غليظ القاب لانفضوا من حوله وكان  
يكرم كريم كل قوم ويوليه عليهم ويحذر الناس ويحترس منهم  
قد وسع الناس خاقله وبسطه فصار لهم أباً وصاروا عنده فى  
الحق سواء يجيب دعوة الحر والعبد والأمة والمسكين ويعود  
المرضى فى أقصى المدينة ويقبل عذر المعتذر ويبدأ من لقيه  
بالسلام وأصحابه بالمصافحة ما روى قط ماداً رجليه بين أصحابه  
يكرم من يدخل عليه وربما بسط له ثوبه ويؤثره بالوسادة  
التي تحته ويعزم عليه فى الجلوس عليها إن أبى ويكنى أصحابه  
ويدعوهم بأحب أسمائهم تكريماً ولا يقطع على احد حديثه  
وكان يكره نقل أحاديث الناس اليه ونهى عن ذلك : فقال :

لا يبلغني احد منكم عن احد من أصحابي شيئاً فاني أحب أن  
أخرج اليكم وأنا سليم الصدر . يصل ذوى رحمه من غير ان  
يؤثرهم على من هم أحق منهم . يتواضع بين اصحابه تواضع  
احدهم لرفيقه ويجلس حيثما انتهى به المجلس وفي بيته يكون  
في مهنة اهله . وكان مجلسه مجلس حلم وعلم وحياء وخير وأمانة  
إذا تكلم أطرق جلساؤه كأن على رؤسهم الطير لا يجب  
التوسع في المآكل والمشارب والفرش زهداً في الدنيا  
وزخرفها ولذائذها . وكان خوفه من ربه على قدر علمه به تعالى  
قد أبان طريقته المثلى في جوامع كلمه حيث قال : «المعرفة رأس  
مالى والعقل اصل دينى والحب اساسى والشوق مركبى  
وذكر الله انيسى والثقة كنزى والحزن رفيقى والعلم سلاحى  
والصبر ردائى والرضا غنيمتى والمعجز نخرى والزهد حرفتى  
واليقين قولى والصدق شفيعى والطاعة حسبى والجهاد خلقى  
وقرة عينى فى الصلاة وثمره فؤادى فى ذكره وغمى لاجل  
أمتى وشوقى إلى ربي عز وجل » يعظم النعمة وان دقت وما  
انتصر لنفسه قط من مظلمة ظلمها ما لم تكن حرمة من

جرمات الله تعالى واقعد صبر على معاداة قريش ومقاساة  
تحامها واذى الجاهلية ومصابرة الشدائد الصعبة معهم إلى  
ان اظفره الله عليهم وحكمه فيهم وهم لا يشكون في استئصاله  
شأقهم فما زاد على ان عفا وصفح يوم فتح مكة وقال: ماتقولون  
انى فاعل بكم؟ قالوا خيراً أخ كريم وابن أخ كريم. فقال: اقول  
كما قال اخى يوسف لا تثريب عليكم اليوم يغفر الله لكم  
اذهبوا فأنتم الطلقاء. وكان يجالس المرضى وذوى العاهات  
ويؤاكلهم ويكلم كل قبيلة باغتها ويكتب الى ملوك العرب  
ورؤساء القبائل والاقبال باغاتهم ويكرم الوفود على اى دين  
كانوا ويجادل بالحسنى وينظر مع ملاحظة الآداب. وهو  
يصمت عند تناول السفهاء ويأمر بالمعروف وينهى عن المنكر  
وبالجمله فقد كان على جانب عظيم من اللين يطمع الطفل ان  
يقعد فى حجره ويعبث فى ردائه وله هيبه فى القلوب كأنه  
ملك محاط بجنود واعوان دخل عليه فى بيته رجل فأخذته  
الهيبه فارتعد فقال له: هوّن عليك فانما انا ابن امرأة تأكل  
القييد. وهذا منتهى الحلم ومكارم الاخلاق وكان مع ذلك

شجاعاً بطالاً أظهر من البسالة وحسن التدبير في حروبه ما  
شهد له به الأعداء قديماً وحديثاً وكل ذلك ولا شك بتوفيق  
من الله سبحانه وتعالى



### الفصل الثاني

القرآن وكونه معجزاً — الدين الاسلامي او الاسلام — انتشار الاسلام  
بسرعة عجيبة لم يسبق لها مثيل في التاريخ

القرآن وكونه معجزاً — القرآن هو الكلام العربي المنزل  
على محمد صلى الله عليه وسلم المتحدى بأقصر سورة منه المنقول  
تواتراً وهو من معجزاته عليه الصلاة والسلام وذلك أنه لما  
كانت معجزة كل نبي من جنس ما غاب على اهل زمانه  
وتهالكوا عليه وتفاخروا به كالسحر في زمن موسى والطب  
في زمن عيسى والموسيقى في زمن داود وكان زمن نبينا صلى  
الله عليه وسلم زمن فصاحة وبلاغة كانت معجزته القرآن  
المجيد الذي عجز فصحاء العرب وبلغاؤهم عن معارضته مع  
كونهم أحق بها إن أمكنت لكثرة اشتغالهم بما يناسب

ذلك وكما لهم فيه وفرط اهتمامهم بالمعارضة وتوفز دواعيهم وقد تحدى عليه السلام بما فيه من الأعجاز ودعاهم الى معارضته والأتیان بسورة من مثله فنكوا عنه وعجزوا عن الأتيان بشيء منه . قال بعض العلماء : ان الذي أوردته عليه السلام على العرب من الكلام الذي عجزهم عن الأتيان بمثله اعجب في الآية وأوضح في الدلالة من إحياء الموتى وبراء الأكمه والابرص لانه أتى اهل البلاغة وارياب الفصاحة ورؤساء البيان والمتقدمين في اللسن بكلام مفهوم المعنى عندهم وكان عجزهم عنه أعجب من عجز من شاهد المسيح عند إحياء الموتى لانهم لم يكونوا يطمعون فيه ولا في ابراء الأكمه والابرص مما لا يتعاطون علمه وقريش كانت تتعاطى الكلام الفصيح والبلاغة والخطابة فدل على ان العجز عنه انما كان ليصير علماً على رسالته وخجة لنبوته وقد ورد من الأخبار في قراءة النبي صلى الله عليه وسلم لبعض ما نزل عليه على المشركين الذين كانوا من اهل الفصاحة والبلاغة وإقرارهم بأعجازه جل كثيرة فمنها ما روى عن محمد بن كعب قال حدثت ان عتبة

بن زبينة قال ذات يوم وهو جالس في بادية قريش ورسول الله صلى الله عليه وسلم جالس وحده في المسجد: يا معشر قريش ألا أقوم إلى هذا فأعرضن إليه أموراً لعله إن يقبل منا بعضها ويكف عنا؟ قالوا بلى يا أبا الوليد. فقام عتبة حتى جلس إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم فذكر الحديث فيها قاله عتبة وفيما عرضنه عليه من المال وغير ذلك فلما فرغ قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: أفرغتم يا أبا الوليد؟ قال نعم: قال فاسمع مني. قال افعل. فقال: بسم الله الرحمن الرحيم حم تنزيل من الرحمن الرحيم... حتى بلغ قرآناً عربياً فمضى رسول الله صلى الله عليه وسلم يقرأها فلما سمعها عتبة أنصت لها وألقى يديه خلف ظهره معتقداً عليهما يستمع منه حتى انتهى رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى السجدة فسجد فيها ثم قال: سمعت يا أبا الوليد؟ قال سمعت فأنت وذاك! وقام عتبة إلى أصحابه فقال بعضهم لبعض يحلف بالله لقد جاءكم أبو الوليد بغير الوجه الذي ذهب به فلما جلس إليهم قالوا ما وراءك يا أبا الوليد؟ قال إني والله قد سمعت قولاً ما سمعت بمثله قط!



والله ما هو بالشعر ولا بالسحر ولا بالكهانة. يا معشر قريش  
أطيعوني خلوا بين هذا الرجل وبين ما هو فيه فوالله ليكون  
لقوله الذي سمعت نبأ. قال فاجابني بشيء والله ما هو بسحر  
ولا بشعر ولا كهانة قرأ بسم الله الرحمن الرحيم حم تنزيل  
من الرحمن الرحيم حتى بلغ فقل أنذرتكم صاعقة مثل صاعقة  
عاد وثمود فأمسكت فيه وناشدته الرحم ان يكف وقد علمت  
ان محمداً إذا قال شيئاً لم يكذب فخفت ان ينزل بكم العذاب.  
وعن عكرمة في قصة الوليد بن المغيرة— وكان زعيم قريش في  
الفصاحة— أنه قال للنبي صلى الله عليه وسلم اقرأ على فقرأ عليه  
ان الله يأمر بالعدل والاحسان وإيتاء ذى التربي الى آخر  
الآية قال أعد فأعاد صلى الله عليه وسلم فقال والله ان له  
لحلاوة وإن عليه لطلاوة وان اعلاه أشرف وان أسفله لمغدق  
وما يقول هذا بشر! ثم قال لقومه والله ما فيكم رجل أعلم  
بالاشعار مني ولا أعلم برجزه ولا باشعار الجن والله ما يشبه  
الذي يقول شيئاً من هذا وأنه ليعلو وما يبلى. وروى عن رجل  
من بني سلمة قال لما أسلم فتيان بنى سلمة قال عمرو بن الجموح

لابنه أخبرني ما سمعت من كلام هذا الرجل فقرأ عليه: الحمد لله رب العالمين. إلى قوله الصراط المستقيم فقال ما أحسن هذا وأجمله! أو كل كلامه مثل هذا قال يا أبت واخسن من هذا. وقال بعضهم إن هذا القرآن لو وجد مكتوباً في مصحف في فلاة من الأرض ولم يعلم من وضعه هناك لشهدت العقول السليمة أنه منزل من عند الله وإن البشر لا قدرة لهم على تأليف مثل ذلك.. وقد كان بودّنا إن نوفي هذا الموضوع حقه ونتكلم على الدين الإسلامي وما حوى من حكم وآداب وفضائل ولكن اطلعنا على كلام في هذا الصدد وفي انتشار الإسلام لحضرة صاحب النضيلة الأستاذ الشيخ محمد عبده المصري مفتي الديار المصرية حالاً فأثرنا نقله برمته هنا تماماً للفائدة فلقد اجاد فيما قال جزاه الله عن الإسلام والمسلمين خيراً خصوصاً وفضيائته حجة في هذا الموضوع قال حفظه الله في رسالة التوحيد التي طبعها ما يأتي تحت عنوان القرآن

جاءنا الخبر المتواتر الذي لا تطرق إليه الريبة أن النبي صلى الله عليه وسلم كان في نشأته وأميته على الحال التي ذكرنا

وتواترت أخبار الأمم كافة على أنه جاء بكتاب قال أنه أنزل عليه وإن ذلك الكتاب هو القرآن المكتوب في المصاحف المحفوظ في صدور من عنى بحفظه من المسلمين إلى اليوم كتاب جوى من أخبار الأمم الماضية ما فيه معتبر للأجيال الحاضرة والمستقبلة ثقب على الصحيح منها وغادر الأباطيل التي ألحقها الأوهام بها ونبه على وجوه العبرة فيها. حكى عن الأنبياء ما شاء الله أن يقص علينا من سيرهم وما كان بينهم وبين أممهم وبرأهم مما رماهم به أهل دينهم المعتقدون برسالاتهم آخذ العلماء من الملل المختلفة على ما أفسدوا من عقائدهم وما خلطوا في أحكامهم وما حرفوا بالتأويل في كتبهم. وشرع للناس أحكاماً تنطبق على مصالحهم وظهرت الفائدة في العمل بها والمحافظة عليها وقام بها العدل وانتظم بها شمل الجماعة ما كانت عند حد ما قرره ثم عظمت المضرة في إهمالها والانحراف عنها أو البعد بها عن الروح الذي أودعته ففاقت بذلك جميع الشرائع الوضعية كما يتبين للناظر في شرائع الأمم ثم جاء بعد ذلك بحكم ومواعظ وآداب تخشع لها القلوب وتهش لاستقبالها

العقول وتنصرف وراءها اللهم انصرفوا في السبيل الأمام .  
 نزل القرآن في عصر اتفق الرواة وتواترت الاخبار على أنه  
 أرقى الاعصار عند العرب وأغزرها مادة في الفصاحة وأنه  
 الممتاز بين جميع ما تقدمه بوفرة رجال البلاغة وفرسان الخطاب  
 وانفس ما كانت العرب تتنافس فيه من ثمار العقل ونتائج  
 الفطنة والذكاء هو الغالب في القول والسبق الى إصابة مكان  
 الوجدان من القلوب ومقرّ الاذعان من العقول وتفانيهم في  
 المفاخرة بذلك مما لا يحتاج الى الاطالة في بيانه . تواتر الخبر  
 كذلك بما كان منهم من الحرص على معارضة النبي صلى الله  
 عليه وسلم والتماسهم الوسائل قريبتها وبعيدها لا بظال دعواه  
 وتكذيبه في الاخبار عن الله واتيائهم في ذلك على مبلغ  
 استطاعتهم وكان فيهم الملوك الذين تحملهم غزاة الملك على  
 معاندته والامراء الذين يدعوهم السلطان الى مناواته والخطباء  
 والشعراء والكتاب الذين يشدخون بأنوفهم عن متابعتة وقد  
 اشتد جميع أولئك في مقاومته وانها لوا بقواهم عليه استكباراً  
 عن الخضوع له وتمسكاً بما كانوا عليه من أديان آبائهم وحمية

لعقائدهم وعقائد اسلافهم وهو مع ذلك ينحطى آرائهم  
ويسفه اجلامهم ويحتقر اصنامهم ويدعوهم الى ما لم تعهده  
ايامهم ولم تحقق مثله اعلامهم ولا حجة له بين يدي ذلك كاه  
إلا تحديهم بالآتيان بمثل أقصر سورة من ذلك الكتاب أو  
بعشر سور من مثله وكان في استطاعتهم ان يجمعوا اليه من  
العلماء والنصحاء البلغاء ما شاؤوا ليأتوا بشيء من مثل ما أتى به  
ليبتلوا الحجة ويفجروا صاحب الدعوة! جاءنا الخبر المتواتر أنه  
مع طول زمن التحدى ولجاج القوم في التعدى أصيبوا  
بالمجز ورجعوا بانخية وخقت لاكتاب العزيز الكلمة العليا  
على كل كلام وقضى حكمه العلى على جميع الاحكام. أليس  
في ظهور مثل هذا الكتاب على لسان أمي أعظم معجزة وأدل  
برهان على أنه ليس من صنع البشر وإنما هو النور المنبعث عن  
شمس العالم الالهى والحكم الصادر عن المقام الربانى على لسان  
الرسول الامي صلوات الله عليه (١) هذا وقد جاء في الكتاب

(١) مما يضحك الثكلى ان يقوم من بين علماء الفرنج في هذه  
الايام مدع يجهل طبعاً حقيقة ما يقول يزعم ان القرآن غير فصيح

من أخبار الغيب ما صدّقه حوادث الكون كالخبر في قوله غلبت الروم في أذنى الأرض وهم من بعد غابهم سيغابون في بضع سنين وكالوعد الصريح في قوله : وعد الله الذين آمنوا منكم وعملوا الصالحات ليستخلفنهم في الأرض كما استخلف الذين من قباهم... الآية وقد تحقق جميع ذلك وفي القرآن كثير من مثل هذا يحيط به من يتلوه حق تلاوته . ومن الكلام عن الغيب فيه ما جاء في تجدي العرب به واكتفائه في الرجوع عن دعواه بأن أتوا بسورة من مثله مع سعة البلاد العربية ووفرة سكانها وتباعد أطرافها وانتشار دعوته على لسان الوافدين الى مكة من جميع أرجائهم . ومع أنه لم يسبق له صلى الله عليه وسلم السياحة في نواحيها والتعرف برجالها وقصور العالم البشرى عادة عن الاحاطة بما أودع في قوى أمة عظيمة

وأنه لم ينزل بلغة العرب الفصحى! ويقوم بكل تبجح يخطب في مؤتمر المستشرقين الذي انعقد في هذا العام — سنة ١٩٠٥ — ببلاد الجزائر بمثل هذه الأراجيف والاضاليل ولكن لله در مندوبي مصر فقد أوقفوه عند حده وردوا كيده في نحره .

كلامه العربية فهذا القضاء الحاتم منه بأنهم لن يستطيعوا أن يأتوا بشيء من مثل ما تحدّاهم به ليس قضاء بشرياً ومن الضمب بل من المتعذر أن يصدر عن عاقل التزام كالذي التزمه وشرط كالذي شرطه على نفسه لغاية الظن عند من له شيء من العقل أن الارض لا تخلو من صاحب قوّة مثل قوّته وإنما ذلك هو الله المتكلم والعليم الخبير هو الناطق على لسانه وقد أحاط عامه بقصور جميع القوى عن تناول ما استنهمضهم له وبلوغ ما حشهم عليه . يقول واهم إن العجز حجة على من عجز فان العجز هي حجة الإخام وإلزام الخصم وقد يلتزم الخصم ببعض المسلمات عنده فيفهم ويعجز عن الجواب فتلتزمه الحجة ولكن ليس ذلك بمنزلة لغيره فمن الممكن أن لا يسلم غيره بما سلمه فلا يفحّمه الدليل بل يجد الى ابطاله أقرب سبيل وهو وهم يضمحل بما قدّمناه من البيان اذ لا يوجد من المشابهة بين إعجاز القرآن وإخام الدليل إلا أنه يوجد عن كل منهما عجز وشتان بين العجزين وبعد ما بين وجهتي الاستدلال فيهما فان إعجاز القرآن برهن على أمر واقعي وهو تقاصر

القوى البشرية دون مكانته من البلاغة وقلنا القوى البشرية  
لأنه جاء بلسان عربي. وقد عرف الكتاب عند جميع العرب  
في عهد النبوة وكان حال العصر من البلاغة كما ذكرنا وحال  
القوم في العناد كما بينا ومع ذلك لم يمكن للعرب أن يعارضوه  
بشيء من مبلغ عقولهم فلا يعقل أن فارسياً أو هندياً أو رومانياً  
يبلغ من قوة البلاغة في العربية أن يأتي بما عجز عنه العرب  
أنفسهم وتقاصر القوى جميعها عن ذلك مع التماثل بين النبي  
وبينهم في النشأة والتربية وامتياز الكثير منهم بالعلم والدراسة  
دليل قاطع على أن الكلام ليس مما اعتيد صدوره عن البشر  
فهو اختصاص من الله سبحانه لمن جاء على لسانه ثم ما ورد  
في القرآن من تسجيل العجز عليهم والتعرض للاضطدام بجميع  
ما أوتوا من قوة مما يدل على الثقة من أمره مع ما سبق  
تعداده من الأمور التي لا يمكن معها لعقل أن يقف ذلك  
الموقف مع طول الزمن وانفساح الاجل كل ذلك يدل على  
أن الناطق هو عالم الغيب والشهادة لا رجل يعظ وينصح على  
العادة. فثبت بهذه المعجزة العظمى وقام الدليل بهذا الكتاب



الباقى الذى لا يعرض عليه التغيير ولا يتناوله التبديل أن نينا  
 محمداً صلى الله عليه وسلم رسول الله الى خلقه فيجب التصديق  
 برسالاته والاعتقاد بجميع ما ورد فى الكتاب المنزل عليه  
 والاخذ بكل ما ثبت عنه من هدى وسنة متبعة وقد جاء فى  
 الكتاب أنه خاتم الانبياء فوجب علينا الايمان بذلك كذلك  
 بقى علينا ان نشير الى وظيفة الدين الاسلامى وما دعا  
 اليه على وجه الاجمال وكيف انتشرت دعوته بالسرعة المعروفة  
 والسر فى كون النبي صلى الله عليه وسلم خاتم المرسلين صلوات  
 الله عليهم أجمعين

الدين الاسلامى أو الاسلام - هو الدين الذى  
 جاء به محمد صلى الله عليه وسلم وعقله من وعاءه عنه من صحابته  
 ومن عاصرهم وجرى العمل عليه حيناً من الزمن بينهم بلا  
 خلاف ولا اعتساف فى التأويل ولا ميل مع الشيع وإبنى  
 مجمله فى هذا الباب مقتدياً بالكتاب المجيد فى التفويض لذوى  
 البصائر أن يفصلوه وما سئدى فيما أقول الا الكتاب والسنة  
 القويمة وهدى الراشدين

جاء الدين الاسلامي بتوحيد الله تعالى في ذاته وأفعاله  
وتنزيهه عن مشابهة المخلوقين فأقام الأدلة على ان لا يكون  
خالقاً واحداً متصفاً بما ذات عليه آثار صنعه من الصفات  
العالية كالعلم والقدرة والارادة وغيرها وعلى أنه لا يشبهه شيء  
من خلقه وأن لا نسبة بينه وبينهم الا أنه موجودهم وأنهم له  
واليه راجعون « قل هو الله أحد الله الصمد لم يلد ولم يولد  
ولم يكن له كفواً أحد » وما ورد من ألفاظ الوجه واليدين  
والاستواء ونحوها له معان عرفها العرب المخاطبون بالكتاب  
ولم يشبهوا في شيء منها وان ذاته وصفاته يستحيل عليها أن  
تبرز في جنس أو روح أحد من العالمين وانما يختص سبحانه  
من شاء من عباده بما شاء من علم وسلطان على ما يريد  
أن يسلطه عليه من الأعمال على سنة له في ذلك سنه في  
علمه الازلي الذي لا يعتريه التبديل ولا يدنو منه التغيير  
وحظر على كل ذي عقل أن يعترف لأحد بشيء من ذلك  
إلا برهان ينتهي في مقدماته الى حكم الحس وما جاوره من  
البدهييات التي لا تنقص عنه في الوضوح بل قد تعلوه

كاستحالة الجمع بين التمييزين أو ارتفاعهما معاً أو وجوب ان  
الكل أعظم من الجزء مثلاً وقضى على هؤلاء كثيرهم بأنهم  
لا يملكون لانفسهم نفعاً ولا ضرراً وغاية أمرهم أنهم عباد  
مكرمون وأن ما يجريه على أيديهم فانما هو باذن خاص وبتيسير  
خاص في موضع خاص لحكمة خاصة ولا يعرف شأن الله  
في شيء من هذا الا يبرهان كما تقدم

دل هذا الدين بمثل قول الكتاب « والله أخرجكم من  
بطون أمهاتكم لا تعلمون شيئاً وجعل لكم السمع والابصار  
والانفذة لعلكم تشكرون » والشكر عند العرب معروف أنه  
تصريف النعمة فيما كان الانعام بها لاجله دل بمثل هذا على  
أن الله وهبنا من الحواس وغرز فينا من القوى ما نصرفه  
في وجوهه بمحض تلك الموهبة فكل شخص كاسب لعمله  
بنفسه لها أو غيرها وأما ما تحير فيه مداركنا وتقصردونه قوانا  
وتشعر فيه أنفسنا بسلطان يقهرها أو ناصر يمدّها فيما أدركها  
العجز عنه على انه فوق ما تعرف من القوى المسخرة لها وكان  
لا بد من الخضوع له والرجوع اليه والاستعانة به فذلك انما

يردّ الى الله وحده فلا يجوز أن تخشع الاله ولا أن تطعن  
إلا اليه وكذلك جعل شأنها فيما تخافه وترجوه مما تقبل عليه  
في الحياة الآخرة لا يسوغ لها أن تلجأ الى أحد غير الله في  
قبول أعمالها من الطيبات ولا في غفران أفاعيلها من السيئات  
فهو وحده مالك يوم الدين

اجتثت بذلك جذور الوثنية وما وليها مما لو اختلف عنها  
في الصورة والشكل أو العبارة واللفظ لم يختلف عنها في المعنى  
والحقيقة تبع هذا طهارة العقول من الاوهام الفاسدة التي لا  
تنفك عن تلك العميدة الباطلة ثم تزه النفوس عن المالكات  
السيئة التي كانت تلازم تلك الاوهام وتخلصت بتلك الطهارة  
من الاختلاف في المعبودين وعليهم وارتفع شأن الانسان  
وسمت قيمته بما صار اليه من الكرامة بحيث أصبح لا يخضع  
لاحد إلا الخالق السموات والارض وقاهر الناس أجمعين  
وأبىح لكل أحد بل فرض عليه أن يقول كما قال ابراهيم  
« أنى وجهت وجهى الذى فطر السموات والارض حنيفاً  
وما أنا من المشركين » وكما أمر رسول الله صلى الله عليه وسلم

أن يقول « ان صلاتي ونسكي ومحياي ومماتي لله رب العالمين  
لا شريك له وبذلك أمرت وأنا أول المسلمين »

تجلت بذلك للانسان نفسه حرة كريمة واطلقت ارادته  
من القيود التي كانت تعقدها بارادة غيره سواء كانت ارادة  
بشرية ظن انها شعبة من الازادة الالهية أو انها هي كارادة  
الرؤساء والسيطرين أو ارادة موهومة اخترعها الخيال كما  
يظن في القبور والأحجار والأشجار والكواكب ونحوها  
وافتكت عزيمته من أسر الوسائط والشفعاء والمتكهنه والعرفاء  
وزعماء السيطرة على الأسرار ومنتحلي حق الولاية على أعمال  
العبد فيما بينه وبين الله الزاعمين أنهم واسطة النجاة وبأيديهم  
الإشتماء والاسعاد وبالجملة فقد اعتقت روحه من العبودية  
للمحتالين والدجالين وصار الانسان بالتوحيد عبد الله خاصة  
حرا من العبودية لكل ما سواه فكان له من الحق ما للحر  
على الحر لا على في الحق ولا وضع ولا سافل ولا رفيع ولا  
تفاوت بين الناس إلا بتفاوت أعمالهم ولا تفاضل إلا بتفاضلهم  
في عقولهم ومعارفهم ولا يقربهم من الله إلا طهارة العقل من

دنس الوهم وخلوص العمن والعوج والرياء ثم بهذا خلصت  
أموال الكاسيين وتمحض الحق فيها للفقراء والمساكين  
والمصالح العامة وكفت عنها أيدي العالة واهل البطالة ممن  
كان يزعم الحق فيها بصفته ورتبته لا بعمله وخدمته

طالب الاسلام بالعمل كل قادر عليه وقرر ان لكل  
نفس ما كسبت وعليها ما اكتسبت « فمن يعمل مثقال ذرة  
خيراً يره ومن يعمل مثقال ذرة شراً يره » « وان ليس  
للانسان الا ما سعى » وأباح لكل أحد أن يتناول من  
الطيبات ما شاء أكلاً وشرباً ولباساً وزينة ولم يحظر عليه الا  
ما كان ضاراً بنفسه أو بمن يدخل في ولايته أو ما تعدى  
ضرره الى غيره وحدد له في ذلك الحدود العامة بما ينطبق  
على مصالح البشر كافة فكفل الاستقلال لكل شخص في  
عمله واتسع المجال لتسابق الهمم في السعى حتى لم يعد لها عقبه  
تعتز بها اللهم الا حقاً محترماً تصطدم به . أتى الاسلام على  
التقليد وحمل عليه حملة لم يردّها عنه القدر فبددت فيالقه  
المتغلبة على النفوس واقتلعت أصوله الراسخة في المدارك

ونسفت ما كان له من دعائم وأركان في عقائد الأمم صباح  
 بالعقل صبيحة أزعجته من ثباته وهبت به من نومة طال عليه  
 الغيب فيها كما نفذ إليه شعاع من نور الحق خلصت إليه  
 هينمة من سدنة هياكل الوهم « نم فان الليل حالك والطريق  
 وعرة والغاية بعيدة والراحلة كليلة والازواد قليلة » علا  
 صوت الاسلام على وساوس الطغام وجهر بأن الانسان لم  
 يخلق ليقاد بالزمام ولكنه فطر على أن يهتدى بالعلم والاعلام  
 اعلام الكون ودلائل الحوادث وانما المعلمون منبهون  
 ومرشدون والى طرق البحث هادون صرح في وصف أهل  
 الحق بأنهم « الذين يستمعون القول فيتبعون أحسنه »  
 فوصفهم بالتميز بين ما يقال من غير فرق بين القائلين لياخذوا  
 بما عرفوا حسنه ويطرحوا ما لم يتبينوا صحته ونفعه ومال على  
 الرؤساء فأنزلهم من مستوى كانوا فيه يأمرزون وينهون  
 ووضعهم تحت أنظار رؤسيتهم يخبرونهم كما يشاؤون ويمتحنون  
 من اعمهم حسبها يحكمون ويقضون فيها بما يعلمون ويتيقنون  
 لا بما يظنون ويتوهمون . صرف القلوب عن التعلق بما كان

عليه الآباء وما توارثه عنهم الأبناء وسجل الحق والسفاهة على الآخذين بأقوال السابقين ونبه إلى أن السبق في الزمان ليس آية من آيات العرفان ولا مسمياً لاعتول على عقول ولا لأذهان على أذهان وإنما السابق واللاحق في التمييز والقطرة سيان بل لللاحق من علم الأحوال الماضية واستعداده للنظر فيها والانتفاع بما وصل إليه من آثارها في الكون ما لم يكن لمن تقدمه من أسلافه وآبائه وقد يكون من تلك الآثار التي ينتفع بها أهل الجيل الحاضر ظهور العوائب السيئة لأعمال من سبقتهم وظغيان الشر الذي وصل إليهم بما ارتكبه سلفهم « قل سيروا في الأرض فانظروا كيف كان عاقبة المكذبين » وإن أبواب فضل الله لم تغلق دون طالب ورحمته التي وسعت كل شيء لن تضيق عن دائب . عاب أرباب الأديان في اقتفاءهم أثر آبائهم ووتوفهم عند ما اختطته لهم سير أسلافهم وقولهم « بل نتبع ما وجدنا عليه آباءنا » « أنا وجدنا آباءنا على أمة وأنا على آثارهم مهتدون »

فأطلق بهذا سلطان الغمّل من كل ما كان قيده وخلصه



من كل تقليد كان استعبده وردّه الى مملكته يقضى فيها بحكمه وحكمته مع الخضوع مع ذلك لله وحده والوقوف عند شريعته ولا حدّ للعمل في منطقة حدودها ولا نهاية للنظر يمتدّ تحت بنودها . بهذا وما سبقه تمّ للانسان بمقتضى دينه أمران عظيمان طالما حرم منهما وهما استقلال الارادة واستقلال الرأى والتفكر وبهما كملت له انسانيته واستعدّ لان يبلغ من السعادة ما هياً الله له بحكم الفطرة التي فطر عليها وقد قال بعض حكماء الغربيين من متأخريهم ان نشأة المدنية في أوروبا انما قامت على هذين الاصلين فلم تهرض النفوس للعمل ولم تتحرك العقول للبحث والنظر الا بعد أن عرف العدد الكثير انفسهم وأن لهم حقاً في تصريف اختيارهم وفي طلب الحقائق بعقولهم ولم يصل اليهم هذا النوع من العرفان الا في الجيل السادس عشر من ميلاد المسيح وقرر ذلك الحكيم أنه شعاع سطع عليهم من آداب الاسلام ومعارف المحققين من أهله في تلك الازمان . رفع الاسلام بكتابه المنزل ما كان قد وضعه رؤساء الاذيان من الحجر على عقول

المتدينين في فهم الكتب السماوية استشاراً من أولئك الرؤساء بحق الفهم لأنفسهم وضمنا به على كل من لم يلبس لباسهم ولم يسلك مسلكهم لنيل تلك الرتب المقدسة ففرضوا على العامة أو أبا حوالهم أن يقرأوا قطعاً من تلك الكتب اكن على شريطة أن لا يفهموها ولا أن يطيلوا أنظارهم الى ما ترمى اليه ثم غالوا في ذلك فخرموا أنفسهم أيضاً مزية الفهم الا قليلاً ورموا عقولهم بالقصور عن ادراك ما جاء في الشرائع والنبوات ووقفوا كما وقفوا بالناس عند تلاوة الالفاظ تعبداً بالاصوات والحروف فذهبوا بحكمة الازسال فجاء القرآن يلبسهم عارماً فعلا فقال « ومنهم أمنيون لا يعلمون الكتاب الا أمانى وإن هم الا يظنون » « مثل الذين حملوا التوراة ثم لم يحملوها كمثل الحمار يحمل أسفارا بئس مثل القوم الذين كذبوا بآيات الله والله لا يهدي القوم الظالمين » أما الامانى فقسمت بالقراءات والتلاوات أى لا يعلمون منه الا أن يتلوه واذا ظنوا أنهم على شئ مما دعا اليه فهو عن غير علم بما أودعه وبلا برهان على ما تخيلوه عقيدة وظنوه ديناً واذا عن لا نخدم أن بين شيئاً

من أحكامه ومقاصده لشهوة دفعته الى ذلك جاء فيما يقول  
 بما ليس منه علي بينة واعتسف في التأويل وقال هذا من عند  
 الله « فويل للذين يكتبون الكتاب بأيديهم ثم يقولون هذا  
 من عند الله ليشتروا به ثمناً قليلاً » أما الذين قال انهم لم يحملوا  
 التوراة وهي بين أيديهم بعد ما حملوها فهم الذين لم يعرفوا  
 منها الا الالفاظ ولم تسم عقولهم الى درك ما أودعته من  
 الشرائع والاحكام فعميت عليهم بذلك طرق الاهتداء بها  
 وطمست عن أعينهم أعلام الهداية التي نصبت بانزالها فحق  
 عليهم ذلك المثل الذي أظور شأنهم فيما لا يليق بنفس بشرية  
 أن تظهر به مثل الحمار الذي يحمل الكتب ولا يستفيد من  
 حملها إلا العناء والتعب وقصم الظهر وانهار النفس وما أشنع  
 شأن قوم انقلبت بهم الحال فما كان سبباً في إسعادهم وهو  
 التنزيل والشريعة أصبح سبباً في شقائهم بالجهل والغباوة وبهذا  
 التبريع ونحوه وبالذعوة العامة الى الفهم وتمحيص الالباب  
 للتمقّه واليقين مما هو منتشر في القرآن العزيز فرض الاسلام  
 على كل ذي دين ان يأخذ بحظه من علم ما اودع الله في كتبه

وما قرّر من شرعه وجعل الناس في ذلك سواء بعد استيفاء  
الشرط بأعداد ما لا بد منه للفهم وهو سهل المنال على الجمهور  
الاعظم من المتدينين لا تختص به طبقة من الطبقات ولا  
يحتكر مزيبته وقت من الاوقات

جاء الاسلام والناس شيع في الدين وإن كانوا إلا قليلا  
في جانب عن اليقين يتنازرون ويتلاعنون ويزعمون في ذلك  
أنهم بحبل الله مستمسكون فرقة وتخالف وشغب يظنونها في  
سبيل الله أقوى سبب انكر الاسلام ذلك كله وصرح  
تصريحا لا يحتمل الريبة بأن دين الله في جميع الازمان وعلى  
اللسن جميع الانبياء واحد قال الله: «ان الدين عند الله الاسلام  
وما اختلف الذين أوتوا الكتاب إلا من بعد ما جاءهم العلم  
بغيا بينهم» «ما كان ابراهيم يهوديا ولا نصرانياً ولكن  
كان حنيفاً مسلماً وما كان من المشركين» «شرع لكم من  
الدين ما وصى به نوحا والذين أوحينا اليك وما وصينا به  
ابراهيم وموسى وعيسى أن أقيموا الدين ولا تتفرقوا فيه كبر  
على المشركين ما تدعوهم اليه» «قل يا أهل الكتاب تعالوا

الى كلمة سواء بيننا وبينكم أن لا نعبد الا الله ولا نشرك به  
شيئاً ولا يتخذ بعضنا بعضاً ارباباً من دون الله فان تولوا فقولوا  
اشهدوا بانا مسلمون « وكثير من ذلك يطول ايراده في  
هذه الوريقات والآيات الكريمة التي تعيب على أهل الدين  
ما نزعوا اليه من الاختلاف والمشاقة مع ظهور الحججة واستقامة  
الحججة لهم في علم ما اختلفوا فيه معروفة لكل من قرأ القرآن  
وتلاوه حق تلاوته . نص الكتاب على أن دين الله في جميع  
الازمان هو إفراذه بالربوبية والاستسلام له وحده بالعبودية  
وطاعته فيما امر به ونهى عنه مما هو مصالحة للبشر وعماد  
لسعادتهم في الدنيا والآخرة وقد ضمنه كتبه التي انزلها على  
المصطفين من رسله ودعا العقول الى فهمه منه والعزائم الى  
العمل به وان هذا المعنى من الدين هو الاصل الذي يرجع  
اليه عند هبوب ريح التخالف وهو الميزان الذي توزن به  
الاقوال عند التناصف وان اللجاج والمراء في الجدل فراق مع  
الدين ولبعد عن سنته ومتى روعيت حكيمته ولو حظ جانب  
الغناية الالهية في الانعام على البشر به ذهب الخلاف وتراجعت

القلوب الى هداها وسار الكافة في مرشدهم اخوانا بالحق  
مستمسكين وعلى نصرته متعاونين . أما صور العبادات  
وضروب الاحتفالات مما اختلفت فيه الاديان الصحيحة  
سابقها مع لاحتها واختلاف الاحكام متقدمها مع متأخرها  
فصدره رحمة الله ورأفته في ابناء كل أمة وكل زمان ما علم  
فيه الخير للامة والملاءمة للزمان وكما جرت سنته وهو رب  
العالمين بالتدرج في تربية الاشخاص من خارج من بطن أمه  
لا يعلم شيئاً الى راشد في عقله كامل في نشأته يمزق الحجب  
بفكره ويواصل أسرار الكون بنظره كذلك لم تختلف سنته  
ولم يضطرب هديه في تربية الامم فلم يكن من شأن الانسان  
في جملة ونوعه ان يكون في مرتبة واحدة من العلم وقبول  
الخطاب من يوم خلقه الله الى يوم يبلغ به من الكمال منهاه  
بل سبق القضاء بأن يكون شأن جملة في النمو قائماً على ما  
قرّره الفطرة الالهية في شأن افراده وهذا من البديهيات  
التي لا يصح الاختلاف فيها وان اختلف أهل النظر في بيان  
ما تفرّع منه في علوم وضعت للبحث في الاجتماع البشرى

خاصة فلا نطيل الكلام فيه هنا  
 جاءت أديان والناس من فهم مصالحهم العامة بل والخاصة  
 في طور أشبه بطور الطفولية للناسي الحديث العهد بالوجود  
 لا يألف منه إلا ما وقع تحت حسنه ويضعب عليه أن يضع  
 الميزان بين يومه وأمسسه وأن يتناول بذهنه من المعاني ما لا  
 يقرب من لمسه ولم ينفث في روعه من الوجدان الباطن ما  
 يعطفه على غيره من عشيره أو ابن جنسه فهو من الحرص  
 على ما يقيم بناء شخصه في هم شاغل عما يلقي إليه فيما يصله بغيره  
 اللهم إلا يداً تصل إلى فمه بطعام أو تسنده في قعود أو قيام  
 فلم يكن من حكمة تلك الأديان أن تخاطب الناس بما يلطف  
 في الوجدان أو يرقى إليه بسلم البرهان بل كان من عظيم  
 الرحمة أن تسير بالأقوام وهم عيال الله سير الوالد مع ولده في  
 سداجة السن لا يأتيه إلا من قبل ما يحسنه بسمعه أو يبصره  
 فأخذتهم بالأوامر الصاعدة والزواجر الرادعة وطالبتهم  
 بالطاعة وحملتهم فيها على مبلغ الاستطاعة كلفتهم بمعقول  
 المعنى جليّ الغاية وإن لم يفهموا معناه ولم تصل مداركهم إلى

حرماه وجاءتهم من الآيات بما تطرف له عيونهم وتنفعل به  
 ثم شاعرهم وفرضت عليهم من العبادات ما يليق بحالهم هذه .  
 ثم مضت على ذلك أزمان علت فيها الاقوام وسقطت وارتفعت  
 وانحطت وجربت وكسبت وتخالفت واتفقت وذاقت من  
 الأيام آلاماً وتقلبت في السعادة والشقاء أياماً وأياماً ووجدت  
 الأنفس بنفت الحوادث ولقن الكوارث شعوراً أدق من  
 الحس وأدخل في الوجدان لا يرتفع في الجملة عما تشعر به  
 قلوب النساء أو تذهب معه نزعات الغلمان فجاء دين يخاطب  
 العواطف ويناجي المراجع ويستعطف الأهواء ويحدث بخطر  
 القلوب فشرع للناس من شرائع الزهادة ما يصرفهم عن  
 الدنيا بجملتها ويوجه وجوههم نحو الماكوت الاعلى ويقتضى  
 من صاحب الحق أن لا يطالب به ولو بحق ويغلق أبواب  
 السماء في وجوه الاغنياء وما ينحو نحو ذلك مما هو معروف  
 وسنّ للناس سنناً في عبادة الله تتفق مع ما كانوا عليه وما  
 دعاهم اليه فلاقى من تعلق النفوس بدعوته ما أصلح من فاسدها  
 وداوى من أمراضها ثم لم يمض عليه بضعة أجيال حتى ضعفت



العزائم البشرية عن احتمالها وضائق الذرائع عن الوقوف عند حدوده والاخذ بأقواله ووقر في الظنون أن أتباع وصاياه ضرب من المحال فهب القائلون عليه أنفسهم لمنافسة الملوك في السلطان ومزاحمة أهل الترف في جمع الاموال وانحرف الجمهور الاعظم منهم عن جادته بالتأويل وأضافوا عليه ما شاء الهوى من الاباطيل هذا كان شأنهم في السجيا والاعمال نسوا طهارته وبيعوا نزاهته أما في العقائد فتفرقوا شيعاً وأحدثوا بدعاً ولم يستمسكوا من أصوله الا بما ظنوه من أشد أركانها وتوهموه من أقوى دعائمها وهو حرمان العقول من النظر فيه بل وفي غيره من دقائق الاكوان والحظر على الافكار أن تنفذ الى شئ من سرائر الخلقه فصرحوا بأن لا وفاق بين الدين والعقل وأن الدين من أشد أعداء العلم ولم يكف الذاهب الى ذلك أن يأخذوا به نفسه بل جد في حمل الناس على مذهبه بكل ما يملك من حول وقوة وأفضى الغلو في ذلك بالانفس الى نزعة كانت اشأم النزعات على العالم الانساني وهي نزعة الحرب بين أهل الدين للازام ببعض

قضايا الدين فتقوض الاصل ونخرمت العلائق بين الاهل  
وحلت القطيعة محل التراحم والتخاصم مكان التعاون والحرب  
محل السلام وكان الناس على ذلك الى أن جاء الاسلام  
كان سن الاجتماع البشرى قد بلغ بالانسان أشده  
وأعدته الحوادث الماضية الى رشده . فجاء الاسلام يخاطب  
العقل ويستصرخ الفهم واللب ويشرك مع العواطف والاحساس  
في إرشاد الانسان الى سعادته الدنيوية والاخروية وبين  
للناس ما اختلفوا فيه وكشف لهم عن وجه ما اختلفوا عليه  
وبرهن على أن دين الله في جميع الاجيال واحد ومشيئته في  
اصلاح شؤونهم وتطهير قلوبهم واحدة وأن رسم العبادة على  
الاشباح انما هو لتجديد الذكرى في الارواح وأن الله لا  
ينظر الى الصور ولكن ينظر الى القلوب وطالب المكلف  
برعاية جسده كما طالبه باصلاح سره ففرض نظافة الظاهر  
كما أوجب طهارة الباطن وعدّ كلا الامرين طهراً مطلوباً  
وجعل روح العبادة الاخلاص وان ما فرض من الاعمال انما  
هو لما أوجب من التطبع بصالح الملائكات « ان الصلاة تنهى

عن الفحشاء والمنكر « ان الانسان خاق هلوعاً اذا مسه  
 الشر جذوعاً واذا مسه الخير منوعاً الا المصابين » ورفع  
 الغنى الشاكر الى مرتبة الفقير الصابر بل ربما فضله عليه  
 وعامل الانسان في مواعظه معاملة الناصح الهادي للرجل  
 الرشيد فدعاه الى استعمال جميع قواه الظاهرة والباطنة وصرح  
 بما لا يقبل التأويل أن في ذلك رضا الله وشكر نعمته وان  
 الدنيا مزرعة الآخرة ولا وصول الى خير العقبى الا بالسمى  
 في صلاح الدنيا . التفت الى أهل العناد فقال لهم : قل هاتوا  
 برهانكم ان كنتم صادقين وعنف النازعين الى الخلاف  
 والشقاق على ما زعزعوا من أصول اليقين ونص على أن  
 التفرق بغى وخروج عن سبيل الحق المبين ولم يقف في ذلك  
 عند حد الموعدة بالكلام والنصيحة بالبيان بل شرع شريعة  
 الوفاق وقررها في العمل فأباح للمسلم أن يتزوج من أهل  
 الكتاب وسوغ مؤاكلتهم وأوضى أن تكون مجادلتهم بالتي  
 هي أحسن ومن المعلوم ان المحاسنة هي رسول المحبة وعقد  
 الالفة والمصاهرة انما تكون بعد التخاب بين أهل الزوجين

والارتباط بينهما بروابط الائتلاف ثم أخذ العهد على المسلمين ان يدافعوا عمن يدخل في ذمتهم من غيرهم كما يدافعون عن أنفسهم ونص على ان لهم ما لنا وعليهم ما علينا ولم يفرض عليهم جزاء ذلك الا زهيدا يقدمونه من مالهم ونهى بعد ذلك عن كل إكراه في الدين وطيب قلوب المؤمنين في قوله: يا أيها الذين آمنوا عليكم أنفسكم لا يضركم من ضل اذا اهتديتم فعليهم الدعوة الى الخير بالتي هي أحسن وليس لهم ولا عليهم ان يستعملوا أيّ ضرب من ضروب القوة في الحمل على الاسلام فان نوره جدير أن يخرق القلوب وليست الآية في الامر بالمعروف بين المسلمين فانه لا اهتداء الا بعد القيام به ولو أريد ذلك لكان التعبير « على كل واحد منكم بنفسه » لا « عليكم أنفسكم » كما هو ظاهر لكل عربي كل ذلك ليرشد الناس الى أن الله لم يشرع لهم الدين ليتفرقوا فيه ولا يهدىهم الى الخير في جميع نواحيه . رفع الاسلام كل امتياز بين الاجناس البشرية وقرز لكل فطرة شرف النسبة الى الله في الخلقة وشرف اندراجها في النوع الانساني بالجنس

والفصل والخاصة وشرف استعدادها بذلك لبلوغ أعلى درجات الكمال الذي أعدّه الله لنوعها على خلاف ما زعمه المتحللون من الاختصاص بمزايا حرم منها غيرهم وتسجيل الخسة على أصناف زعموا أنها لن تبلغ من الشأن أن تلحق غبارهم فأماتوا بذلك الأرواح في معظم الأمم وصيروا أكثر الشعوب هياكل واشباحاً. هذه عبادات الإسلام على ما في الكتاب وصحيح السنة تتفق على ما يليق بجلال الله وسمو وجوده عن الأشباه وتلتئم مع المعروف عند العقول السليمة فالصلاة ركوع وسجود وحركة وسكون ودعاء وتضرع وتسبيح وتعظيم وكأها تصدر عن ذلك الشعور بالسلطان الإلهي الذي يغمر القوة البشرية ويستغرق الحول فتخشع له القلوب وتستخذي له النفوس وليس فيها شيء يعاوي على متناول العقل إلا نحو تحديد عدد الركعات أو رمي الجمرات على أنه مما يسهل التسليم فيه لحكمة العليم الخبير وليس فيه من ظاهر العبث واستحالة المعنى ما يخل بالأصول التي وضعها الله للعقل في الفهم والتفكير أما الصوم فخرمان يعظم به أمر

الله في النفس وتعرف به مقادير النعم عند فقدها ومكانة الاحسان الالهى في التفضل بها « كتب عليكم الصيام كما كتب على الذين من قبلكم لعلكم تتقون » أما أعمال الحج فتذكر كبير للانسان بأوليات حاجاته وتعهده له بتمثيل المساواة بين أفراده ولو في العمر مرة يرتفع فيها الامتياز بين الغنى والفقير والصعلوك والامير ويظهر الجميع في معرض واحد عرابة الابدان متجردين عن آثار الصنعة وحدث بينهم العبودية لله رب العالمين كل ذلك مع استبقائهم في الطواف والسعي والمواقف ولمس الحجر ذكرى ابراهيم عاياه السلام وهو أبو الدين وهو الذي سماهم المسلمين واستقرار يقينهم على أن لا شئ من تلك البقايا الشريفة يضر أو ينفع وشعار هذا الاذعان الكريم في كل عمل « الله اكبر » أين هذا كله مما تجد في عبادات أقوام آخرين يضل فيها العقل ويتغذر معها خلوص السر للتنزيه والتوحيد . كشف الاسلام عن العقل غمة من الوهم فيما يعرض من حوادث الكون الكبير « العالم » والكون الصغير « الانسان » فقرر أن آيات الله الكبرى في صنع

العالم انما يجرى أمرها على السنن الالهية التي قدرها الله في علمه الازلي لا يغيرها شيء من الطوارئ الجزئية غير أنه لا يجوز أن يغفل شأن الله فيها بل ينبغي ان يحى ذكره عند رؤيتها فقد جاء على لسان النبي صلى الله عليه وسلم «إن الشمس والقمر آيتان من آيات الله لا يخرسان لموت أحد ولا لحياته فاذا رأيتم ذلك فاذكروا الله» وفيه التصريح بأن جميع آيات الكون تجرى على نظام واحد لا يقضى فيه الا العناية الازلية على السنن التي أقامته عليها ثم أماط اللثام عن حال الانسان في النعم التي يتمتع بها الاشخاص أو الامم والمصائب التي يرزؤن بها ففصل بين الامرين فصلا لا مجال منه للخاط بينهما فاما النعم التي يتمتع الله بها بعض الاشخاص في هذه الحياة والرزايا التي يرزأ بها في نفسه فكثير منها كالثروة والجاه والتموة والبنين أو الفقر والضعفة والضعف والنقد قد لا يكون كاسبها أو جالبها ما عليه الشخص في سيرته من استقامة وعبادة ونطاعة وعصيان وكثيراً ما أمهل الله بعض الطغاة البغاة أو الفجرة الفسقة وترك لهم متاع الحياة الدنيا إنظاراً

لهم حتى يتلقاهم ما أعدّ لهم من العذاب المقيم في الحياة الاخرى وكثيراً ما امتحن الله الصالحين من عباده وأتى عليهم في الاستسلام لحكمه وهم الذين اذا أصابتهم مصيبة عبروا عن إخلاصهم في التسليم بقولهم: «إنا لله وإنا اليه راجعون» فلا غضب زيد ولا رضا عمرو ولا إخلاص سريرة ولا فساد عمل مما يكون له دخل في هذه الرزايا ولا في تلك النعم الخاصة اللهم الا فيما ارتباطه بالعمل ارتباط المسبب بالسبب على جاري العادة كارتباط الفقر بالاسراف والذل بالجبن وضنياع السلطان بالظلم وارتباط الثروة بحسن التدبير في الاغاب والمكانة عند الناس بالسمي في مصالحهم على الاكثر وما يشبه ذلك مما هو مبين في علم آخر. أما شأن الامم فليس على ذلك فان الروح الذي أودعه الله جميع شرائعه الالهية من تصحيح الفكر وتسديد النظر وتأديب الالهواء وتحديد مطامح الشهوات والدخول الى كل أمر من بابيه وطالب كل رغبة من اسبابها وحفظ الامانة واستشعار الاخوة والتعاون على البر والتناصح في الخير والشر وغير ذلك من أصول



الفضائل ذلك الروح هو مصدر حياة الامم ومشرق سعادتها  
 في هذه الدنيا قبل الآخرة «من يرد ثواب الدنيا نوته منها»  
 ولن يسلب الله عنها نعمته ما دام هذا الروح فيها يزيد الله  
 الذمم بقوته وينقصها بضعفه حتى اذا فارقتها ذهبت السعادة  
 على أثره وتبعته الراحة الى متره واستبدل الله عزة القوم  
 بالذل وكثرهم بالقل ونعيمهم بالشقاء وراحتهم بالعناء وسلط  
 عليهم الظالمين أو العادلين فأخدم بهم وهم في غفلة ساهون  
 « واذا أردنا ان نهلك قرية أمرنا مترفيها ففسقوا فيها فحق  
 عليها القول فدمرناها تدميراً » أمرناهم بالحق ففسقوا عنه الى  
 الباطل ثم لا ينشعهم الا نين ولا يجديهم البكاء ولا يفيدهم ما  
 بقى من صور الاعمال ولا يستجاب منهم الدعاء ولا كاشف  
 لما نزل بهم الا ان يلجؤا الى ذلك الروح الاكرم فيستنزله  
 من سماء الرحمة يرسل الفكر والذكر والصبر والشكر « ان  
 الله لا يغير ما بقوم حتى يغيروا ما بأنفسهم » « سنة الله في  
 الدين خلوا من قبل ولن تجد لسنة الله تبديلاً » وما أجل ما  
 قاله العباس بن عبد المطلب في استسقائه « اللهم إنه لم ينزل

الغارم وتحرير أرقاب المستعبدين وتيسيراً لابناء السبيل ولم  
يحث على شيء حثه على الانفاق من الاموال في سبيل الخير  
وكثيراً ما جعله عنوان الايمان ودليل الاهتداء الى الصراط  
المستقيم فاستل بذلك ضغائن أهل الفاقة ومحض صدورهم من  
الأحقاد على من فضلهم الله عليهم في الرزق وأشعر قلوب  
أولئك محبة هؤلاء وساق الرحمة في نفوس هؤلاء على أولئك  
البائسين فاستقرت بذلك الطمأنينة في نفوس الناس أجمعين  
وأى دواء لامراض الاجتماع أنجع من هذا « ذلك فضل  
الله يؤتيه من يشاء والله ذو الفضل العظيم ». أغلق الاسلام  
بابي الشر وسدّ ينبوعى فساد العقل والمال بتجريمه الخمر  
والمقامرة والربا تجريمًا باتاً لا هوادة فيه لم يدع الاسلام بعد  
ما قرّرنا أصلاً من أصول الفضائل الا أتى عليه ولا أمّا من  
أمهات الصالحات الا أحيها ولا قاعدة من قواعد النظام الا  
قرّرها فاستجمع للانسان عند بلوغ رشده كما ذكرنا حرية  
الفكر واستقلال العقل في النظر وما به صلاح السجايا واستقامة  
الطبع وما فيه إنهاض العزائم الى العمل وسوقها في سبيل

والى الله ترجع الامور» ثم لعد هذا الوعيد الذى يزعم  
المفترطين وتحق به كلمة العذاب على المختلفين والمتصرين أبرز  
حال الامارين بالمعروف النهائين عن المنكر فى أجل مظاهر  
يمكن أن تظهر فيه حال أمة فقال: كنتم خير أمة أخرجت  
للناس تأمرون بالمعروف وتنهون عن المنكر وتؤمنون بالله»  
فقدّم ذكر الامر بالمعروف والنهي عن المنكر على الايمان  
فى هذه الآية مع ان الايمان هو الاصل الذى تقوم عليه  
أعمال البر والدوحة التى تتفرع عنها أفنان الخير تشریفاً لتلك  
الريضة واعلاء منزلتها بين الفرائض بل تنبيهاً على أنها حناظ  
الايمان وملاك أمره ثم شدّ بالانكار على قوم اغفلوها وأهل  
دين أهملوها فقال: « لعن الذين كفروا من بنى اسرائيل على  
لسان داود وعيسى بن مريم ذلك بما عصوا وكانوا يعتدون  
كانوا لا يتناهون عن منكر فعلوه ابئس ما كانوا يفعلون»  
فقذف عليهم اللعنة وهى أشد ما عنون الله به على ممتته وغضبه.  
فرض الاسلام للفقراء فى أموال الاغنياء حتماً معلوماً يفيض  
به الآخرون على الاولين سداً لحاجة المعدم وتفرجاً لكربة

العربية من أدناها الى اقصاها في أقل من ثلاثين سنة ثم يتناول من بقية الامم ما بين المحيط الغربي وجدار الصين في أقل من قرن واحد وهو أمر لم يعهد في تاريخ الاديان ولذلك ضل الكثير في بيان السبب واهتدى اليه المنصفون فبطل العجب . ابتداء هذا الدين بالدعوة كغيره من الاديان ولقى من أعداء أنفسهم اشد ما يلقي حق من باطل أوذى الداعي صلى الله عليه وسلم بضروب الايذاء وأقيم في وجهه ما كان يصعب تذليله من العقاب لولا عناية الله وعذب المستجيبون له وجرموا الرزق وطردهوا من الدار وسفكت منهم دماء غزيرة غير أن تلك الدماء كانت عيون العزائم تتفجر من صخور يثبت الله بمشهدها المستيقنين ويقذف بها الرعب في انفس المرتابين فكانت تسيل لمنظرها نفوس أهل الريب وهي ذوب ما فسد من طباعهم فتجربى من مناخرهم جرى الدم الفاسد من المقصود على أيدي الاطباء الحاذقين « ليميز الله الخبيث من الطيب ويجعل الخبيث بعضه على بعض فيركمه جميعاً فيجعله في جهنم أولئك هم الخاسرون » تألبت الملل

السمى ومن يتلو القرآن حتى تلاوته يجد فيه من ذلك كنزاً لا ينفذ وذخيرة لا تفتنى هل بعد الرشد وصيانة وبعد اكتمال العقل ولاية كلا قد تبين الرشد من الزنى ولم يبق الا اتباع الهدى والانتفاع بما ساقته أيدي الرحمة لبلوغ الغاية من السعادتين لهذا ختمت النبوات بنبوّة محمد صلى الله عليه وسلم وانتهت الرسالات برسالته كما صرح بذلك الكتاب وأيدته السنة الصحيحة وبرهنت عليه خيبة مدّعيها من بعده واطمئنان العالم بما وصل اليه من العلم الى أن لا سبيل بعد لقبول دعوة يزعم القائم بها أنه يحدث عن الله بشرع أو يصدع عن وحيه يأمر هكذا يصدق نبأ الغيب « ما كان محمد أباً أحد من رجالكم ولكن رسول الله وخاتم النبيين وكان الله بكل شيء عليماً »

انتشار الاسلام بسرعة لم يعهد لها نظير في التاريخ  
كانت حاجة الأمم الى الاصلاح عامة فجعل الله رسالته  
خاتم النبيين عامة كذلك لكن يندعش عقل الناظر في  
أحوال البشر عند ما يرى أن هذا الدين يجمع اليه الامة

العربية من أدناها الى اقصاها في أقل من ثلاثين سنة ثم يتناول من بقية الامم ما بين المحيط الغربي وجدار الصين في أقل من قرن واحد وهو أمر لم يعهد في تاريخ الاديان ولذلك ضل الكثير في بيان السبب واهتدى اليه المنصفون فبطل العجب . ابتداء هذا الدين بالدعوة كغيره من الاديان واتي من أعداء أنفسهم اشد ما ياتي حق من باطل أوذى الداعى صلى الله عليه وسلم بضروب الايذاء وأقيم في وجهه ما كان يصعب تذليله من العقاب لولا عناية الله وعذب المستجيبون له وحرهوا الرزق وطردهوا من الدار وسفكت منهم دماء غزيرة غير أن تلك الدماء كانت عيون العزائم تتفجر من صخور يثبت الله بمشهدها المستيتين ويقذف بها الرعب في انفس المرتابين فكانت تسيل بمنظارها نفوس أهل الريب وهي ذوب ما فسد من طبائعهم فتجري من مناخرهم جرى الدم الزاسد من المتصود على أيدي الاطباء الحاذقين « ليميز الله الخبيث من الطيب ويجعل الخبيث بفضه على بعض فيركه جميعاً فيجعله في جهنم أولئك هم الخاسرون » تألبت الملل

المختلفة ممن كان يسكن جزيرة العرب وما جاورها على الاسلام  
 ليحصدوا ثبته ويخنقوا دعوته فما زال يدافع عن نفسه دفاع  
 الضعيف للاقوياء والفقير للاغنياء ولا ناصر له الا انه الحق  
 بين الاباطيل والرشد في ظلمات الاضاليل حتى ظفر بالعزة  
 وتعزز بالمنعة وقد وطئ ارض الجزيرة اقوام من اديان اخر  
 كانت تدعو اليها وكانت لهم ملوك وعزة وسلطان وجملوا  
 الناس على عقائدهم بأنواع من المكاره ومع ذلك لم يبلغ بهم  
 السعي نجاحاً ولا انا لهم القهر فلاحاً . ضم الاسلام سكان  
 القفار العربية الى وحدة لم يعرفها تاريخهم ولم يعهد لها نظير  
 في ماضيهم وكان النبي صلى الله عليه وسلم قد ابلى رسالته  
 بأمر به الى من جاور البلاد العربية من ملوك الفرس والرومان  
 فهزوا وامتنعوا وناصبوه وقومه الشر وأخافوا السابلة وضيقوا  
 على المتاجر فبعث اليهم البعوث في حياته وجرى على سنته  
 الأئمة من صحبته طلباً للامن وابلاناً للدعوة فاندفعوا في ضعفهم  
 وفتنهم يحملون الحق على أيديهم وانها لوابه على تلك الامم في  
 قوتها ومنعتها وكثرة عددها واستكمال أهنها وعددها فظفروا

منها بما هو معلوم وكانوا متى وضعت الحرب أوزارها واستقر  
السلطان للفاتح عطفوا على المغلوبين بالرفق واللين وأباحوا لهم  
البقاء على أديانهم وإقامة شعائرهم آمنين مطمئنين ونشروا  
حمايتهم عليهم يمنعوهم مما يمنعون منه أهلهم وأموالهم وفرضوا  
عليهم كفاء ذلك جزءاً قليلاً من مكاسبهم على شرائط معينة  
كانت الملوك من غير المسلمين إذا فتحو مملكة اتبعوا جيشها  
الظافر بجيش من الدعاة إلى دينها ياجون على الناس بيوتهم  
ويغشون مجالسهم ليخملوهم على دين الظافر وبرهانهم الغلبة  
وحجتهم القوة ولم يقع ذلك لفاتح من المسلمين ولم يعهد في  
تاريخ فتوح الإسلام أن كان له دعاة معروفون لهم وظيفة  
ممتازة يأخذون على أنفسهم العمل في نشره ويقفون مساعداً  
على بث عقائده بين غير المسلمين بل كان المسلمون يكتفون  
بمخالطة من عداهم ومحاسنتهم في المعاملة وشهد العالم بأسره  
أن الإسلام كان يعدّ مجاملة المغلوبين فضلاً وإحساناً عند ما  
كان يعدّها الأروبيون ضعة وضعفاً. رفع الإسلام ما ثقل  
من الاتاوات وردّ الأموال المسلوقة إلى أربابها وانزع



الحقوق من معتصبيها ووضع المساواة في الحق عند التقاضي بين المسلم وغير المسلم . بلغ أمر المسلمين فيما بعد ان لا يقبل اسلام من دخل فيه الا بين يدي قاض شرعي باقرار من المسلم الجديد أنه أسلم بلا اكراه ولا رغبة في دنيا . وصل الامر في عهد بعض الخلفاء الامويين ان كره عمالهم دخول الناس في دين الاسلام لما رأوا أنه ينقص من مبالغ الجزية وكان في حال أوائك العمال صدّ عن سبيل الدين لا محالة عرف خلفاء المسلمين وملوكهم في كل زمن ما لبعض أهل الكتاب بل وغيرهم من المهارة في كثير من الاعمال فاستخدموهم وصعدوا بهم الى أعلى المناصب حتى كان منهم من تولى قيادة الجيش في اسبانيا . اشتهرت حرية الاديان في بلاد الاسلام حتى هجر اليهود أوروبا فراراً منها بدينهم الى بلاد الاندلس وغيرها . هذا ما كان من أمر المسلمين في معاماتهم لمن أظلمهم بسيو فهم لم يفعلوا شيئاً سوى أنهم حملوا الى أوائك الاقوام كتاب الله وشريعته وألقوا بذلك بين أيديهم وتركوا الخيار لهم في القبول وعدمه ولم يقوموا بينهم

بدعوة ولم يستعملوا لا كراههم عليه شيئاً من القوة وما كان من الجزية لم يكن مما يثقل أداؤه على من ضربت عليه فما الذي أقبل بأهل الأديان المختلفة على الإسلام واقنعهم أنه الحق دون ما كان لديهم حتى دخلوا فيه أفواجاً وبذلوا في خدمته ما لم يبذله العرب أنفسهم . ظهور الإسلام على ما كان في جزيرة العرب من ضروب العبادات الوثنية . وتغايبه على ما كان فيها من رذائل الأخلاق وقبائح الأعمال وسيره بسكانها على الجادة القويمة حقق لقراء الكتب الإلهية السابقة أن ذلك هو وعد الله لنبيه إبراهيم وإسماعيل وأن هذا الدين هو ما كانت تبشر به الأنبياء أقوامها من بعدها فلم يجد أهل النصفة منهم سبيلاً إلى البقاء على العناد في مجاهدته فتأقوه شاكرين وتركوا ما كان لهم بين قومهم صابرين . اوقع ذلك من الريب في قلوب مقلديهم ما حركهم إلى النظر فيه فوجدوا لطفاً ورحمة وخيراً ونعمة لا عقيدة ينفر منها العقل وهو رائد الإيمان الصادق ولا عمل تضعف عن احتماله الطبيعة البشرية وهي القاضية في قبول المصالح والمرافق . رأوا

ان الاسلام يرفع النفوس بشعور من اللاهوت يكاد يعلو بها  
عن العالم السفلي ويلجئها بالملكوت الاعلى ويدعوها إلى إحياء  
ذلك الشعور بخمس صلوات في اليوم وهو منع ذلك لا يمنع  
من التمتع بالطيباب ولا يفرض من الرياضات وضروب الزهادة  
ما يشق على الفطرة البشرية تجشمه ويعد برضا الله ونيل ثوابه  
حتى في توفية البدن حتمه متى حسنت النية وخلصت السريرة  
فاذا نزت شهوة أو غلب هوى كان الغفران الالهى ينتظره  
متى حسنت التوبة وكملت الاوبة. تبدت لهم سداجدة الدين عند  
ما قرؤوا القرآن ونظروا في سيرة الطاهرين من حاملية اليهم  
وظهر لهم الفرق بين مالا سبيل إلى فهمه وما تكفى جولة نظر  
في الوصول الى علمه فتراموا اليه خفافاً من ثقل ما كانوا عليه  
كانت الأمم تطاب عقلاً في دين فوافاها وتطلع الى عدل  
في ايمان فأتاها فما الذى يحجم بها عن المسارعة الى طابقتها  
والمبادرة الى رغيبتها كانت الشعوب تنن من ضروب الامتياز  
التي رفعت بعض الطبقات على بعض بغير حق وكان من  
حكمها ان لا يقام وزن لشؤون الا دين متى عرضت دونها

شبهوات الاعلين فجاء دين يحدد الحقوق ويسوي بين جميع الطبقات في احترام النفس والدين والغرض والمال ويسوغ لامرأة فقيرة غير مسلمة أن تأبى بيع بيت صغير بأية قيمة لامير عظيم مطلق السلطان في قطر كبير وما كان يريد له نفسه ولكن ليوسع به مسجداً فلما عقد العزيمة على أخذه مع دفع اضعاف قيمته رفعت الشكوى الى الخليفة فوزد أمره برده بيدها اليها مع لوم الامير على ما كان منه. عدل يسمح اينودى ان يخاضم مثل على بن ابي طالب امام القاضى وهو من نعلم من هو ويستوقفه معه للتقاضى الى ان قضى الحق بينهما!! هذا وما سبق بيانه مما جاء به الاسلام هو الذى حبه الى من كانوا اعداءه وزدوا اليه اهواءهم حتى صاروا انصاره واولياءه. غلب على المسلمين فى كل زمن روح الاسلام فكان من خلقهم العطف على من جاورهم من غيرهم ولم تستشعر قلوبهم عداوة لمن خالفهم الا بعد ان يخرجهم الجار فهم كانوا يتعلمونها ممن سواهم ثم لا يكون الا طائفاً يحل ثم يرتحل فاذا انقطعت اسباب الشعب تراجعت القلوب الى سابق ما أفتته من اللين

والمياسرة ومع ذلك بل وغفلة المسلمين عن الاسلام وخذلانهم له وسمى الكثير منهم في هدمه بعلم وبغير علم لم يقف الاسلام في انتشاره عند حد خصوصاً في الصين وفي افريقيا ولم يخل زمن من رؤية جموع كثيرة من ملل مختلفة تنزع الى الاخذ بعتائده على بصيرة فيما تنزع اليه لا سيف ورائها ولا داعي امامها وانما هو مجرد الاطلاع على ما أودعه مع قليل من حركة الفكر في العلم بما شرعه ومن هذا تعلم أن سرعة انتشار الدين الاسلامي واقبال الناس على الاعتقاد به من كل ملة انما كان لسهولة تعلقه ويسر أحكامه وعدالة شريعته وبالجملة لان فطر البشر تطلب ديناً وترتاد منه ما هو أمس بمصالحها وأقرب الى قلوبها ومشاعرها وأدعي الى الطمأنينة في الدنيا والآخرة ودين هذا شأنه يجد الى القلوب منفذاً والى العقول مخلصاً بدون حاجة الى دعاة ينفقون الاموال الكثيرة والاوقات الطويلة ويستكثرون من الوسائل ونصب الجبائل لاسقاط النفوس فيه . هذا كان حال الاسلام في سداخته الاولى وطهارته التي أنشأ الله عليها ولا يزال على جانب عظيم منها

في بعض أطراف الأرض إلى اليوم. قال من لم يفهم ما قدمناه  
 أو لم يرد أن يفهمه أن الإسلام لم يطف على قلوب العالم بهذه  
 السرعة إلا بالسيف فقد فتح المسلمون ديار غيرهم والقرآن  
 ياحدى الدين والسيف بالآخرى يعرضون القرآن على المغلوب  
 فإن لم يقبله فصل السيف بينه وبين حياته! سبحانك هذان  
 عظيم! ما قدمناه من معاملة المسلمين مع من دخلوا تحت  
 سلطانهم هو ما تواترت به الأخبار تواتراً صحيحاً لا يقبل الريبة  
 في جملة وان وقع اختلاف في تفصيله وإنما شهر المسلمون  
 سيوفهم دفاعاً عن أنفسهم وكفا للعدوان عنهم ثم كان الافتتاح  
 بعد ذلك من ضرورة الملك ولم يكن من المسلمين مع غيرهم  
 إلا أنهم جاؤروهم وأجاروهم فكان الجوار طريق العلم بالإسلام  
 وكانت الحاجة لصالح العقل والعمل داعية الانتقال إليه.  
 لو كان السيف ينشر ديناً فقد عمل في الرقاب للاكراه على  
 الدين والالزام به مهدداً كل أمة لم تقبله بالابادة والمحو من  
 سطح البسيطة مع كثرة الجيوش ووفرة العدد ولبوغ القوة  
 بأسمى درجة كانت تمكن لها وابتداءً ذلك العمل قبل ظهور

الإسلام بثلاثة قرون كاملة واستمرّ في شدّته بعد مجيء  
 الإسلام سبعة أجيال أو يزيد فتلك عشرة قرون كاملة لم يبلغ  
 فيها السيف من كسب عقائد البشر مبلغ الإسلام في أقل من  
 قرن ! هذا ولم يكن السيف وحده بل كان الحسام لا يتقدّم  
 خطوة الا والدعاة من خلفه يقولون ما يشاؤون تحت حمايته  
 مع فيرة تفيض من الافئدة وفضاحة تتدفق عن الالسنه  
 وأموال تخبّ الباب المستضعفين ! ان في ذلك آيات للمستيقنين !  
 بعثت حكمة الله في أمر هذا الدين ساسييل حياة نبع في  
 القفار العربية أبعد بلاد الله عن المدنية فاض حتى شملها فجمع  
 شملها فأحيها حياة شعبية مليه . علامده حتى استغرق ممالك  
 كانت تفاخر أهل السماء في رفعتها وتعلو أهل الارض  
 بمدنيتها . زلزل هديره على لينة ما كان استيجبر من الأرواح  
 فانشئت عن مكنون سر الحياة فيها . قالوا كان لا يخلو من  
 غلب « بالتخريك » قلنا تلك سنة الله في الخلق لا تزال المصارعة  
 بين الحق والباطل والرشد والني قائمة في هذا العالم الى أن  
 تقضى الله قضاءه فيه . اذا ساق الله ربيعاً الى أرض جديبة ليحيي

ميتها ويتقع غانها وينمى الخصب فيها أفينقض من قدره ان  
أتى في طريقه على عتبة فعلاها أو بيت رفيع العماد فهوى به .  
سطع الاسلام على الديار التي بلنها أهله فلم يكن بين أهل تلك  
الديار وبينه الا أن يسموا كلام الله ويفقهوه . اشتغل المسلمون  
بعضهم ببعض زماناً وانحرفوا عن طريق الدين أزماناً فوقف  
وقفة القائد خذله الانصار وكاد يتزحزح الى ما وراء انكن  
الله بالغ أمره فأنحدرت الى ديار المسلمين أمم من التتارية ودها  
جنكيزخان وفعلموا بالمسلمين الافاعيل وكانوا وثنيين جاؤا  
لمحض الغلبة والسلب والنهب ولم يابث أعقابهم أن اتخذوا  
الاسلام ديناً وحملوه الى أقوامهم فعمهم منه ماعم غيرهم . جاؤا  
لشقتوتهم فعاجوا بسعادتهم . ! حمل الغرب على الشرق حملة  
واحدة لم يبق ملك من ملوكه ولا شعب من شعوبه الا  
اشترك فيها واستمرت المجالدات بين الغربيين والشرقيين  
أكثر من مائتي سنة جمع فيها الغربيين من الغيرة والحمية  
للدين ما لم يسبق لهم من قبل وجيشوا من الجند وأعدوا من  
القوة ما بلغت طاقتهم وزحفوا على ديار المسلمين وكانت فيهم



بقية من روح الدين فغلب الفرييون على كثير من البلاد  
الاسلامية وانتهت تلك الحروب الجارفة بأجلائهم عنها . لم  
جاؤا وبماذا رجعوا؟ ظفر رؤساء الدين في الغرب بأثارة شعوبهم  
ليبيدوا ما يشاؤون من سكان الشرق أو يستولى سلطان تلك  
الشعوب على ما يعتقدون لانفسهم الحق في الاستيلاء عليه  
من البلاد الاسلامية. جاء من الملوك والامراء وذوى الثروة  
والاعلياء جم غفير وجاء ممن دونهم من الطبقات ما قدروه  
بالملايين استقر المقام بكثير من هؤلاء في أرض المسلمين  
وكانت فترات تنطفيء فيها نار الغضب وتثوب العقول الى  
سكينتها تنظر في أحوال المجاورين وتلتقط من أفكار المخالطين  
وتفعل بما ترى وما تسمع فتبينت أن المبالغات التي أطاشت  
الاحلام وجسمت الآلام لم تصب مستقر الحقيقة ثم وجدت  
حرية في دين وعلماً وشرعاً وصنعة مع كمال في يقين وتعلمت  
أن حرية النكر وسعة العلم من وسائل الايمان لا من العوادي  
عليه ثم جمعت من الآداب ما شاء الله وانطلقت الى بلادها  
ريرة العين بما غنمته من جلادها هذا الى ما كسبه السفار

من أطراف الممالك الى بلاد الاندلس بمخالطة حكمائها وأدبائها  
ثم عادوا به الى شعوبهم لينذيقوهم حلاوة ما كسبوا وأخذت  
الافكار من ذلك العهد تتراسل والرغبة في العلم تتزايد بين  
الغربيين ونهضت الهمم لقطع سلاسل التقليد ونزعت العزائم  
الى تقييد سلطان زعماء الدين والاخذ على أيديهم فيما تجاوزوا  
فيه وصاياهم وحرقوا في معناه ولم يكن بعد ذلك الا قليل من  
الزمن حتى ظهرت طائفة منهم تدعو الى الاصلاح والرجوع  
بالدين الى سداجته وجاءت في اصلاحها بما لا يبعد عن  
الاسلام الا قليلاً بل ذهب بعض طوائف الاصلاح في  
العقائد الى ما يتفق مع عقيدة الاسلام الا في التصديق برسالة  
محمد صلى الله عليه وأن ما هم عليه إنما هو دينه يختلف عنه اسما  
ولا يختلف معنى الا في صورة العبادة لا غير . ثم أخذت أمم  
أوروبا تفتك من أسرها وتصلح من شؤونها حتى استقامت  
أمور دنيائها على مثل ما دعا اليه الاسلام غافلة عن قائدتها  
لاهية عن مرشدتها وتقررت أصول المدينة الحاضرة التي  
تفاخر بها الاجيال المتأخرة ما سبقتها من أهل الازمان الغابرة .

هذا طل من وائله أصاب أرضاً قابلة فاهتزت وربت وأنبتت  
من كل زوج بهيج جاء. القوم ليبيدوا فاستفادوا وعادوا ليفيدوا.  
ظن الرؤساء ان في إهاجة شعوبهم شفاء ضعفهم وتقوية  
زكهم فباؤا بوضوح شأنهم وضعفة سلطانهم. وما بيناه في  
شأن الاسلام - ويعرفه كل من تفقه فيه - قد ظفر به كثير  
من أهل النظر في بلاد الغرب فعرفوا له حقه واعترفوا أنه كان  
أكبر أساتذتهم فيما هم فيه اليوم والى الله عاقبة الامور

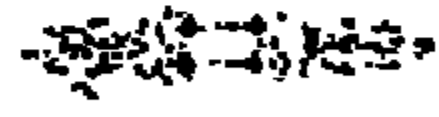


### (تغيير)

وقع غلط منطبي في صحيفة ١٧٤ من هذا الكتاب فقد جاء في السطر  
الثامن منها ان نهاية مدة تولي ابرهة سنة ٥٨٩ والصحيح ٥٧١ وكذلك  
يجب التنويه بانه اختلف في زمن ولاية يكسوم فالبعض جعلها كما هو مذکور  
بالصحيفة المذكورة في السطر الخامس عشر منها والبعض - واظنه الأرجح -  
جعله قبل ذلك بدليل ما جاء في مزوج الذهب من أن آخر ولاية الحبشة على  
اليمين هو مسروق اخو يكسوم وقد قتله وهز ز الديلمي الذي جاء مع ابن  
ذی یزن من عند كرى انوشروان الخمس واربعين سنة من حكم انوشروان  
وذلك يوافق سنة ١٥٧٥ . والله تعالى أعلم .

## فهرست الجزء الأول

من كتاب تاريخ دول العرب والاسلام



صحيحة

( تمهيد )

- |  |    |
|--|----|
| حدود بلاد العرب                                    | ١١ |
| مواطن العرب وحاصلات بلادهم ومناخها                 | ١٢ |
| مساحة جزيرة العرب وعدد سكانها                      | ٢١ |
| تشوف الافرنج الى بلاد العرب وذكر أشهر سياجيتهم بها | ٢٢ |

## ﴿ الباب الأول ﴾

## الفصل الأول

- |   |    |
|---|----|
| فيما كان عليه العرب قبل الاسلام           | ٤١ |
| نسب العرب وطبقاتهم                        | ٤١ |
| طبائع العرب وأحوالهم وصفاتهم وبعض عاداتهم | ٤٣ |
| أقضية العرب وترتيب حكوماتهم               | ٦٦ |
| أحكام العرب في الجاهلية                   | ٧٠ |
| حروب العرب وتعرف بأيام العرب              | ٧١ |

	مصحفة
الزواج والطلاق فى الجاهلية	٧٤
تقویم العرب فى الجاهلية	٧٧
خرافات العرب ومعتقداتهم	٨٣
معتقدات العرب وديانهم	٨٥
فى لغة العرب وآدابهم وأشعارهم وشعرائهم وأسواقهم	٩٠
شعراء العرب والمعلقات السبع	١٠١
علوم العرب ومعارفهم	١١٥
فى الكتابة عند العرب	١٢٣
صناعة العرب فى الجاهلية	١٣١
التجارة فى الجاهلية	١٣٢
نقود العرب ومسكوكاتهم وموازنهم	١٣٤
( الفصل الثانى )	
طبقة العرب البائدة	١٣٨
قوم عاد	١٤٠
قوم ثمود	١٤٣

محنة

- ١٤٦ قوم طسم وجديس
- ١٥٢ ذكر بعض من قبائل أخرى بأئدة
- ( الفصل الثالث )
- ( طبقة العرب الباقية )
- العرب المتفرقة
- ١٥٤ تمهيد
- ١٥٥ ملوك اليمن قبل سيل العرم .
- ١٦٢ مملكة اليمن بعد السيل
- ١٧٠ استيلاء الجبشة على اليمن
- ١٧٣ ملوك الجبشة على اليمن من سنة ٥٢٩ لسنه ٦٠١ مسيحية
- ١٧٤ استيلاء الفرس على اليمن
- ١٧٨ مملكة العراق وملوك الحيرة من سنة ٢١٠ الى سنة ٦٣٤ مسيحية
- ٢٠٧ ملوك متفرقون في جزيرة العرب
- ٢٠٧ ملوك كندة

صحيفة

٢١٨ ومن ملوك العرب المتفرقين أيضاً

﴿ الفصل الرابع ﴾

( طبقة العرب الباقية )

العرب المستعربة

٢٢٥ أسباب مجيء انما عييل عليه السلام الى مكة ومصاهرته

لبنى جرهم

٢٢٨ عمارة البيت الحرام بمكة

٢٢٩ أمراء الحجاز وولاية البيت وسدانة الكعبة وفضل

قريش على من عداها واجتماع مناصب الشرف فيها

٢٣٣ اغارة الحبشة على مكة وواقعة الفيل

٢٣٧ مولده صلى الله عليه وسلم ونسبه ورضاعه ونشأته

وتربيته وجماله وسيرته حين بعثته

٢٥٠ مجمل أحوال العالم في ذلك العهد

﴿ الباب الثاني ﴾

( في العرب بعد الاسلام )

صحيفة

## ( الفصل الاول )

- ٢٥٤ الوحي وابتداء النبوة والرسالة والدعوة للاسلام  
 ٢٥٩ أذى قريش للنبي ولأصحابه والهجرة للحبشة  
 ٢٦١ اشتداد الاذى بالرسول وأصحابه  
 ٢٧٠ الهجرة للمدينة والانصار والمهاجرون  
 ٢٨٢ غزواته عليه السلام  
 ٣١٠ دعوته الملوك والامراء للاسلام  
 ٣١٢ حجة الوداع وخطبتها  
 ٣١٥ وفاته عليه السلام  
 ٣٢٠ سيرته عليه السلام بعد بعثته لحين وفاته

## الفصل الثاني

- ٣٢٥ القرآن وكونه معجزاً  
 ٣٣٦ الدين الاسلامي أو الاسلام  
 ٣٦٤ انتشار الاسلام بسرعة لم يعهد لها نظير في التاريخ





